حفل إفطار رمضاني

مجموعة قصصية

د. محمد عباس



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : حفل إفطار رمضاني.. مجموعة قصصية

المؤلف : د. محمد عباس

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١١



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

حفل إفطار رمضاني

الثورة كما رآها الدكتور محمد عباس منذ أكثر من ثلاث أعوام

منذ أكثر من ثلاثة أعوام، وفي العدد ٣٠٢ من مجلة المختار الإسلامي الصادر في غرة شوال –١٤٢٨ – أكتوبر ٢٠٠٧– نشرت هذه القصة بعنوان: «حفل إفطار رمضاني» وهي تحتوى على تفاصيل مذهلة لما حدث بالفعل في ثورة ٢٥ يناير ومنها على سبيل المثال أن شباب الثورة غير اسم ميدان التحرير وجعلوه : «ميدان الشهداء»!!.. كما تحدد القصة ثروة الرئيس الطاغوت الهارب بأنها: « سبعون مليار دولار».. نعم.. سبعون مليار!!.. كما تحدثت القصة عن انهيار الأمن وانسحابه وارتداء أفراده ثيابا مدنية واندساسهم وسط المتظاهرين وانطلاق فرق البلطجة التابعة للحاكم. وبعد أن يصل حشد الجماهير في الشوارع إلى رقم العشرة ملايين يسقط الطاغوت ويفر.

القصة يرويها حفيد كما حكاها له جده في رمضان عام ١٥٠٠ هـ الموافق ٢٠٧٧م حيث اشتعلت الثورة كما تخيلها الكاتب عام ٢٠١٩م.

ونحن هنا نعيد نشر القصة حرفيا:

حفل إفطار رمضاني

نص أدبي بقلم : د. محمد عباس

نشرت في مجلة المختار الإسلامي – أكتوبر ٢٠٠٧
الخميس ١ رمضان ١٥٠٠هـ/ ٢٢ يوليو ٢٠٧٧م

-١-

ها هو ذا رمضان يعود، ما أجمله، كم أحبه، رغم أيام العناء والجوع والعطش، ومنذ كنت أفطر عند الظهر، وكل عام يطول صيامي ساعة أو ساعتين، حتى صمت اليوم كاملا للمرة الأولى في العام الماضي، وكانت جائزتي الكبرى أن قربني جدي، بل وسمح لي في بعض الأحيان أن أتوسد فخذه، فلا يوقظني إشفاقا ورحمة إذا غلبني النوم و أنا أسمع حكاياته.

ظللت أعواما و أعواما، كلما سمعت حكاية بطل، تجسد ذلك البطل في شكل جدي. وظننته يخفي علينا أنه كان هو بنفسه البطل. وتخابثت عليه مرة فسألته:

– جدي: هل كنت موجودا أيام صلاح الدين وهل شاهدته؟

وكنت أموت شوقا لأن يحتويني في حضنه ويخصني بالسر وحدي قائلا: أنا صلاح الدين.

لكنه انفجر ضاحكا فملأني العار والخزي، وقلت لنفسي ربما قطع على نفسه عهدا ألا يفشي السر لأحد.

وبرغم خزيي وعاري لم أتوقف، بل إنني كنت أظن أنه حتى الملائكة تشبهه، وأنها لو ظهرت لنا على الأرض فلن يكون شكلها إلا شكله.

-٢-

لم أستوعب حكايات كثيرة من حكايات جدي، إما لأنها كانت صعبة عليّ، و إما

لأنني كنت أنام وهو يحكيها فينقطع مني الخيط وتضيع الحبكة. ولولا أن إخوتي وأبناء عمومتي أسعفوني برتق ثقوب الذاكرة ما استطعت أن أسجل هذه الذكريات بعد حدوثها بما يقارب ربع القرن، أي في بدايات القرن الثاني والعشرين.

-٣-

حكى لنا جدي عن الطاغوت ألف حكاية، فسألته ذات مرة في دهشة:

- كم ألف عام عاش هذا الطاغوت.

وضحك جدي قائلا أن الطاغوت ليس شخصا، و إنما هو لقب، كالملك، والرئيس، وكفرعون.

-٤-

ثمة حكاية لم يمل جدي من حكايتها ألف مرة، لم تكن مرة منها مثل سابقاتها، كان فيها دائما يتوهج، وكان وجهه يضيء بضوء غريب، وكنت أختلس النظر إلى الحائط كل حين، متوقعا في كل مرة أن أرى ظلال أجسادنا الناتجة عن نور وجهه المنسكب علينا تتمدد على الحائط.

وكان جدي في كل مرة يقول:

- كان هذا الحدث هو أهم حدث في العقد الأول من هذا القرن.

أما الحدث فكان قيام الطاغوت بإلغاء حفل لإفطار رمضاني كانت تقوم به كل عام جماعة إخوة الإسلام.

وسألت جدي غير مصدق:

وكيف استطاع الطاغوت أن يتحدى جماعة يحكم رجالها دول العالم الإسلامي كله

واكتسى وجه جدي ببسمة نصفها ألم و نصفها انتصار وتمتم

في ذلك الوقت لم يكن الواحد منا يأمن أن يبيت في بيته دون أن يتخطفه خدم

الطاغوت وجلاديه، ولم يكن الواحد منا يستطيع أن يدير أي عمل أو أن يملك أي مشروع، بعد أن استولى أعوان الطاغوت على كل ما نملك ونهبوه، ابتداء من المصادرة والتأميم لتكوين القطاع العام ومرورا ببيع القطاع العام لتصفيته ومرورا بشركات توظيف الأموال ثم المحاكمات الاستثنائية والمدعي الاشتراكي، كانت عملية نهب، ونزح للثروة من فئة لصالح اللصوص الذين يملكون الإذاعة والتليفزيون والصحف والأمن. وكان شعارهم الذي لم يعلنوه ولم يتحولوا عنه أن رعي الخنازير خير من رعي الجمال!.

قال جدي أنه من المعروف أن جميع التنظيمات الإسلامية قد توحدت بعد المنع ، وبعد أن أدركوا أن الإسلام هو المستهدف، فعبروا تناقضاتهم، وتوحدوا تحت راية واحدة أطلقوا عليها إخوان الإسلام، وتختصر في كلمة واحدة هي: الإخوان.

كرر جدي الحكاية ألف مرة، حاولت أن أجمع الروايات لكنها اختلفت في التواريخ، فأكد أبناء عمي الأول أنها حدثت منذ سبعين عاما، أبناء العم الثاني قالوا بل منذ خمسة وستين، أما أختي فقالت بل منذ خمسة وسبعين عاما، وبعد أن استبدت بي الحيرة، و بعد مراجعتي للاحتمالات جميعا، رجحت أن منع حفل الإفطار تكرر ثلاث مرات، والأرجح أنه على يد طاغوتين أو ثلاثة، لأن المؤكد أن الطاغوت الأول هلك بعد الحدث، بطريقة أسطورية مذهلة قلبت كل الموازين، حتى أن الناس كانوا يسيرون في الشوارع يضربون كفا بكف هاتفين:

- أخذ عزيز مقتدر.

وكان البعض الآخر يرتل:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾[آل عمران:٢٦].

وكان آخرون يقولون في ذهول:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف].

-٥-

في ليال كثيرة، بعد أن كبرت قليلا، وتوجت حفلات الإفطار اليومية بصلاة التراويح، كان جدي يجلس معنا بعد الصلاة ليحكي، وفي حكايات كثيرة، كانت دموعي تسيل في صمت، لكن في أحيان أخرى كنت أبكي و أنتحب، بل إنني في مرات لم أكتف بالنحيب فانفجرت أصرخ في نوبات عاتية، كان جدي يحكي لنا عن شهيد في مثل عمري، اسمه محمد الدرة، وكان يحكي كيف قتلوه، فصرخت، ويوما آخر كان يحكي عن شهيدة أصغر مني، اسمها إيمان حجو، أرانا جدي صورتها في كتاب ضخم كان لا يكاد يفارقه، كان حجم الجرح الناتج عن القذيفة في ظهرها هائلا، حتى تخيلت أنه في عرض السماوات والأرض، في المرة الثالثة، كان جدي الذي كان يستعين بفنون التكنولوجيا يعرض لنا مشهدا مصورًا عن طفلة اسمها هدى غالية، خرجت مع أهلها للتنزه على شاطئ بحر غزة، كانت تبني قصرا من الرمال بعيدا عنهم، وفجأة انطلقت قذيفة إسرائيلية مزقت الأسرة، وفي لحظة، في لحيظة، في ثانية، في عشر ثانية، كان الأب والأم والإخوة أشلاء، كان الماضي والحاضر والمستقبل أشلاء، كان الحب والوئام والرحمة والحنان أشلاء. كان العدل على الأرض مزقا مزقا تتجسد حتى كدت أراها وأشم ريحها، قال جدي أنه بكي كثيرا يوم حدث ذلك، وعندما لمحت جدي يكبح دمعة فيعجز فيمسحها خفية تحول نحيبي إلى صراخ، حاولت إسكات نفسي فعجزت، حاولوا إسكاتي فعجزوا، كنت أجد نفسي مكانها، وكان أبي و أمي و إخوتي وأبناء عمومتي هم الأشلاء، وكانت رأس جدي مقطوعة، وعلى الرغم من ذلك كانت عيناه مفتوحتان، وشفتاه تتحركان وهو يكمل الحكاية، وظللت أصرخ و أصرخ وأصرخ، ولم يكن ثمة مناص من استدعاء الطبيب.

بعد ذلك كان جدي أكثر حرصا، وكان يجمل حين يروي لنا تاريخ المذابح

والنكبات والأهوال.

-٦-

حكى لنا جدي عن طاغوت ارتدت أمه و أخته عن الإسلام من أجل الشهوة، ولم يكن ذلك أفظع جرائمها.

كانت نخب الطواغيت كلها قد ابتعدت عن مرجعية القرآن والتزمت مرجعية الشيطان. وكانت قد هجرت الإسلام لتغرق في الاستسلام.

وواصل جدي الحكاية فقال أن نصف أبناء الطواغيت قد ارتدوا بعد الثورة الإسلامية ليحافظوا على مصالحهم وليجدوا ملاذا آمنا، ما زالوا يفضلون رعي الخنازير. النصف الآخر يتسول.

-٧-

لم أبرأ من الكابوس الذي كنت أرى فيه رأس جدي مقطوعة، وعيناه مفتوحتان، وشفتاه تتحركان وهو يكمل الحكاية، إلا بعد أن حكى لنا كيف تبخرت إسرائيل وتلاشت بعد الثورة، دون طلقة رصاص واحدة. هنالك فقط، ذهب فزعي واختفي روعي وتلاشى غضبي واسترحت.

-٨-

حكى لنا جدي عن اشتعال الخلافات بعد الثورة والوحدة الإسلامية، وكيف تنافست دمشق وبغداد والقاهرة وإسلامبول على أن تكون عاصمة للخلافة، لكن مجالس الشورى الإقليمية ورئاسته المركزية اجتمعوا فاتفقوا على قرار لم يختلف عليه أحد، وهو أن تعود الخلافة إلى العاصمة التي اختارها لها الرسول ﷺ: المدينة المنورة.

-٩-

من أجمل صفات جدي أنه كان مثلنا، يبكي ويضحك، ويفرح ويحزن، ولكم

بكى وانتحب وهو يحكي لنا عن سقوط عاصمة الخلافة منذ قرن ونصف قرن، وإنشاء إسرائيل، ولقد سمعته ينتحب حين حكى لنا عن هزيمة ٦٧ و عن إعدام سيد قطب وعن التعذيب والتزوير والانهيار أمام أمريكا وإسرائيل. كما كان وجهه يشرق بالنور وهو يحكي لنا عن انتصار العاشر من رمضان، أو عن حفل الإفطار الرمضاني الذي انبثقت منه الشرارة التي أدت إلى الثورة الإسلامية الكبرى.

-١٠-

قال جدي أن الأمر بدأ طبيعيا تماما، ولم يتخيل أحد أبدا أن يحدث ما حدث، وبرغم مرور نصف قرن فما تزال الحقيقة عصية والروايات مختلفة والآراء متضاربة، كان إخوان الإسلام قد تقدموا بطلب إلى أعوان الطاغوت للسماح لهم بحفل إفطار رمضاني، ورفض الطاغوت ، لكن الإخوان ردوا بأنهم سيقيمون الاحتفال مهما كلفهم الأمر، فإذا رفضتهم كل الفنادق والقاعات فسوف يقيمونه في الشارع أو في الصحراء، وفي اليوم الموعود جهز فرعون سحرته من الكتاب الذين يلبسون الحق ثوب الباطل والباطل ثوب الحق كما جهز أمنه من شياطين البشر الذين لم يصفدوا بعد.

وبدأت أهم أحداث منذ سقوط بغداد الأول على يد التتار الأُوَل.

الأحداث التي بدأت بسيطة وهينة ثم تدافعت تداعياتها لتغير وجه العالم.

كيف حدث ذلك؟ ما هي التفاصيل؟ لدينا عشر ملايين رواية!.

كان جدي يتساءل في روايته للأحداث: هل تعمد الإخوان بلبلة الأمن؟ لا أحد يعلم، لكن المتيقن منه أن الشائعات قد ملأت البلاد، من أن حفل الإفطار سيكون في مكان غير متوقع، وراحت التكهنات تذهب كل مذهب، فمن تكهن يؤكد أن الحفل لن يكون في القاهرة لتجنب الحشد الكثيف للأمن، و أنه قد يكون في الإسكندرية أو أسيوط أو أسوان أو طنطا، هل كانت هذه الشائعات مدبرة؟ وهل

كانت تستهدف تشتيت الأمن؟ كانت الأقلام تكتب والإذاعات تذيع والفضائيات تنشر وتتلمظ، إحدى الشائعات أكدت أن الحفل سيقام في أحد المساجد الكبرى، على أمل أن تتحرج قيادات الأمن من الأمر باقتحام مسجد، رغم أن هذا حدث من قبل كثيرا، بل وقتلوا العاكفين في المساجد ومزقوا المصاحف وسجلوا أسماء من يصلون الصبح في جماعة لكي يسجلوهم في كشوف الإرهابيين. كان المرشد وإخوانه يردون على التساؤلات بابتسامات صامتة، لم ينفوا أو يؤكدوا أي شائعة. قيل أن الاحتفال سيتم في عمق الصحراء، وأن البعد عن العمران سيتم تعويضه بتكثيف حضور الفضائيات. ولم تكتف الشائعات بذلك، فقد كانت بعض الشائعات غريبة والأخرى مجنونة، كتلك الشائعة الغريبة التي أكدت أن الاحتفال سيتم في مئات القوارب في النيل أو في البحر، أو تلك الأخرى المجنونة التي توقعت أن يبتكر الإخوان ابتكارا غير مسبوق فيقيموا الحفل في مئات المناطيد الصغيرة السابحة في الفضاء.

قال جدي أنه واثق أن الإخوان و إن التزموا بالغموض إلا أنهم لم يشاركوا في ترويج الشائعات، أبدا، أبدا، أبدا، فالصدق عند الإخوان ليس مكرمة و إنما فريضة، والكذب ليس رذيلة و إنما شرك بالله. كتاب أمن الشيطان لم يدركوا ذلك، لم يفهموه، وكيف يفهموه وقد ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾. لذلك اتهموا الإخوان أنهم وراء الشائعات، قال جدي أنه يعتقد أن أهم سبب لانتشار الشائعة هو الشوق الدفين في قلوب الناس لحدوث موضوع الشائعة. شوق دفين طال أمده وعجزت الآليات الطبيعية عن تحقيقه، فلا أحلام اليقظة تكفي ولا النكات تشفي، ويتزايد الضغط فيقترب من نقطة الانفجار ، انفجار الشائعة، كبديل عن الأمل الذي طال انتظاره ولم يتحقق. الأمل، الذي يرى كل واحد أنه نهاية الهم وزوال الغم وانقشاع الظلام والظلم والإيذان بالعدل والنور والحرية، إنه

الغريق الذي أيقن بالهلاك فتأتي موجة فتدفعه للشاطئ فيصرخ فرحا وشكرا واستقبالا لحياة جديدة ويردد صرخته كل من كان في مثل حالته. الشائعة هي تلك الموجة، إلا أنها موجة كاذبة كالسراب.

قال جدي وهو يتعجب من آيات الله أن الناس، الأمة، لم يكونوا مصدر الشائعات، بل كانوا التربة المتعطشة إليها، والمضحك، الغريب، أن حالة السعار التي انتابت كتاب السلطة، جعلتهم هم الذين ينشرون بذور الشائعات، إذ يكتبونها في بلاغات لأجهزة الأمن رغم أنهم يسمونها مقالات، وينشرونها في صحفهم، لتتلقفها الأرض العطشى لها. تتلقفها وترعاها وتنميها حتى تسد الأفق.

وهكذا كان.

من المؤكد أن انتشار الشائعات بعثر الأمن، يقول جدي أن أمرا جاءه صبيحة ذلك اليوم بالتوجه للفيوم، وقبيل العصر جاءه أمر بالتوجه إلى الإسماعيلية، قبيل المغرب – وكان قد وصل إلى الجيزة- جاءه الأمر الأخير: ميدان التحرير.

نعم..

ميدان التحرير..

كان ذلك اسمه في ذلك الوقت لكن اسمه تغير بعد ذلك اليوم ليصبح الاسم الحالي: «ميدان الشهداء». لم يكن قد استمد اسمه القديم من تحرير الوطن، بل من لحظة انكسار للوطن، ألقت فيه بعض النساء –بينهن زوجة سعد زغلول، ابنة رئيس الوزراء المتعاون مع الاحتلال- بأوشحتهن وغطاء رؤوسهن ودسنها بالأقدام، كان تحررا من الهوية لا من العبودية، وكان سقوطا في التبعية، كان التحرر من الرباط الجامع الذي يربط الأمة حتى لو تفرق الحكام، لم يكن تحريرا بل تدميرا، نعم، كانت تسميته بالتحرير خسوفا للضمير. الحمد لله الآن يستمد اسمه من دماء الشهداء التي أريقت فيه.

لم تكن أسوأ احتمالات الأمن تخيل له أن الحفل سيتم في الميدان المعروف آنذاك بميدان التحرير، ومع ذلك فقد كان ثمة عشرة آلاف جندي يقبعون في الميدان تحوطا، كان عدد حضور حفلات إفطار الإخوان قبل ذلك لا يتجاوز الألفين، وكان عشرة آلاف يكفون لمواجهة هذا الاحتمال البعيد، لكن المفاجئ والمذهل لقوات الأمن، أن العدد تجاوز المائة ألف، كان ذلك قبل المغرب بنصف ساعة، لم يفطن رجال الأمن لما يحدث، قدروا أن ما يرونه هو الزحام الطبيعي لكل يوم، لم يدركوا الأمر إلا بعد انطلاق أذان المغرب، حين فوجئوا بمائة ألف يقيمون الصلاة ثم يفترشون الأرض ويبدؤون الإفطار. بعد المغرب بنصف ساعة كان العشرة آلاف جندي قد أصبحوا مائة ألف، لكن المائة ألف محتفل كانوا قد أصبحوا مليونا، صدرت الأوامر المسعورة باستدعاء المزيد من قوات الأمن، ونظرا للارتباك الهائل فقد تم سحب القوات المحيطة بالعاصمة كي تمنع توافد الناس من الأقاليم إليها، وبسحب هذه القوات خلا الطريق أمام الجماهير المتدافعة، في البداية كانت الغالبية من الإخوان ، لكن الفضائيات بدأت تذيع الخبر، مؤكدة أنه ليس شائعة، وإذا بالوطن ينفجر، وكأنه يوم الحشر، تنشق الأرض فيفور منها الناس كما تفور المياه من شلال أو من ينبوع متدفق، عند الفجر كان مليون جندي في وسط المدينة، لكن عدد من جاءوا لحفلة الإفطار وبعدها كان قد بلغ في أقل التقديرات خمسة ملايين. قيل أن هذا المشهد العظيم لم يتكرر منذ معركة العاشر من رمضان–السادس من أكتوبر– حين فوجئت دولة كان اسمها إسرائيل كانت تحتل إقليم فلسطين بأنها تواجه مائة ألف جندي مصري في خلال ساعات قليلة.

في حياتي كلها، منذ كنت طفلا، لم أشاهد جدي متحمسا ومنفعلا كما شاهدته وهو يحكي هذه الحكاية، مرات وراء مرات، و أعواما وراء أعوام، كان وجهه يصطبغ بلون الدم، وكانت عيناه تغرورقان بالدموع، وكانت ملامحه تختلج

وتتقلص، ويتسارع شهيقه وزفيره مُصَاحبا بصوت كالأنين، وكنت أحيانا من فرط حماسته، أنسي أننا نجلس في بيتنا، و أتخيل أننا معه في ميدان الشهداء، ما زلنا في حفل الإفطار الذي لم ينته. كنت أحس بمذاق الطعام و أسمع دوي الرصاص وأشم الدخان و أرى الدم.

كان جدي يحكي نفس الأحداث في كل مرة، لكنه كان يزيد في مرة وينقص في أخرى، ويركز على جانب في رمضان، لكنه في رمضان التالي يركز على جانب آخر، كما أنه كان يطعّم الأحداث بما لم يكن معروفا يوم ذلك الحفل، والذي كشف عنه بعد ذلك اليوم بأعوام طويلة، بسبب قانون حرية المعلومات، والذي بمقتضاه فتحت أضابير المخابرات الأجنبية، وعلاقاتها بحكامنا، كاشفة من التفاصيل المخزية ما لم يكن يتصوره عقل.

قال جدي أنه في شبابه الباكر كان يظن أن كمال أتاتورك أخون المسلمين و أن محمد دحلان أخون العرب، لكنه بعد أن انكشف الخبيء أدرك أنه ما من حاكم مسلم إلا وكان أتاتورك، وما من حاكم عربي إلا وكان دحلان.

لطالما تساءل جدي عن الحد بين الذي خططت له قيادات الإخوان بالفعل وبين التداعيات التي حدثت بعد ذلك ولم يكن تصرفهم إزاءها سوى رد فعل لتداعيات لم يحسبوا حسابها. وذات مرة قال وهو يلهث: فاجأتنا الأحداث، كنا كمن يدفع عربة معطوبة على منحدر، وفجأة انطلقت السيارة فحاولنا كبحها لكنها جرتنا خلفها. كان جدي جزءا من التخطيط فله إذن أن يتحدث بعين الشاهد المشاهد. وله أن يتساءل ولو بعد الحدث بنصف قرن: ما هو الأمر الذي دبر الإخوان له وأعدوا له العدة؟ من المستحيل أن يكونوا دبروا لوجود العشرة ملايين الذين سدوا قلب المدينة. بل إن رقم المليون كثير، يقول جدي وقد كان قريبا من الأحداث أن أملهم كان لا يتجاوز حشد مائة ألف، وكان المتشائمون لا يتوقعون أن يأتي أكثر من

عشرة آلاف، فالمخاطر جمة، والطاغوت سفاح دموي لا يرتوي أبدا من الدماء، كما أن الأمن جبار ووحشي وقاس ومجرم. قال جدي وما يزال الانفعال يأخذ بتلابيبه وما يزال يلهث كأن الحدث يحدث لتوه: لقد أعدوا حسب طاقتهم، أقصى طاقتهم، أعدوا ما استطاعوا فجاءهم نصر الله. سخر لهم حتى أعداءهم ليحتشدوا معهم. كما أن ما حدث بالقدرة الإلهية يفوق أعظم التخطيطات و أكثرها عبقرية. كان تدبير الله، وكان مكره خير الماكرين، لقد كان الأمن يتصور عددا محدودا من الحضور الصائمين، كان يتصور حضور ألفين سيحاصرهم ويشتتهم بعشرة آلاف، لكنه فوجئ أن المحاصرين ليسوا ألفين بل مائة ألف ، ثم استدعوا الجنود المحيطين بالعاصمة ليشاركوا في الحصار، وفي خلال ذلك كان مئات آلاف الصائمين قد توافدوا فحاصروا دون تخطيط الجنود الذين يحاصرون الصائمين، لكنهم عندما تركوا أماكنهم حول العاصمة تدافع الملايين فحاصروهم، وتم استدعاء تعزيزات من كافة محافظات الجمهورية فجاءت على عجل وحاصرت الجماهير، لكن ملايين أخرى تدفقت فأصبح الكل يحاصر الكل.

بكى جدي وهو يحكي كيف أحس بملابسه مبتلة، وتحسسها فوجد دما دافئا، لم يكن دمه، كان دم شاب بجواره، لا يعرفه، كان قد أصيب بطلقة رصاص. كان من المستحيل نقله إلى المستشفى، أو حتى إسعافه، وظل ينزف حتى أسلم الروح بين يديه، كانت الأوامر الهيستيرية المسعورة قد انهالت على الجنود: اقتلوا الناس جميعا، انسفوهم نسفا، مزقوهم، افرموهم. خرج الطاغوت (المفدى!) على شاشة التلفاز ينادي بسحق الإرهابيين وقتلهم أيا كان عددهم و أينما كانوا، ووجه إنذارا إلى الصائمين أنه سيفرق حفلهم الإرهابي بالدبابات والطائرات، وكان معنى هذا أنه سيستدعي الجيش. بثت الخطبة شاشات ضخمة لا يدري جدي كيف ولا متى نصبوها.

كانت الأوامر المشددة علينا – يقول جدي- ألا نحمل معنا كل ما يمكن أن يشتبه أنه سلاح، فلا عصيّ ولا حتى أمواس حلاقة أو مقصا لقص الأظافر. كانت الأوامر المشددة ألا نرد على إجرام السلطة بالعنف. وكانت الخطة التي بلّغوا بها أن ينصرفوا بعد صلاة التراويح، وبغض النظر عن النوايا، فإن الواقع الميداني قد جعل ذلك مستحيلا، كيف كان يمكنهم الانصراف والشرطة تحاصرهم والناس يحاصرون الشرطة التي تحاصر الناس، والشرطة تحاصر الناس الذين يحاصرون الشرطة التي تحاصر الناس، وهكذا إلى ما لا نهاية. هل كان ذلك ضمن المتوقع؟ هل كان جزءا من التخطيط، لا يجزم جدي بالأمر، لكنه يرجح أن الأحداث هي التي ساقت الجميع رغما عنهم. لكن على أي حال، كان هناك توجيه بالانصراف في هدوء إذا تيسر الانصراف، فإذا لم يتيسر، كان هناك أمر ببدء الاعتكاف. وكان عنف الشرطة الإرهابية متوقعا، وكانت الأوامر ألا نقاوم ولو بالحركات الرياضية التي كنا نمارسها في النوادي الرياضية، فذات مرة منذ سبعين عاما اتهمت السلطة الغادرة شبابا يمارسون الرياضة بأنهم يدبرون للانقلاب على نظام الحكم. يقول جدي أن أحد إخوانه صرخ: هل تمنعوننا من المقاومة إذا ما تطورت الأمور على غير ما نحب؟ أنتركهم يقتلوننا دون مقاومة؟ وكانت الإجابة الحاسمة الصارمة الباترة: نعم، دعوهم يقتلونكم، سوف تنتصر العين على المخرز، والصدر العاري على الخنجر، وعلى الدم المسفوك سوف تنبت شجرة الولاء والبراء. ولكن الحقيقة أنه لم يكن هناك توقعات لمذبحة، توقع المتفائلون أن يكون عدد الشهداء سبعة أو ثمانية، و ألا يزيد عن عشرة، المتشائمون تكلموا عن مائة أو مائتين، في اليوم الثالث قيل أن عدد الشهداء تجاوز عشرة آلاف، والغريب أن قتلى الشرطة كانوا ألفا، المؤكد دون شك، هو أن الإخوان لم يقتلوا شرطيا واحدا، كان الشيوعيون أذل و أهون و أجبن من أن يقتلوا هذا العدد أو حتى معشار معشاره، وكانت معظم الحركات السياسية الأخرى إما هزيلة لحد المهزلة و إما عميلة، كانت شاشات التلفاز الضخمة

المنصوبة تتحدث عن الإرهابيين الذين يقتلون رجال الشرطة، بل وبلغ الأمر، أن هذه الشاشات أذاعت، أن السلطة قد اكتشفت تفاصيل مؤامرة الإرهابيين آكلة لحوم البشر، و أن القانون سيأخذ مجراه، لمعاقبتهم على جرائمهم التي لم يسبقهم إليها في التاريخ مجرم، وأكدت الشاشات الضخمة، أن الإرهابيين يأسرون رجال الشرطة المسالمين ثم يلقون بهم في نهر النيل، ثم تطور الأمر بعد ذلك ليكون التعذيب والقتل البطيء هو المآل. ثم بلغ الأمر منتهاه عندما أذاعت الشاشات الضخمة أن الإخوان المعتكفين يقتلون رجال الشرطة ثم يطهونهم ويأكلونهم بعد أن شح عندهم الطعام، وقد قدمت الشاشات مئات الأدلة على ذلك، ولكن أكثرها إفحاما كان اعترافات مجموعة من الإخوان، أكدوا أن المرشد العام نفسه قد أمرهم بذبح رجال الشرطة والتهامهم، و أكد المتحدث أنه شخصيا أكل من لحم عقيد وملازم وجندي. وقدمت الشاشات الضخمة صورا تجمع بين هؤلاء وبين المرشد، وانفجرت الفضيحة عندما صرخ أحد المحتشدين: لا تصدقوهم: هذا الرجل أخي، وهو ليس من الإخوان، بل من الشرطة السرية، وانتشرت الحقيقة انتشار النور، خاصة عندما تجاوز بعض الإخوان التعليمات، فاستطاعوا بحركة بارعة أسر الرجال الثلاثة الذين زعموا أنهم من الإخوان، و أن المرشد هو الذي أمرهم بذلك، أسروهم، وكانت بعض الفضائيات قد صمدت، أو سُدّ عليها منافذ الهرب، فبثت صورهم واعترافاتهم على الفور، حيث أقروا أنهم من رجال الشرطة السرية، ولكن، على الرغم من هذا بقي الواقع دون تفسير، واقع أن ألف شرطي قد قتلوا، وكان الأمر واضحا عند الإخوان لكن قطاعات الشرطة لم تفهمه إلا في اليوم العاشر، يوم التحول العظيم، كان القتلة قوات خاصة من الشرطة نفسها!! كان الطاغوت قد أدرك خطورة ما يحدث، فدبر لإذكاء الفتنة وزرع الثأر بين الشرطة وبين الناس، فدفع ببعض رجاله لقتلهم. حاول بعض الإخوان إثبات ظنهم بأسر بعض هذه القوات الخاصة، لكنها كانت مدربة تدريبا عاليا جدا، لذلك انتهت كل محاولة

لأسر أي واحد منهم بالقتل، لكن الفرج جاء من حيث لم يحتسب أحد، وحدث التحول، كيف حدث؟ لا أحد يدري بالضبط. قيل أن شرطيا هشم رأس أحد المعتكفين بهراوته، كان قد غافله وهاجمه من الخلف وهو يتجرع آخر جرعة ماء قبل الإمساك، وسقط الرجل على ظهره فرأى الجندي وجهه، كان أباه. وقيل أن شرطيا أصاب معتكفا إصابة بالغة، فانبثق الدم كنافورة منه، وفي هذه اللحظة بدأ أذان المغرب فإذا بالمصاب يقدم إلى الجندي تمرة ليفطر عليها، وقيل أن جنديا قتل أخاه، لكن هل كانت هذه الأحداث الفردية على فرض صحتها هي سر بداية التحول، حين خلع الجنود بزاتهم العسكرية وانضموا إلى الناس، أم أن الغضب قد تفجر عندما اكتشف رجال الشرطة أن من يقتلونهم إخوانهم وزملاءهم، وانتشرت شائعات هنا وهناك عن كيفية اكتشاف الأمر وتباينت الرؤى، فقد انتشرت شائعة ، عن جندي مذبوح طفت جثته في نهر النيل، لكن الغريب فيها أنها كانت تتحرك عكس اتجاه التيار، وعند مقياس الروضة حدثت المعجزة، فقد ردت إلى الجثة الحياة، فنهضت وسارت على الماء حتى الشاطئ، واشتعل الناس حماسا وذعرا وذهولا أمام المعجزة وساروا خلف الجثة التي ردت إليها الحياة، واستمر الموكب يتزايد حتى وصلوا إلى معسكر من معسكرات الأمن، وحاول الجنود سد الطريق أمام الناس بالمتاريس، لكن الجثة الحية أزاحت المتاريس كما لو كانت تزيح قشة أو كتلة من الإسفنج لا من الحجارة، واقتحم الموكب المعسكر، وظلت الجثة الحية تتحرك حتى قبضت على ثلاثة جرتهم بمنتهى السهولة و ألقت بهم في وسط المعسكر، كان منهم قائد المعسكر و أحد ضباطه وجندي من جنوده، وتحدثت الجثة الحية فأمرتهم بالاعتراف بما حدث، فاعترفوا أنهم هم القتلة، و أن الأمر بدأ بالطاغوت ثم بالوزير ثم بالمدير الأعلى ثم بالمدير ثم بالجندي. عندما تم ذلك، بدأ الدم ينزف من عنق الجثة مرة أخرى، فسارعت بالعودة إلى النهر، لتمشى على الماء داخلة كما مشت خارجة، وفي المنتصف، سلبت الحياة، وسقطت الجثة لتعوم في وسط النهر، لكن

هذه المرة مع التيار. أكد جدي أنه لم يصدق تلك الشائعة، والتي لا تعبر إلا عن عجز الناس عن اقتناص ما يريدونه في الحياة فيقتنصونه بالوهم، فما الشائعة إلا وهم. ما يعتقده جدي، أن قبضة الشرطة كانت قد تهاوت بعد منتصف رمضان، وعندما وهنت قبضة الطاغوت الجبار بدت للشرطة سوءاتها، و أن ما يفعلونه إجرام يفوق إجرام أشد العصابات إجراما، لاحت بوادر عهد جديد فاستيقظت ضمائر ما هي بضمائر، عندما بدأ ربهم يتهاوى بدءوا يخافون عواقب جرائمهم، وربما يكون بعضهم- وهذا مستبعد- قد خشي عقاب الله الواحد القهار.

يعلم الله هل تم كشف الأمر بيقظة ضمير أم كبراءة من نظام أوشك على التلاشي وتزلفا لنظام يوشك أن يأتي. فقد تم كشف الأمر-بعيدا عن الشائعات- عندما تقدمت إحدى الفرق الخاصة التي كانت مكلفة بقتل رجال الشرطة، تقدمت لتعلن توبتها إلى الله وانضمامها إلى الناس معترفة بكل شيء.

ليس ثمة اتفاق حول تفاصيل الأحداث الدقيقة في تلك الأيام. انتشرت الشائعات، وتناثرت الأقاويل، ويعترف جدي أنه لم يصدق جل هذه الشائعات وتلك الأقاويل، فقد كان دائما يحترم العقل ويقدس المنطق، فكيف كان له أن يصدق تلك الشائعة التي أكدت أن البعض شاهد الإمام الحسين يخرج من ضريحه ممتطيا جواده شاهرا سيفه ليقود المعتكفين مرددا آية:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج].

قال جدي أنه لم يصدق تلك الشائعة لكن الناس والجنود صدقوها، وتدافع الآلاف بل والملايين ليكونوا تحت راية الحسين رضي الله عنه، وقد علم جدي فيما بعد، أن تلك الشائعة أقلقت قيادات الإخوان إلى حد كبير، كانت تخشى أن يكون شيطان من أتباع الطاغوت هو الذي أطلقها كي يغير مسار الثورة، وبعد اشتداد الكرب والموت والأشلاء والجوع ونقص الأموال والطعام انتشرت شائعة أخرى

أن السيدة زينب خرجت من ضريحها وجعلت من حيها ملاذا آمنا يأوي إليه من أراد من الشرطة والناس، وأنها أخذت تعالج المرضى وتداوي الجرحى وتدفن الموتى. لم يصدق جدي الشائعة رغم أنه أقر أنه ذهب إلى هناك ليضمد جرحا أصابه، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فثمة شائعات انتشرت عن رؤى صادقة رأى الناس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن جدي رفض بإصرار أن يخوض في الأمر منزها الرسول صلى الله عليه وسلم عن قول لا يمكن إثباته.

قال جدي أنه و إن كان قد رفض الشائعات إلا أنه لا ينكر ذلك الضوء الخفي الذي كان ينير ظلمة مدينة انقطع عنها التيار الكهربائي، ليس ضوء القمر والنجوم، و إنما ضوء التسليم لله والإيمان به، ضوء الرضا والتوكل والحمد، كما لا ينكر حالة الطمأنينة والسكينة المخيمة على المعتكفين وسط الرصاص والدم والأشلاء والموت.

لم يأت اليوم الخامس عشر من رمضان إلا وكانت الشرطة كلها قد ذابت!

خلع الجنود ثيابهم العسكرية وانضموا إلى الناس، وارتفعت المشاعر إلى عنان السماء، وفي دعاء القنوت، الذي كان ينطلق من بعض المساجد في صلاة الصبح، ومن بعضها الآخر في وتر العشاء، ارتفع عدد من يبكون خشوعا وتأثرا وخوفا من الواحد القهار، وقيل أن ارتفاع عدد المصلين ليس بسبب زيادة الإيمان فقط، بل إن كثيرا من رجال الشرطة، بعد أن انضموا للناس، وذابوا فيهم، وعاشروهم، أدركوا أي نوع من المجرمين كانوا، عندما كانوا يعذبون هؤلاء الناس ويقهرونهم ويزورون أصواتهم.

أسقط في يد الطاغوت، كان ما يزال لديه عددا كبيرا من جنود الأمن، نصف مليون على الأقل، لكنه لو وجههم لحصار الجماهير المعتكفة، التي انضم إليها مليون من الشرطة، لحدثت مذبحة لا يعلم مداها إلا الله. على أي حال فإن نصف المليون

الباقي لم يبق على حاله، فنصفه على الأقل قد ذاب!!، خلعوا ملابسهم العسكرية وانضموا إلى المعتكفين. الباقي من الشرطة كانوا من كبار السن القائمين بالأعمال المعاونة. ولم يكونوا يصلحون لأي مواجهة.

أذاعت الشاشات الضخمة أن الإرهابيين أقاموا محاكم خاصة أخذوا يحاكمون فيها ضحاياهم المختطفين من المسئولين، لكن بعض الفضائيات التي تمكنت بصورة أو بأخرى من التواجد، بالإضافة إلى بعض المواقع الإليكترونية التي راحت تغطي الحدث بطريقة غير معروفة، فأذاعت هذه وتلك، أن بعض ضباط القسم السياسي يحاولون التسلل وتحريض الجنود على بعضهم البعض وعلى الناس، بل إن بعضهم حاول تفخيخ بعض السيارات والأماكن، كي ينسبوا الفعل إلى الإخوان ، أمسك بهم الجنود وحاكموهم، واعترف الضباط، وكاد الجنود يقتلون بعضهم، لولا رجاء حاسم من الإخوان أن ينتهي الأمر دون إراقة قطرة دم واحدة.

كان عدد التائبين من الجنود كبيرا، وتاب بعض صغار الضباط، أما كبار الضباط فلم يتب منهم إلا أقل القليل، لكنهم رغم قلتهم حملوا معهم كما هائلا من المستندات والأسرار، وكان ضمن ما فضح، أنه لا توجد قضية واحدة للإخوان منذ عام ١٩٢٨ وحتى أيامها: ٢٠١٩، قد تمت كما صورها الأمن أو الإعلام، و أن معظم هذه القضايا كانت تنسج تفاصيلها في أروقة المخابرات الأجنبية، وبعضها في الموساد.

قال جدي أنه فكر كثيرا جدا دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة، فكر في اللحظة التي أدرك فيها الإخوان أنهم أمام ثورة شعبية كبرى، و أن عليهم ألا يكرروا خطأهم في ١٩٥٢ و ١٩٧٧ عندما كانوا هم وقود الثورة لكنهم تركوها ليستفيد بثمارها اللصوص والأشرار. وثمة بدايات كثيرة تصلح لتكون بداية هذا الوعي، منها على سبيل المثال، أن الموظفين في المطارات والموانئ لاحظوا حركة تهريب ونزح

هائلة لكبار المسئولين، كانوا يهربون محملين بما خف حمله وغلا ثمنه، وأن الموظفين بادروا من تلقاء أنفسهم بإلقاء القبض عليهم واحتجاز المسروقات، وإيداعهم سجن المطار، ودون اتفاق مسبق فعل موظفو البنوك نفس الشيء. لقد رفضوا تحويل الأموال أو صرفها.

انفرط عقد السلطة، وبدأت الاعترافات تتوالى، والفضائح تنتشر، فالأمين ليس إلا لصا، والمؤتمن ليس إلا خائنا، وكشفت الاعترافات الأولية عن حجم هائل من الجرائم في حق الأمة، حجم لم يمكن لأحد أن يتصوره، كانت الخيانة كاملة والعمالة كاملة والاتفاق مع أعداء الأمة ضد الأمة كاملا. وفي الوثائق السرية والمراسلات التي كشفت، كانت المؤامرة على الإسلام واضحة وكاملة، ليس على الإرهاب، بل على الإسلام، على القرآن، على الأحاديث، على الصحابة، على السنة، كانت المؤامرة كاملة، وافتضحت كل تفاصيلها. ولم تكن على الدين كدين فقط، بل بغض النظر عنه، كان استهدافهم له لأنه أهم رابط يحمي الأمة والدولة والناس. وكانوا هم يريدون تدمير الأمة والدولة والسيطرة على الناس. كان الإسلام هو الراية الوحيدة الكفيلة بحشد الأمة، ولذلك كان على العدو تمزيقها، ولم يشارك في تمزيقها إلا خائن مارق. فالملاحدة الإسرائيليون لم يكفوا عن الدفاع عن اليهودية لأنه يعلمون أنها الرباط الضام الذي يحمي الدولة من الانفراط.

قيل أن الطاغوت أمر الجيش بالتدخل، لكنه ووجه بموقف صارم من قياداته، قيل أن تلك القيادات رفضت التدخل رفضا باتا، وقيل أن بعض كبار القادة زاد على ذلك أنه لو تدخل الجيش فسوف يتدخل لعزل فخامته ومحاكمته، لأنه لم يتصرف كرئيس جمهورية بل كرئيس عصابة، وأن ما يمنع الجيش من التدخل هو قرارات سابقة صارمة بعدم التدخل في الحياة المدنية، بعد تجربتهم المرة منذ عام ١٩٥٢، حين ورطوهم ليكونوا ضد الأمة، وتوالت على الجيش الهزائم، لولا أن

جاء نصر العاشر من رمضان ليعيد الجيش إلى موقعه في ضمير الأمة، وأن قيادات الجيش، قد اتخذت بعد نصرها المجيد آنذاك قرارات نهائية بعدم مواجهة الأمة، لكنها لم تستطع الالتزام الكلي بهذه القرارات، بعد أن ورطها الطاغوت في محاكمات عسكرية لا ناقة لها فيها ولا جمل، إلا تنفيذ أغراض الطاغوت ورغباته، التي لم تكن سوى أغراض أجهزة المخابرات الأجنبية ورغباتها، حيث لم تكن تلك المحاكم نفسها تعلم، أن تلك المحاكمات كانت في كثير من الحالات تنفيذا لاتفاقات أبرمها الطاغوت مع مخابرات أجنبية، وكانت جزءا من مخطط الحرب على الإسلام.

قال جدي أنه لم يكن أحد يتوقع ما حدث في ليلة القدر، كان الناس ما يزالون معتكفين، وكان عددهم يزداد، حتى قال قائل أن الناس قد هجروا المدن والقرى والنجوع، و أن المائة مليون مصري يعتكفون جميعا في شوارع القاهرة، بل قيل أن عددا كبيرا من الأقباط انضم إلى الحشد الرهيب. وكان صوت الطاغوت يجلجل كل مساء على الشاشات الضخمة مهددا الناس بالويل والثبور وعظائم الأمور، ولكن الشائعات كانت قد بدأت في الانتشار عن انهيار النظام بعد انهيار القوة التي تحميه، وفي ليلة القدر، كان الناس يجأرون بالدعاء أن يكشف الكرب، وفي صبيحة ليلة القدر، أعلنت إسرائيل أن الطاغوت قد لجأ إليها، و أنها تضمن حريته وحياته. وذكرت وكالات الأنباء أن هذه الصفقة هي أكبر صفقة في حياتها، فقد كانت ثروة الطاغوت التي نهبها من شعبه، تتجاوز السبعين مليار دولار.

في نفس الليلة، نجح خمسة آلاف على الأقل في اللجوء إلى إسرائيل، منهم وزراء وقادة وضباط أمن و أعضاء نيابيين وقضاة ونواب عموم سابقين ورجال أعمال. لكن التحقيقات مع الجزء الذي لم يتمكن من الهرب في الوقت المناسب، كشفت عن أن كل ما نشرته صحافة المعارضة، وكل ما روجته الشائعات، رغم فظاعته، كان لا يكاد يذكر أمام الحجم الحقيقي للفساد واللصوصية والخيانة التي تم الكشف عنها.

-١١-

يقول جدي أن الإسلام الذي غاب عن مصر منذ غزوة نابليون قد عاد يومئذ، وأصبح الإسلام هو المرجعية لحكومة مدنية، و أن مصر، الدولة المحورية، قد عملت كالنواة، فراحت تجمع حولها الأطراف، وفي خلال ثلاثة أعوام بعد سقوط الطاغوت سقط كل طواغيت العرب، تماما كما يحدث في لعبة الدومينو الشهيرة، وفي خلال سبعة أعوام سقط كل طواغيت الدول الإسلامية، وبعد عشرة أعوام، أي في غرة رمضان ١٤٥٠ هجرية، الموافق ١٦ يناير ٢٠٢٩، تم إعلان الولايات الإسلامية المتحدة، لتشكل ربع العالم وقلبه.

-١٢-

قال جدي، أنه عندما صفت النوايا، وتوقفت السياسة عن أن تكون عنصر فساد و إفساد، أمكن حصار وحصر الخلافات بين السنة والشيعة، فأصبحت لا تزيد عن الخلاف بين مذهبين من مذاهب أهل السنة، وكانت إيران إقليما هاما في الاتحاد الإسلامي، وكان سلاحها النووي المتطور درعا لحماية الدولة الإسلامية التي عادت أقوى قوة في العالم، رغم الفتوى الصارمة بتحريم استعمال السلاح النووي إلا في إطار العقاب بالمثل وردا على هجوم نووي.

-١٣-

كنا في غاية الدهشة حين أخذ جدي يحدثنا عن شكل العالم منذ سبعين عاما، واستبد بنا الذهول عندما عرفنا أن الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت كانت أقوى من دول المسلمين مجتمعة، وأنها كانت تذلهم وتهينهم وتسومهم سوء العذاب.

-١٤-

حكى لنا جدي وهو يضحك عن الخلاف الذي نشب بين دولة زالت كان

اسمها إسرائيل وبين الولايات المتحدة الأمريكية، فقد بلغ حجم الأموال المهربة التي سرقها اللصوص الذين لجئوا إلى إسرائيل أكثر من ألف مليار دولار، وكان ذلك مبلغا هائلا في ذلك الزمن قبل انهيار الدولار وصعود الدينار، وطلبت إسرائيل من اللاجئين إليها تحويل تلك الأموال لاستثمارها فيها، وكان معظم الأموال مودعا في بنوك أمريكية، ورفضت أمريكا التحويل، و أصرت إسرائيل عليه، وجعلت التحويل شرطا للجوء وإعطاء جواز السفر. فحيل بينهم وما سرقوا. وقيل أن هذا كان بالاتفاق بين الدولتين، و أنهما اقتسمتا الأموال، وقضى ثلث اللصوص من القهر، وهلك ثلثهم من الجوع والفقر، وبقي الثلث الثالث يتسول.

-١٥-

قال لي جدي أن من أعجب ما رآه في عمره، أنه مر يوما على قصر الطاغوت في الجزء الجنوبي من الضاحية الشمالية، وكان المرور يتوقف في العاصمة كلها عندما يأتي الطاغوت إلى القصر، كان رئيس الحرس لواء، وقد انتظر الطاغوت نهارا ونصف ليل، فأهلكه الإرهاق والتعب، ففرش أوراق صحف ونام على الأرض يتقلب في مدخل البوابة التي سيدخل منها الطاغوت، ثم مر الزمن، وخربت بيوت الطاغية، ومررت يوما على ذات المكان: فرأيت فلاحا وقد ربط حماره في نفس المكان، وكان مستلقيا في ذات المكان الذي رأيت فيه اللواء، وكان يتمرغ في التراب.

-١٦-

رتل جدي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل].

-١٧-

قال لنا جدي أنه رأى كثيرا من عجائب قدرة الله سبحانه وتعالى، ومن آيات ذلك أن رجلا صالحا في الزمن القديم اسمه خيرت الشاطر، كان كلما كون ثروة حلالا من كده وعمله استولى عليها الطاغوت ونهبها، حتى لقي ربه ولم يترك لأولاده إلا التقوى بينما الطاغوت يملك عشرات المليارات وربما أكثر، لكن جدي عاش حتى رأى أحفاد الطاغوت يتقاتلون حتى يحصلوا على الصدقات التي يخرجها أحفاد خيرت.

-١٨-

رتل جدي:

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

-١٩-

قال لنا جدي أن ضابطا مجرما من القلم السياسي، وكان من الذين يعذبون الناس، وكان قد عذبه بوحشية قبل حفل الإفطار الرمضاني الشهير، صرخ جدي في وجهه:

نعم.. أنا من الإخوان.

فصرخ في وجهه و هو معلق على الجدار والسياط تنهال عليه والكلاب تنهش لحمه:

ليس هناك شيء اسمه الإخوان يا حشرة.. سنبيدهم عن بكرة أبيهم.

ورد عليه جدي:

بل تبيد و آلهتك الذي تعبد من دون الله ويبقون.

وواصل جدي:

بعد حفل الإفطار الشهير أنقذته من بعض ضحاياه الذين كانوا يعذبونه وكادوا يفتكون به. وفي السجن، كنت الوحيد الذي يزوره بعد أن تبرأ منه أهله، وعندما مات صليت عليه ودفنته في مقابر الصدقة، بعد أن استأجرت من يحمل نعشه.

-٢٠-

سألنا جدي

لكن ماذا عن تلك الدولة العجيبة التي دوخت المسلمين، تلك الدولة التي كان اسمها إسرائيل؟

و أجابنا جدي:

سقطت دون إطلاق رصاصة واحدة، سقطت قبل أن تكمل مائة عام، فبعد إنشاء اتحاد الدول الإسلامية، وبعد انهيار أمريكا وتراجع دور أوروبا، أدرك القاطنون فيها أنهم لا مكان لهم بيننا، غادروا وكأنهم كانوا يسكنون شقة مفروشة، وسمحنا لهم بالمغادرة، لكننا اشترطنا محاكمة كبار مجرميها.

-٢١-

سألنا جدي:

ولكن كيف انهارت أمريكا؟

فأجابنا:

أنهكتها أفغانستان وضعضعتها العراق وفضحتها إيران ثم تكفلت تركيا والباكستان بالباقي فانهار اقتصادها وتفرقت شيعها وانطوت وانقسمت، وكان هذا من نعمة الله علينا، لأنها لو كانت قد احتفظت بقوتها ما كانت تترك مصر لأهلها. ولكانت قد بادرت بإجهاض الثورة، وقد تعالت بالفعل أيامها أصوات تناشدها بالتدخل لحماية الطاغوت كما فعلت دائما، ولكن حكامها رفضوا بحزم، كان عشرة

آلاف في أفغانستان قد أذلوهم، وثلاثون ألف في العراق قد مرغوا كرامتهم في الوحل، فكيف يفعلون مع مائة مليون مصري؟!

-٢٢-

قال لنا جدي أنه فتن في شبابه بسياسي كان في الحزب الناصري حل الحزب وقضى عليه ثم انضم إلى جماعة المسلمين، وكان مما قاله: نصف أعضاء هذا الحزب يعلم أن الرجل كان عدوا للإسلام ولا يحبون فيه إلا ذلك لكنهم يتسترون عليه مداهنة للعامة وتجنبا لغضبهم، أما النصف الآخر فيجهل أنه كان عدوا للإسلام.

-٢٣-

وثائق المخابرات الأجنبية فضحت العملاء والخونة لكن بعد أن انتهى الأمر، فما من شيوعي أو علماني إلا وكان مرتبطا بجهة تحارب الإسلام، وكان عميلا مأجورا ويقبض الثمن.

ولقد تدخلت الدولة فصادرت ثمن خياناتهم.

-٢٤-

أصدرت الحكومة الإسلامية عفوا طال كل المتهمين إلا المجرمين الذين عذبوا الناس أو زوروا الانتخابات فقد نكل بهم وفضحوا وصودرت أموالهم الحرام.

-٢٥-

اجتهدت الحكومة كثيرا كي تمنع انتقام الناس ممن عذبوهم، وبرغم الجهد الجهيد قتل الآلاف من الجلادين وماتوا ميتات بشعة، حتى بعد صدور الفتوى أن من يقيم الحد في ظل حكومة إسلامية مفتئت على السلطة.

-٢٦-

حكى لنا جدي كيف مرض الطاغوت في إسرائيل، واحتاج إلى إجراء جراحة خطيرة، وفضل أن تجرى له في الولايات المتحدة، فقد كان يخاف أن يقتله

الإسرائيليون أثناء الجراحة كي يرثوا أمواله، لكن الولايات المتحدة التي لم تكن قد تفرقت بعد رفضت منحه تأشيرة دخول لأنها كانت تخشى أن يستغل وجوده فيها لفضح الملابسات التي صاحبت تجميد ثروته المهربة هناك، و أجريت الجراحة في إسرائيل، فمات أثناء إجرائها.

-٢٧-

في أيام جدي الأخيرة لم يكن يكف عن تلاوة القرآن وقراءة الأحاديث، رحمه الله رحمة واسعة.

-٢٨-

قال جدي قبيل موته:

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم يكون ملكا عضوضا ، أو عاضا(وراثيا) ، ثم يرفعه الله إذا شاء أن يرفعه، ثم يكون ملكا جبريا ، ثم يرفعه الله إذا شاء أن يرفعه ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. » رواه أحمد.

-٢٩-

كان جدي دائما يرتل:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

-٣٠-

وكان يرتل أيضا:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص].

أسوأ من المقالات : القصص !!

كان ذلك في عام ١٩٩٤، كان ما يزال بالسلطة شق عاقل، أو أقل حماقة، وكان هذا الجزء يعرف لصحيفة الشعب قدرها، ويدرك أنها فريدة، رائدة وعظيمة.. وكان الجزء الآخر يتلمظ للقضاء على الشعب(الصحيفة والأمة)

وكنت أيامها أكتب سلسلة من المقالات بعنوان: « لا ترشح نفسك مرة أخرى».

واتصل أحد كبار المسئولين من الشق الأقل حماقة وخيانة يحذر من أن مقالاتى تقوى الشق الأحمق الخائن، واقترح المسئول لتهدئة الوضع ، ما دامت كتاباتي لن تتوقف رغم الإلحاح والضغط، أن تترك هذه الكتابات السياسة حينا إلى الأدب.

وبدأت أكتب سلسلة من القصص..

كنت، قبل أن يكتمل الحصار، وتطفح الهموم، ويفيض طوفان الدم آمل أن أؤسس مع غيرى منهجا عربيا كاملا لكتابة القصة لا يخضع للمقاييس الغربية.. لكن.. لم تمهلنا الخطوب..

وعاد المسئول بعد شهر صارخا: أرجوكم دعوه يعود إلى كتابة المقالات لأن قصصه أسوأ بكثير من مقالاته.. إنه يستغل رخصة الأدب فيها كي يقول ما لا يمكن له أن يقوله في مقالة..

وكانت هذه القصص..

القصة الأولي

أطول قصة في التاريخ

بداية القصة:

آااه..

نهاية القصة

.

.

.

تمت!!..

حفل إفطار رمضاني

قصص قصيرة جداً

جمال حمدان

قلت لجمال حمدان حين رأيته يحاول دون جدوى رسم خريطة لبلادنا فكلما رسم بلدا أو مدينة انفرطت حدودها وتساقطت مدنها أشلاء وتفجرت أنهار الدم بين ربوعها :

- فري كبدي أن تموت حريقا . .

قال في دهشة :

- لم أمت بالحرق، بل بالنزيف . .

نظرت إليه غير مصدق، فقال مؤكدا :

- نزفت نصف دمي في هزيمة ٦٧، ثم نزفته كله في حرب الخليج.

يأس

قابلت اليأس منتفخ الأوداج منتشيا بالانتصار الحاسم، فهرعت وامتطيت جوادي شاهرا سيفي، وصرخت في عناد

- ومع ذلك لن أستسلم . . . حتى آخر قطرة دم سأقاوم . . . ثم أنني سأموت شهيدا . . .

فاعتلى على الفور دبابته الضخمة ووجه نحوي مدفعها الصاروخي وقذائف اللهب و رد على ساخرا وهو يشير في زهو إلى نفسه :

- لكن اليأس هو الذي سيقتلك ..!!

بَغْي

قابلت عمار بن ياسر و سليمان الحلبي وسعد إدريس حلاوة وخالد الإسلامبولي يثجون دما والرايات في أيديهم لما تسقط فهتفت نائحا :

- تقتلكم الفئة الباغية . . .

ففوجئت بأبي جهل يهتف خلفي شامتا :

- إنما يقتلهم من يخرجهم . . .

صرخت فيه

- فمن قتل الحمزة ؟!..

***

لَيْل

رأيت الليل يحشد جيشا عرمرما ويقف عند التخوم يسد الآفاق كي يمنع النهار.

فآليت على نفسي أن أتسلل كي أحارب مع النهار حين يجيء..

ورحت أبحث لنفسي عن طريق.... لكن الظلام كان كثيفا فضللت السبيلا...

كما أنني انتظرت طويلا . . . .

لكن النهار لم يجئ !!.

***

فضيحة

سمعت الفضيحة تترنم ببيت شعر عن الشرف . . .

ورأيت العار يتّشح بالنياشين والأوسمة . . .

صكت مسامعي أهازيج الانتصار ينشدونها للهزائم . . .

جاء أبو جهل يدعو للعلم . . .

و أبو لهب كي ينشر الأمن والأمان . . . .

والسادات يدعو للسلام . . .

ويهوذا يبشر بدين جديد . . . .

ومبارك وعبدالله يدعوان أمريكا لتدمير بلد شقيق..

هرعت إلي داري . . . .

أغلقت بابي . . .

وقد تساقط لحمي . . .

***

إبليس

ذهبت مع وفود المهنئين إلي إبليس – بعد فوزه في الانتخابات – وشددت بحرارة على حافره قائلا :

– هنيئا فوزك المبين بالتزوير . .

نظر نحوي بإشفاق وقال باسما :

– يا مسكين . . . لكنني بالتزوير أسقط !! . .

***

ظـــــلم

رأيت الظلم يتفجر بالحيوية والعنفوان والقوة والشباب . . .

ورأيت العدل شيخا مثخنا بالجراح نازفا . . .

رحت أتساءل في عجب :

– كيف استطاع أن يصمد ثلاثة ملايين عام ؟ .

***

إرهاب

شاهدت على شاشات التليفزيون في المحطات الفضائية خروج الحسين على شرعية نظام الحكم و إنكاره لفوز الخليفة يزيد بالإجماع في انتخابات سموها نزيهة،

ورأيتهم يرسلون إليه قوات الحرس الوطني والجمهوري مدججة بالسلاح الأمريكي والإسرائيلي لكنها كانت تحمل راية مكتوبا عليها :﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ...

رأيتهم بحكم القرآن - مفسرا ببنود النظام العالمي الجديد - يذبحونه . . وما زالوا !!.

***

النظام الجديد

لما انسدت أبواب الرزق الحلال ذهبت إلى بور سعيد أبحث في التهريب عن رزق حرام . .

اقتربت من الميناء فوجدت دي ليسيبس يعتلي قاعدة تمثاله بشحمه وبلحمه . .

سألته في دهشة :

- حسبتك قد متّ . . وشبعت موتا . .

أجاب في بساطة :

- النظام العالمي الجديد . . ردني إلى الحياة . . !!

تساءلت في رعب :

- و الإنجليز . . والخديوي . . والسخرة . . هل يعودون أيضا؟.

أجاب في ضيق لغبائي :

- قد عادوا قبلي . . يا أحمق . . !!.

***

توبة

كبر سني ووهن عظمي وهدتني الاعتقالات وليالي السجن، وتعبت، فتحينت الفرص حتى انفردت بإبليس، وتبت بين يديه . .

ولم أسجن مرة أخرى . . .

وراجت تجارتي وارتفع شأني . .

***

ثعبان

لما نبت من كتفي ثعبانان ينفثان السم في عروقي وينهشان لحمي فزعت . . .

هرعت إلي الطبيب أشكو مصيبتي . . .

راح يحقنني بالترياق اكتفي بوقف تأثير السم وطفق يستر جدائل لحمي بالأربطة...

صرخت فيه :

- بل أتيتك لتستأصلهما . .

نظر إلي بريبة من لا يصدق أنني لم أفهم بعد وقال :

- كيف أستطيع ؟ وهذا الثعبان ممثل السلطة وذلك من الشرطة.

***

حُنَيْن

فتحت بابي فوجدت حنين يقف أمامه يحمل خفيه تحت إبطيه ولا يكاد يحفظ من فرط الضحك اتزانه، حاولت أن أفهم منه، أن ألملم من بين شدقيه المفتوحين حروفه، و أخيرا استطعت أن أفسر طلاسم كلماته :

- عشرون قرنا تسخرون مني . . . وها أنتم أولاء . . . من معسكر دافيد إلي مدريد إلي أوسلو إلى وادى عربة إلى النجم الساطع . . . وما من أحد منكم عاد بخفه . . . ولا حتى بسرواله . . .

***

أسواق

كنت أتجول في أسواق المدينة أبحث في متاجرها عن جرعة عزاء بعد أن شح وندر . .

فجأة قابلني عبد الله بن سلول والخديوي توفيق وخنفس بيك ومحمد بيك أبو الدهب..

ألفيتهم يشيرون إلى وينفجرون في الضحك . .

سألتهم غاضبا :

- أمني تضحكون ؟

تبادلوا النظرات والضحك ثم تساءلوا ساخرين . . شامتين :

- بعد كل ما جري : هل نحن كنا الخونة ؟. . .

ولم أحر جوابا . . . !!

***

عوينات

كلّ بصري حتى أصبحت أرى السماء زرقاء والسحائب بيضاء والمظالم سوداء والنور بلا لون . . ذهبت إلى الطبيب، فوجم لحالي، و أخبرني أن أخطر ما أواجهه ليس العمي، و إنما السجن طبقا للقوانين الجديدة، ذلك إن لم يبادروا باغتيالي، وسألته :

- ألا يوجد حل ؟ . .

أجاب بيأس :

- أمامك سبيل واحد . . أن تلبس عوينات أمريكية . . والأفضل إسرائيية . .

***

حُلْم

رأيت - في الأحلام - عيني تسقطان في حجري، فصرخ الناسك في لوعة :

- تسقط العراق وليبيا . .

ثم رأيت قلبي يسقط على الأرض، فصرخ الناسك الذي هرعت إليه كي يفسر حلمي :

- مصر . . !!

ثم رأيت أطرافي تنفك وتتحلل، فصرخ الناسك :

- إيران والسودان . . !!

ثم رأيت رأسي يتبخر في الهواء حتي يتلاشى، فأخذ الناسك يلطم خديه ويصرخ :

- ضاعت الأمة . . !

***

جحا

لما رأيت جحا في السوق تهللت أساريري وانشرح قلبي، وأملت في ساعة لهو تنسيني همي، لكنني - لدهشتي - وجدت الهم يركبه فرحت أحاول أن أسري عنه، سألته عن حكاية ابنه والحمار والناس، فانتفض غاضبا وامتطاني، وراح يلهبني بسوطه ..

صرخت محتجا، فقال غاضبا :

- امتطاك الكل . . حتي أريتريا . . يا بغل . . !!

***

سلطان

دخلت دار السلطان ساجدا، بعد أن خلعت نعلي، ورجولتي، وكرامتي، وكبريائي، وديني وحتى عقلي، فاصطفاني وزيرا.

***

مجاعة

عمت المجاعة بلادنا وساد القحط، فأكلنا الكلاب والقطط، ثم رحنا نأكل بعضنا، وجاء البشير بوصول سفن النجدة والمساعدات من بلاد الفرنجة فهرعنا إلى الميناء، نلتقط أنفاسنا الأخيرة . . هاجمنا السفن والتهمنا ما فيها حتى قبل أن ندرك كنهه . . ولم نكتشف إلا بعد فوات الأوان ، أن ما التهمناه لم يكن سوى الذل والمهانة . .

***

يهوذا

رأيت يهوذا يسلمني إلى مباحث أمن الوطن، فتسلمني بدورها إلى حاكم القدس الروماني، فيأمر بصلبي، فينصبون صليبا هائلا يمتد من الخليج إلى المحيط، و يدقون أطرافي بمسامير ضخمة على هيئة صواريخ كروزو، فمصلوبا لم أزل، وقلت لنفسي أن القتل أهون والموت أهون، وغلبني اليأس فهمست بلوعة :

- إلهي.. لم هجرتني..؟.. لماذا قليتني؟!..

لكنني ما لبثت أن استغفرت قائلا والنيران تستعر في حشاي :

إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي..

***

بحر

نبهني إلى أن الاختيار نهائي، لا مجال لتراجع، ثم عرض علي إما أن يعطيني سمكة واحدة في يدي و إما أن يعطيني البحر كله، ورغم أنني كنت أصدقه، فقد أغرتني طزاجة السمكة وقرصة الجوع فاخترت سمكة في يدي، وهرولت إلى بيتي يسيل لعابي، لكن السمكة كانت قد تنتنت، وسرعان ما تحللت، ورحت أندب حظي .

***

صاحب

صاحبي، أخي، أبي، ولي أمري وعاهلي، رأي ذبابة على وجهي؛فالتقط سلاحه الآلي وأطلق الرصاص على الذبابة ....

ما كنت ... أود ...أن ... أفهمه ... قبل ... أن ... أموت...: هل.. كان ... دبا ... غبيا ... أم ... ق..ص..د... ق.. ت..ل..ي..

فتاوي

قرأت في كتاب الفتاوي الجديد الذي أصدره النظام العالمي أن دم المسلمين حلال، وعرضهم مباح، واتحادهم حرام، ورأيت الوالي يدافع عن الشرع الجديد بكل همة، ففهمت ما كان قد غم علي .

***

غابة

رأيتني في غابة أرنبا لا حول له ولا قوة، ورأيت الحمار الوحشي يصارع الأسد فيصرعه، ويصبح الملك، وحاولت الفرار، وما زلت . .

***

غرق

رأيت سفينة السلطان تغرق فهرعت أحاول إنقاذها، فأمر السلطان بإطلاق الرصاص عليّ، ووزع النياشين والأوسمة على من راحوا يخرقون السفينة .

***

سلطة

تاقت نفسي للنفاق فذهبت إلي قصر السلطان فوجدت في مدخله جفنة مملوءة دما علمت أنه من دم الحسين، فما من أحد يقترب من السلطان إلا إذا ارتشف منه رشفة، فجزعت نفسي، ورجعت . . .

***

حِداد

قابلت الملك مينا، وإخناتون، ورمسيس الثاني، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، وعلي بك الكبير، ومحمد علي، وإسماعيل، وسعد زغلول وجمال عبد الناصر. وحتى كافور الإخشيدي وأنور السادات، فرأيتهم جميعا يلبسون شارات الحداد، فتساءلت وقلبي يكاد يتوقف عن الخفقان عن السبب. فتبادلوا نظرات الحزن الجليل وهم يومئون نحوي مشفقين، ففهمت، ورحت ألطم وجهي.

***

أسْـــــر

نجحت بما يشبه المعجزة في الإفلات من أسري لكنني سقطت في نفس اللحظة في أسر آخر . .

ورحت أكرر الحكاية . . .

كل يوم . . .

كل يوم . . .

كل يوم . . .

***

دكتوراه

عدت من الخارج أحمل شهادة الدكتوراه في الوعظ والإرشاد..

راحت أمي الأمية، و أبي الحاصل على شهادة محو الأمية، يرسمان لي الطريق، ويختاران كل صديق، ويشكان في كل رفيق..

ورحت كل يوم أرثي لأمرهما، و أعجب لجهلهما . . .

و أتأمل الزمن الدوار الذي جعل الكبار صغارا والصغار كبارا..

وحوّل الحكمة إلي حماقة والحماقة إلى حكمة . . .

افتتحوا في حينا دارا للبغاء فصممت على الذهاب للوعظ والإرشاد . . .

اشتد اعتراضهما وخبآ - بالخجل - خوفهما . . صرخا احتجاجا:

- كيف تقوم بمثل هذا العمل فتاة، و إن حملت الدكتوراه؟!

نزفت كرامتي دما . . . وصرخ كبريائي احتجاجا . . .

وامتلأت من جهلهما اشمئزازا . . .

مثل هذا الفكر هو سبب تخلف البلد، وانحطاط الأمة، وسلبية الناس . . .

تركتها .. وذهبت ألقي المواعظ . . .

..

بعد عام . .

كنت . .

أرخص بغي في المدينة . . .

***

إعدام

دهمنا جميعا - نحن أفراد القبيلة - كابوس، فصحونا من الروع في روع، وأرسلنا رئيس القبيلة إلي العراف نحكي له حلمنا، فأربد وجهه وأنذرنا بالشر والخطر والسنوات العجاف .

استعدنا قصة جد أبناء عمومتنا فشيدنا المخازن الهائلة نختزن فيها من يسرنا لعسرنا لكننا - بنصيحة العراف - لم نضع الحنطة والشعير بل خبأنا فيها روح القبيلة.. قسمنا المخازن إلى أقسام عديدة فمنها قسم للكرامة، وآخر للعزة، وآخر للنخوة، وآخر للشهامة، وآخر للحرية، وآخر للصدق، وآخر للشرف، وآخر للعدل، وآخر . . . وآخر . . . وآخر . . . . وعلمت القبائل المجاورة بأمر حلمنا فاستودعونا مثل ما أودعنا . .

رحنا نحرس المخازن بكل همة ...

لكننا والدهشة تغمرنا رحنا نكتشف كل صباح تناقص المخزون...

ورحنا نبحث بكل فزع عن اللص الأثيم . . .

استنجدنا برئيس القبيلة، وعقدت المحاكم ونصبت المشانق حتى دون أدلة قاطعة . أوشكت المخازن على النفاد . . . فتعاهدت مع رهط من شيوخ القبيلة ألا

يطبق لنا جفن، وألا تغمض لنا عين حتي نكتشف السارق الأثيم .

- في اللحظة التي اكتشفنا فيها السارق الأثيم، وهو يسرق من المخازن آخر ذبالة روح، عقدوا لنا محكمة عاجلة حكمت علينا بالإعدام دون أن يسمعوا دفاعنا . . .

فقد كان السارق . . .

هو . . .

الرئيس[1] . . .

***

حمار

انخلعت أوتاد خيام القبيلة حين سمعنا أن هناك أقواما ما فتئت تعبد البقرة..

اشتعلت قلوبنا حمية وغضبا وغيرة.. فاخترنا وفدا من وجوه القبيلة صنعناه على عيوننا فلبي، يشدّ الرحال إليهم عسى الله أن يهديهم على أيدي أبناء قبيلتنا راجين عند الله الثواب.

غاب الوفد.. غاب ..

انصرمت الأيام..

هتكتنا الليالي..

دهستنا السنون..

جرت علينا المقادير..

أصابتنا المحن والإحن..

ولدت الأمَة سيّدَها..

تغلّب الرعاع وساد السفلة وتسنم الصعاليك الذري..

(١) نشرت هذه المجموعة في صحيفة الشعب عام ١٩٩٥.

شاب الصبي، وقضي الرجال..

أنستنا الهموم وفدنا القديم..

فجأة ..

عاد شيوخ أوغلوا في العمر جللهم المشيب، فزعموا أنهم هم وفدنا القديم فما كدنا نتعرف عليهم..

هالهم سوء حالنا ومآلنا..

راحوا يدرسون ويخططون ويفتحون الكتب التي أتوا بها معهم مما مروا به من بلاد..

ثم جمعوا جمعنا ليقولوا لنا عن الحل الأخير الذي ينقذنا مما صرنا إليه..

إذ لا حلّ لنا –في رأيهم– إلا ......

أن نعبد الحمار ....!!!!



حفل إفطار رمضاني

القصص ... بعد مائة عام !!



رأس السنة العبرية

احتفلنا اليوم بعيد عظيم، هو عيد رأس السنة، حيث يباح لنا فيه ما لا يباح في غيره من الأيام، وتضاعف حصتنا من الحشيش والأفيون.

ابني الأحمق قال:

يا أبي ..لا يجوز لنا الاحتفال به ..إنما يجب أن نحتفل بالسنة الهجرية.

ورددت عليه في غضب:

يا أحمق، هل تريد أن تهدم إنجازات مائة عام من الحضارة والحداثة والتنوير، هل تريد مقاومة العولمة؟ ..ثم أن العالم أصبح قرية كبري يحكمها بنو إسرائيل، وقد ألغوا كل التقاويم ما عدا التقويم العبري الذي نحتفل به اليوم.

ثم همست له ناصحا:

-يا أحمق ..الاحتفال برأس السنة الهجرية أو الميلادية محظور بحكم القانون .. والاتهام في حالة الاحتفال بهما من الاتهامات المشددة التي يتضمنها قانون مكافحة الإرهاب.

***

رهينة

قمت من نومي فزعا على كابوس و أضغاث أحلام كدرت عليّ اليوم كله ..إذ رأيتني متخلفا ينتمي للقرون الخالية أعيش حياة التطرف والشعارات البالية وأوهام المجد . .وفجأة رأيتني مارا على السجن فصُمّ سمعي من الصياح والنواح والعويل والبكاء، فوقفت أسأل :

-من المعتقل ؟

أجابوا في ذهول :

-أخذوا مصر رهينة حتى يسلم العرب أنفسهم .!!

فصحوت من النوم فزعا ومستعيذا بالنظام العالمي الجديد.

***

نفق

شرع رئيسا إمارة خيبر و إمارة بنى قريظة في حفر نفق تحت قبر الرسول ﷺ فهرعت إلى السلطان أستنصره و أصرخ :

-سوف يهدمونه كما هدموا المسجد الأقصى منذ مائة عام . .

نظر إلى في عناد وغباء وثقة وعنجهية وغرور قائلا :

لكنهم يحفرون تحت الأرض ولا يهدمون فوقها يا أحمق ..ألا تعلم أن سطح الأرض لنا وباطنها لهم؟..

فرحت أولول :

هكذا هدموا المسجد الأقصى منذ مائة عام..

فقلت له:

يا أحمق يا متهور يا متطرف . . .للحرم رب يحميه .!!

***

تفوق

عادت ابنتي من المدرسة تكاد تطير، ويكاد الدم يتفجر من وجنتيها، وعلا صوتها حتى قبل أن تدخل صائحة :

-الأولى . . .الأولى . . .

التففنا حولها نهنئ صائحين :

– مبارك . .مبارك . .

راحت تحكى لنا عن التفاصيل، حين جاء المفتش وراح يسأل التلاميذ عن أعظم حكام العرب في ألفى عام ، وأجاب التلاميذ الخائبون إجابات خاطئة، فقد قال واحد محمد بن عبد الله ﷺفقال له المفتش بخشونة أنه يسأل عن الحكام لا عن الأنبياء، فقال آخر عمر بن الخطاب فطرده المفتش من الفصل، وقال الثالث عمر بن عبد العزيز فطرده، وقال الرابع صلاح الدين الأيوبي فطرده، وقال الخامس سيف الدين قطز فطرده، وقال السادس محمد الفاتح فطرده، وقال السابع أنور السادات فصمت المفتش وراح يقلب نظره فينا.

وواصلت ابنتي الحكاية قائلة :عند ذلك رفعت إصبعي فطلب منى أن أجيب فقلت :

- أريل شارون، وقد حكم في أوائل القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد .

عند ذلك انبهر المفتش وطلب من الجميع أن يصفقوا لي.

و أضاف المفتش مزيدا من المعلومات فقال أن عبقرية شارون جعلته يبدأ حكمه بمذابح هائلة أباد فيها الأغيار الأشرار ..وفي خلال ذلك نجح في إشعال حرب عالمية منذ مائة عام، عندما دبر تفجيرات كبيرة في بلد كان اسمها أمريكا، وكانت منذ مائة عام إمبراطورية كبري، لكنها دخلت في حرب طويلة مع بلاد كثيرة انهار بعدها اقتصادها وتفككت ولاياتها، ونشبت بين الولايات حروب كثيرة، و تحولت جميعا إلي دول من دول العالم الثالث لا تزيد تقدما عنا .وبعد أن أنهي المفتش شرحه منحنى هذه الجائزة .

أخرجت الجائزة من حقيبتها ، فرحنا نتأملها فرحين ونحن نهتف :

- مبارك . . .مبارك . . .

كنا جميعا من السرور في غاية عدا ابني الإرهابي الذي تكدرت ملامحه واكفهر وجهه ، وبصق.

مظاهرات

اشتعلت مملكة الجيزة و إمارة أسوان ومملكة جيزان وسلطنة عدن وحتى صحراء بغداد بالمظاهرات وسقط عشرات القتلى، لكننا سمعنا أن القتلى بالمئات في إمارات إمبابة و دمشق وجبل لبنان والأهواز وشبرا، وسمعنا أن شهداء سقطوا في مملكة الإسكندرية وسلطنة بني سويف وجمهورية غزة العظمى وفى أرجاء كثيرة أخرى من أنحاء ممالك الشر التي كانت تسمى قبل تقسيمها :العالم العربي.

***

حشيش

كنت جالسا على المقهى مع أصدقائي من الصعاليك ندخن الحشيش ونشم الكوكايين والهيروين، وانسطل واحد منا فقال:

- من أعجب ما قرأت في تاريخ القرن العشرين أن مواطني ذلك الزمن كانوا يستطيعون السفر من القاهرة للجيزة دون تأشيرة خروج أو دخول ..ولم يكن على قناطر قصر النيل وعباس و 6أكتوبر أي نقاط حدودية أو مكاتب للجمرك..

انفجرنا ضاحكين على ذهاب عقله ، فاندفع يقول :

- ليس ذلك فقط، بل كان يمكن السفر من القاهرة للإسكندرية دون أية إجراءات ، فقد كانتا مدينتين في دولة واحدة.!!

***

إرهاب

قابلتني امرأتي بالصراخ والعويل فهتفت فزعا :

- مات الولد ؟ ..!

أجابت بالدمع:

- يا ليت . .

صرخت فيها:

- انطقي . .ماذا حدث؟

قالت :

- انضم إلى جماعات العنف و الإرهاب . .

ناديت الولد على عجل ، وراحت هي تولول نادبة البيت الذي ستهدمه دبابات إسرائيل العظمى حين يكتشفون أمر الإرهابي الذي يقطنه .

سألت الولد في غضب عما حدث فأجاب:

- مجرد كتاب في تاريخ القرون الماضية ، ممنوع من التداول بأمر الحاكم العسكري الإسرائيلي.

أمسكت بالكتاب أتصفحه، فإذا به مليء بالتخريف، وكتمت ضحكي، فقد كان مؤلفه أكثر انسطالا من صعلوك المقهى، وكان يقول أن الواحد منا كان يستطيع السفر من المغرب إلى أفغانستان دون جواز سفر.

التفت إلى امرأتي مطمئنا :

-لا تراعي . . .هذا المؤلف حشاش . . .وذلك الكتاب من الكتب الصفراء . . .كتب الخرافة والسحر .

***

نجيب محفوظ

سمح لنا الحاكم العسكري بزيارة أقاربنا في إمارة العجوزة فاجتزنا الأسلاك الشائكة والحواجز الإليكترونية وقضينا يوما جميلا ، وعلا صراخ الأطفال وشجارهم وهم يتنابذون بعظماء التاريخ متفاخرين فصرخت ابنة الأقارب :

- نجيب محفوظ كان من العجوزة .

صرخت ابنتي :

- بل كان يعمل في المقهورة . .

همس لي ابني الإرهابي:

- اسمها القديم كان :القاهرة .!!

قلت له :

- إياك والحشيش .!!

فتمتم:

ثم أن نجيب محفوظ هذا كان من أنصار إسرائيل..

فقلت له معنفا:

-وهذا ما يزيد من قيمته يا أحمق.

***

نشرة أخبار

لعن الله الناس، إنهم لا يصدقون نشرة الأخبار أبدا، ويتبادلون الشائعات رغم نفي المتحدث الرسمي اليهودي .وقد انتشرت شائعة اليوم عن انتصارات حققها الإرهابيون الذين يحاربون الحضارة والحداثة والعولمة منذ أكثر من مائة عام بعد أن استسلم العالم كله، وظلوا هم صامدين، أما ابني الأحمق فيسميهم أصحاب الرايات السود الذين لا يضرهم من يخذلهم.

***

احتفال

رغم المظاهرات ، أقام الحاكم العسكري احتفالا ضخما بمناسبة مرور أكثو من

مائة وثلاثين عاما على هزيمة بلد إرهابي كان اسمه مصر ، كان يريد أن يدمر اليهود رمز الحضارة والحداثة والعولمة والتقدم ، وهتفنا كثيرا ضد هذا البلد ، ولعنّاه ، ودعونا عليه.

وتمتم ابني الأحمق قائلا:

-هذا البلد كان بلدنا، وقد ظل متماسكا طيلة مقاومته لبني إسرائيل ..فلما استسلم لهم تفتت.

***

قرآن

قالت لي زوجتي لائمة مغاضبة :

- ستترك الولد يقرأ في الكتب الصفراء حتى يهلك ونهلك، وساعتها لن ينفعك الحشيش.

قلت لها جادا والدخان الأزرق يتشكل حولي فيمنحني سعادة أسطورية عندما أتوهم أنى لم أوجد قط :

-لا تخافي عليه من الانضمام إلى الإرهابيين أتباع أسامة بن لادن، مادام لم يقتن القرآن أو البخاري.

***

روز اليوسف

احتفلنا اليوم بأقدم مجلة عربية في المنطقة الواقعة بين النيل والفرات واسمها روز اليوسف -ويدللونها بروزا -وقد كانت هي المجلة الوحيدة التي حصلت على ترخيص باستمرار صدورها في العصر الحديث .أما الصحيفة فقد كانت صحيفة الشرق الأوسط، والاحتفال بها بعد أيام، أكثر الله من احتفالاتنا.

مظاهرات

ما أشد رعونة الطلاب وما أسوأ ما يفعلون حين يسيطر الظلاميون والإرهابيون على أفكارهم، واليوم كدروا مزاجي فلم أستطع الذهاب لتدخين الحشيش مع رفاقي، فقد قاموا بمظاهرة حمقاء تنادى بأن يعود الأذان للصلاة باللغة العربية كما كان قديما ، وأن يتوقف الآذان بالعبرية.

قلت في غيظ :

-يا أبناء الأفاعي ، وهل ثمت من يصلى؟ !

***

جمعة

اشتعلت المظاهرات اليوم أيضا لسبب غريب . .فقد طالب المتظاهرون بأن يكون يوم الجمعة يوم عطلة رسمية أسوة بالسبت والأحد . .وقلت لنفسي :

-يا لنا من شعب كسول لا يحب العمل .

***

الإرهابي

يظهر أن أم الولد على حق، إما أن يكون إرهابيا أو أنه مجنون، وقد فاجأني اليوم حين كنت مع أصدقائي الصعاليك ندخن الحشيش والكوكايين والهيروين، لم يشاركنا لكنه بدا أكثر انسطالا منا، وقف صامتا لفترة يحدق فينا ونحدق فيه ، وفجأة انطلق يغنى :

يحدق التاريخ في تاريخنا . . .بمنتهى الذهول ..

يقول :ماذا يا ترى . . .عساي أن أقول ؟ . .!

يجمعنا في كومة . . .يبعد عنا خطوة . .

يشد بنطلونه. . .

وفوقنا يبول [1]

فجأة ..ابتعد الولد عنا خطوة .. و فتح زمام بنطاله المنزلق... وبال علينا . .

***

تفسير

الإرهابي الرجعي المتخلف، عدو الحضارة والحداثة أوشك اليوم أن يوقعنا في مأزق خطير، فقد وقف في المسجد يحمل تفسيرا للقرآن غير الذي سمحت به السلطة الإسرائيلية، والذي انكبت عليه خيرة العقول الإسرائيلية تحت إشراف أعظم الحاخامات عشرات الأعوام حتى أنجزته فكان أعظم هدية للمسلمين، فبعدها جفت منابع الإرهاب وانقضت عصور الأساطير والخرافات.

همس الإرهابي للمصلين:

التفسير الموجود الآن كفر، وهذه هي التفاسير الصحيحة، ابن كثير وابن الأثير، وصفوة التفاسير..

وقاطعته غاضبا:

وماذا نفعل بتفاسير بنيامين وكوهين وجورج ودافيد ورفعت السعيد ونوال السعداوي يا رجعي يا متخلف.

واصطحبته إلي المنزل مسرعا وداعيا الله ألا يشي بنا واش.

***

احتفال

حضرنا اليوم احتفالا عظيما بيوبيل أنساني الحشيش نوعه : فضي أم ذهبي أم

(١) الشعر الوارد في هذه القصة للشاعر الكبير أحمد مطر.

ماسي أم حديدي، وتعددت الخطب وتعدد الخطباء عن أعظم مشروع هندسي في القرن الحادي والعشرين، ألا وهو هدم السد العالي الذي كاد يوردنا موارد التهلكة ، وانهالت آيات الشكر على العبقرية اليهودية التي كشفت لنا مخاطره وخلصتنا منه.

وعدت إلى بيتي كي أواصل الاحتفال بالمناسبة القومية مع أبنائي وزوجتي ، لكن الكهرباء كانت مقطوعة، والظلام كان دامسا.

***

شهامة

بلغت شهامة أصدقائي الصعاليك أنهم عرضوا أنفسهم لخطر الاعتقال من أجلي، فقد فوجئوا بابني المسطول يرفع عقيرته في الشارع ويغني أغنية قديمة اسمها: القدس عروس عروبتكم ، فرفعوا عقيرتهم بالصياح وراحوا ينشدون نشيدا عبريا حتى ذاب في أصواتهم صوته، فاصطحبوه إلى البيت، وراحوا يحذرونني أنه لو – لا قدر الله – وسمعه العسس، لجاءوا ، وهدموا بيتي.

***

صلاة

ذهبت إلى الصلاة – فهي مسموح بها – فتركزت خطبة الشيخ التي تسلمها من مركز الخطب اليهودي الذي تم تأسيسه منذ مائة عام كي يمنعوا المساجد من أن تكون أوكارا للإرهاب، وتركزت الخطبة على لعن الإرهابيين والتحذير منهم ، وعلى ضرورة طاعة ولى الأمر، وتذكرت ابني الذي يناصر هؤلاء الإرهابيين أتباع أسامة بن لادن ، ونهش القلق قلبي.

***

فتوى

عمت المظاهرات وانتشر البلاء وافتقد الأمن، وطاردنا الرصاص في الشوارع

كالذباب، وسقط العشرات والمئات والألوف فقلنا ليس لها من دون الله كاشفة، لكن وسائل الإعلام راحت تحثنا على سماع خطبة المفتي، وسمعناها متلهفين، فتلى قليلا من القرآن وقليلا من الأحاديث ثم قال :

- من لزم بيته فهو آمن، ومن لزم الأمير فهو آمن، ومن لزم قصر الحاكم العسكري الإسرائيلي فهو آمن.

فلزمنا بيوتنا.

وراح ابني الإرهابي ينوح:

حتى المفتي.. يردد أقوال الأنبياء الصالحين من قلب كقلوب الشياطين..

فطفقت أنظر إليه في غضب وغيظ..

***

أسامة بن لادن

صرخت في ابني حين أخبرتني أمه أن الانحراف قد بلغ به إلى غشيان دور سيئة السمعة تتاجر في شرائط الفيديو القديمة الممنوعة:

- إلا أسامة بن لادن . . كله إلا هو . . العقوبة على اقتناء شرائطه أضعاف مضاعفة فهو سيد المتطرفين بلا منازع.

تمتم ابني الإرهابي قائلا:

- الغريب أنه الوحيد الذي لم ينهزم أمامهم، وما يزال أتباعه يحاربونهم في جبال بلاد اسمها أفغانستان.!!

***

استسقاء

صلينا اليوم صلاة الاستسقاء ودعونا الله كثيرا، فلقد جف الزرع وهلك الضرع و أكلنا الجيف ولم يسقط المطر بعد، ابني الإرهابي الذي جف قلبه وقست روحه

راح يروج الادعاءات وينشر الأساطير والشائعات عن أيام لم يكن النهر فيها يجف قط .فسألته في استنكار وغيظ:

-متى و أين حدث ذلك، يا إرهابي يا مروج الإشاعات يا كذاب؟.!

فراح يشرح لي الأمر عن بلاد كان يمر بها نهر لا تجف المياه فيه، وقد كانت شقيقة، وكان اسمها السودان، إماراتها الآن تشكل جزءا من مملكة الحبشة المتحالفة مع بنى إسرائيل، وراح يهرف فلم أطق مواصلة السماع، وانصرفت إلى صلاة الاستسقاء وقد جف حلقي.

***

علامة استسلام

احتفلنا اليوم بعيد قلّ أن يتكرر بين القرون، إذ في إطار التطوير الشامل لكل مناشط الحياة وتحديثها وصل التطوير أخيرا إلى القرآن فتمت إباحة تلاوته بمعناه لا بلفظه، وإلى مناهج اللغة العربية التي كاد أن يهجرها الناس لفرط استعصائها على الألسنة، ولقد نحا المنهج الجديد إلى التخفيف والتبسيط وحذف الحشو والتكرار وما لم يعد يلزم، ولقد تم في اللغة حذف الشعر، وفى النحو تم إلغاء الفاعل و إبقاء المفعول به، وتغيير المنصوب إلى المنصوب عليه، وحذف المرفوع و إبقاء المجرور، ولقد لحق التطوير بالإملاء أيضا، ففي علامات الترقيم أضافوا إلى علامة التعجب وعلامة الاستفهام علامة جديدة، سموها علامة الاستسلام.!!

***

احتفالات (١)

ما أسعد أيامنا، فما من يوم يمر دون احتفال، وبالأمس كنا نحتفل بذكرى وعد بلفور، وكنا قبلها قد احتفلنا بذكرى ثغرة الدفرسوار وقصف الإرهابيين في بحر البقر وإسقاط طائرة الإرهابية سلوى حجازي، و إسقاط طائرة إرهابيين إيرانية،

وقصف مصنع الشفاء السوداني الذي كاد أن يهلك العالم بسمومه، وقتل الإرهابيين في دير ياسين والإسماعيلية وقانا، ودفن الإرهابيين المصريين أحياء في حرب ٦٧ من القرن قبل الماضي ، وكذلك دفن مئات الآلاف من الإرهابيين العراقيين أحياء في نفس القرن.

***

احتفالات (٢)

علقنا الزينات في الشوارع، أما الرايات فترتفع خفاقة سامقة كآمالنا، ففي الأسبوع القادم تحل ذكرى الانهيار النهائي لممالك الشر التي كانت تسمى بلاد العرب.

***

الظلاميون

حدثت اليوم فتنة عظيمة سقط فيها المئات قتلى، فالمتخلفون الظلاميون المتأسلمون الحمقى، الجهلة الذين لا يفهمون الفن العظيم والإبداع والتنوير والحرية التي يجب أن تتاح له بلا أية قيود قاموا بمظاهرات صاخبة احتجاجا على لوحة رسمتها فنانة يهودية عظيمة عن خنزير يمسك عظمة يكتب بها القرآن، وتلفت حولي في رعب ثم صحت بصوت عال:

-مال الدين بالفن والإبداع يا متخلفين يا ظلاميين.!

***

خسة

بلغت خسة ابني الإرهابي أنه راح يشوه تاريخنا ويلقي بالأوحال على أبطال بلادنا، فلقد ضبطته يقرأ كتابا ممنوعا فأخذته منه عنوة ورحت أتصفحه فهالني ما فيه، فإذا بالخسيس لا يبالي بعاره ولا يخجل من كشفي له بل ويبادرني قائلا بوقاحة:

-لم يكونوا أبطالا ولا حكاما ولا زعماء ولا رؤساء ولا أمراء ولا سلاطين ولا ملوكا بل كانوا خونة، ولم تنكشف البلايا إلا بعد موتهم، فالملك الباكي كان عميلا والرئيس الضاحك كان لصا وذو اللحية الشهباء كان مغرما بالصغار أما الشيخ الأقصر فقد كان متورطا في زنا المحارم.

هتفت فيه:

- اخرس يا خسيس..

لكنه واصل قائلا:

- عرف الأعداء الصهاينة بنقاط ضعفهم فيسروها لهم وابتزوهم بها.

هتفت به محذرا و أنا أخفض صوتي و أتلفت حولي:

-الصهاينة أصدقاء لا أعداء يا أحمق..

***

عزاء

رحنا نسري عن صديقنا في همس ، وتبرع له كل منا بجزء من تموينه من الحشيش والكوكايين والهيروين، لكنه راح يهتف باكيا:

-إلا الشرف . . إلا الشذوذ . .

ثم راح يحكى لنا كيف اكتشف العلاقة بين ابنه ومدرسه اليهودي، وكيف ذهب إلى مدير المدرسة يحتج، فهدده بخطورة التدخلِ في حرية ابنه الشخصية لأن ذلك مجرّم بنصوص القانون والنظام الجديد، وقد يترتب عليه حرمانه من تربية ابنه وإسنادها إلى ذلك المدرس وبصورة رسمية عن طريق التبني أو الزواج .. ثم راح ينعى عليه تخلفه، وسيطرة التقاليد البالية عليه.

رحنا نُسرّ بالعزاء متلصصين، فالجهر بالعزاء في مثل تلك الأحوال معصية.

أزهر

عمت البلاد اليوم فتنة عظيمة بعد أن أفتى الشيخ الذي انتقاه الحاكم الإسرائيلي من خيرة علماء الأزهر فتوى جديدة باختصار أركان الإسلام إلى ثلاثة، كما أفتى بنسخ سورتي البقرة والإسراء من القرآن الكريم إضافة إلى ما تم تقليصه في العقود الماضية، فالإرهابيون والغوغاء والحمقى لم يدركوا بعد أن التطوير سنة كل شيء، وأن الأمور بجوهرها وليس بعددها..

***

الخليج الإسرائيلي

ما ألطف اليهود . .

ما أشد ما تظلمهم الافتراءات والشائعات . .

لكني أشهد أنه بعد الحرب النووية . . ومنذ إنشائهم الحكومة العالمية . . لم يمنعوا في بلادنا صياما ولا صلاة . . و لم يكونوا ليمنعوا الحج إلى بيت الله لولا انتشار الفتن في بلاد الحجاز ونجد حيث يخرج قطاع الطرق والأعراب على قوافل الحجيج فيقتلونهم ويسلبون متاعهم حتى أصبح الذاهب مفقودا والعائد مولودا..

ابني المجنون يدعى أنهم هم الذين شرذموا الحجاز ونجد كي يستولوا على المناجم والآبار فيها، وأن عصاباتهم كانت هي التي تقتل الحجيج.

وأضاف ابني الإرهابي قائلا:

لم يكتفوا بتخريب الحجاز فقط، فلقد أبادوا دويلات كاملة كانت تقع على الخليج العربي رغم أن هذه الدويلات كانت طوع بنانهم، أبادوها بعد أن نضب البترول منها وحولوها إلى مقابر لنفاياتهم النووية.

و أخذ الإرهابي يشير إلى مساحات على الخرائط قائلا:

انظر إلى هذه المقبرة النووية الكبرى، مكانها كانت دولة اسمها قطر، وهذه

المساحة أيضا، تشغلها الآن النفايات السامة، ليس فيها أي بشر، وكانت فيما مضى إمارة زاهرة اسمها الكويت، انتهى وجودها عندما استعانت بالذئب على شقيقتها فجاء والتهمهما معا، هل تتصور يا أبي: كل هذه الخرائب حول الخليج العربي كانت مدائن زاهرة..

أمسكت بأطلس الجغرافيا وهتفت به :

- يا جاهل . لا يوجد بالخرائط خليج اسمه الخليج العربي..!!

أشار إلى مساحة زرقاء وقال وهو يبكي:

- كان خليجا إسلاميا اختلف المسلمون على تسميته بالعربي أو الفارسي ثم أذعنوا منذ مائة عام وانصاعوا لتسميته: « الخليج الإسرائيلي » .

قلت له في غضب :

لم نعرف السكينة والأمان إلا في ظل حكومتهم العالمية . . أم تريد بنا أن نعود إلى عصور التخلف والدول.

***

دعاء

يوم الجمعة الماضية اصطحبت ابني الإرهابي معي للصلاة عساه أن يتعلم من صحيح الدين الحداثي ما يشفيه من الانحراف والإرهاب. . وفى ختام الخطبة راح الشيخ يدعو ونحن نجأر : « آمين » . . ماعدا ابني فقد صمت . . ثم راح الشيخ يدعو للحكام وولاة الأمر بالهداية والغفران.. لكن ابني الإرهابي راح يتمتم :

اللهم لا تغفر لهم . . يا إبليس إنهم جندك فلا تتخل عنهم !!.

***

تحديد

ما أنجح السياسة وما أنجع الخطط، لقد حققنا بقيادة بنى إسرائيل ما فشلنا طول العمر في تحقيقه، وقد كان أعظم نجاح لنا في مجال تحديد النسل، ففي خلال المائة عام الماضية بلغ تعداد المناطق والإمارات والولايات والمشيخات والقبائل والعشائر الممتدة من مدافن النفايات النووية الكبرى في البلاد التي كانت تسمى قبل تمام دمارها بلاد الكويت والخليج إلى مدافن الكيماويات الكبرى في الصحراء المغربية ومن تخوم روسيا حتى أواسط أفريقيا عددا لا يزيد اليوم عن خمسين مليون نسمة، وقد بلغ من نجاحنا أننا تفوقنا تفوقا حاسما حتى على بنى إسرائيل أنفسهم، رغم ما اشتهر عنهم من عبقرية وإدارة وتخطيط، ففي نفس الفترة ازداد عددهم من خمسة ملايين إلى ستين مليونا..!!..

***

المؤتمر الاقتصادي

ما أعظم بنى إسرائيل وما أرقهم، وما أشد إنسانيتهم، فلولا معونتهم وحنطتهم وشعيرهم لأكلنا الكلاب والقطط الميتة، ثم أنهم لم يكتفوا بكل ذلك، فها هم أولئك يعقدون مؤتمرا لتنشيط اقتصاد إمارتنا والإمارات المجاورة وجلب الاستثمارات إلينا من أصقاع العالم، وقد تنبئوا لنا - إذا ما اتبعنا سياساتهم بصدق و إخلاص - أن يتحسن اقتصادنا خلال عشرة أعوام فقط للدرجة التي نتمكن فيها من توفير رغيف خبز كل يوم لكل مواطن.

***

صيام

الحمد لهيئة الأغذية اليهودية.. فواله ما ندرى ماذا كنا نفعل في ديننا الصعب لولاها .. ولا كيف نصوم كل هذه الساعات دون طعام ولا شراب..

لقد بشرتنا هيئة الأغذية تلك بأنهم توصلوا بالتكنولوجيا المتقدمة وعن طريق علم الجينات وعلم الوراثة إلى طعام لا يفطر من يتناوله.

أما البشرى الأهم . فهي أنهم بسبيلهم إلى اختراع شراب لا يفطر ولا يسكر !!..

***

معرض

اصطحبت الأسرة إلى معرض الكتاب ، ورحنا ننهل من مناهل المعرفة ، ونتأمل مباهج التكنولوجيا والإبداع في الطباعة والنشر والتوزيع ، عدا ابني المجنون فقد ذهب إلى كتب التراث، لكنه عاد ساخطا وهو يقول :

لم أجد إلا كتبا لأدونيس ورضا هلال وجابر عصفور وصلاح عيسي ورفعت السعيد وجمال الغيطاني . .

هتفت فيه مقرّعا :

- أولئك هم عيون الثقافة والأدب يا أحمق.

لكن قليل الأدب نظر إلى شذرا وراح ينشد :

آه يا شرطة أخلاق القصور الفاسقة . . .

آه يا مرتزقة . . ياجنادين . . يا جرائيش . . يا أصائل مرابد !

يا زبالات الموائد . . .

كم تطوعتم لا لتحرير الجماهير بل لتحرير الصكوك

كم جعلتم شعبي المسحوق . . . مسحوقا لتجميل قباحات الملوك

كم أقمتم في بيوت الشعب باسم الشعب . . .

والشعب بقعر السجن راقد . . .

دمه من فوقكم . . من تحتكم . . من حولكم . . بين أياديكم . .

على المأساة شاهد . .

منذ أجيال وشعبي . . . فوق سندان الحكومات . . . .

وأنتم فوق شعبي مطرقة . . .

منذ أجيال وأنتم تستريحون على أكتاف شعبي المرهقة . . .

وتدورون بسوح المهرجانات سكارى . . . كالكلاب الشبقة . . .

وتبولون عليه الكلمات الزلقة . . .

متى كان لكم ذوق . . . لكي تتهموا ذوقي بسوء الذائقة ؟..

متى استاء من البصق . . . جدار المبصقة ؟..

خشيت من مغبة الأمور بعد أن أفسد عليّ بهجتي، و خشيت أن يسمعه أحد فاصطحبت إلى البيت مسرعا ورفعت عقيرتي بأغنية عبرية كي لا يتسبب غناء الطائش المجنون فيما لا تحمد عواقبه فإذا به ينشد مغالبا إياي في ارتفاع الصوت :

إعلامنا معتل . . . كحبل بهلوان !

كافر : لكنه في منتهى الإيمان !

منذ افتتاحه الإرسال بالقرآن . . .

وانظر إلى اختتامه الإرسال بالقرآن .

ماذا إذن لو ملأ الفراغ ما بينهما . . .

بسيرة الشيطان ؟ ! ..

***

شرف

أفضل الأيام ما مضى، وخير الأعوام ما انقضى، فلقد سمعنا عن أيام كان الشرف فيها أغلى من الذهب، وكان الرجل يبيع شرفه فيصبح رئيس تحرير أو وزيرا

أو حتى ملكا، وكانت المرأة تبيع شرفها فتصبح من أصحاب الملايين، الآن . . لا ثمن للشرف ، وزميلتنا في العمل تبيع شرفها منذ أعوام للسيد المدير اليهودي ولم يوافق لها حتى على إجازة يوم لشأن عارض، وحتى أنا : أبيع شرفي كل يوم ولم أحصل على علاوة ولا على مكافأة !!.

***

متعة (١)

ما أعظم الحرية.. بل ما أمتعها..

ولست أدري كيف كان يعيش أجدادنا قبل أن يبيح فقهوانا زواج المتعة بعد انتصار مملكة الخير الإسرائيلية على ممالك الشر كافة.

***

مظاهرات

المتحجرون الظلاميون المتأسلمون الحمقى قاموا بمظاهرات مطالبين بأن تكون اللغة العربية هي اللغة الأولى ، و أن نعود إلى كتابتها بالحروف القديمة من اليمين إلى اليسار، و أن تكون هي لغة التعليم والدواوين والجامعات.

قلت لنفسي متعجبا :

- وماذا نفعل بالعبرية إذن . . يا أعداء الحضارة والتقدم.

***

رصاص

حضرنا اليوم احتفالا عظيما في ميدان البلدة الرئيسي، فقد تم جلد صديقنا الأحمق مائة جلدة. ولقد كاد الأمر يصيبني بسوء لولا أنني أنكرت معرفته كما أنكرت تبرعي له بجزء من نصيبي من الحشيش، وعندما سئلت عن رأيي في

الشذوذ أجبت بطلاقة أنه حرية شخصية يكفلها النظام الجديد. ولقد تمادى صديقنا في غيه فراح يصرخ باكيا أن ابنه لم يبلغ سن الحلم بعد، وأنه لا يحق لأحد مضاجعته دون إذنه، ثم بلغ به التهور أن طعن في دستورية تطبيق النظام الجديد علينا دون شريعة الإسلام، وهنا أمر الحاكم بإحضار قضاة من أبناء جلدتنا، ولقد أفحم قضاؤنا النزيه العادل الذي لم يتسرب الفساد إليه صديقنا المأفون، حين قالوا أنهم سيطبقون شريعة الإسلام ، واشرأبت أعناقنا لنرى ماذا سيفعلون، و إذا بهم يسألونه:

- هل حاولت أن تمرر خيطا فلم يمر وهل معك ثلاثة شهود؟.

أُسقط في يد صديقنا المسكين، ولم يحر جوابا، فأصدروا حكمهم عليه بالجلد، ورحنا نهتف لعدالتهم ونزاهتهم وحرصهم -رغم ادعاءات الإرهابيين- على تطبيق الشرع كلما عنت لهم قضية.

***

الرايات السود

ضحكنا كثيرا عندما نطق العجوز الصامت أخيرا وهو يمضغ المنزول ويدخن الحشيش ويخطف من كل منا كل آن و آخر شمة كوكايين أو هيروين، قال مرتديا طيلسان العلم :

هل تظنون أن إسرائيل كانت دائما أكبر قوة في العالم.؟

لم يجب أحدنا ولم يهتم لتخريفه، لكنه قام هو نفسه بالإجابة على نفسه فقال:

- لا ، قبلها . . كانت أمريكا أقوى منها و أكبر. . وقبل أمريكا كانت روسيا . . وقبل روسيا كانت بريطانيا وفرنسا. . وقبلهما كانت دولة إسلامية كبرى هي سيدة العالم.

تأملنا تأثير مخلوط الحشيش والمنزول والكوكايين والهيروين على عقله ..ثم

انفجرنا ضاحكين ..وأخذ العجوز الملتاث يسبنا وهو يقول:

-وهل تظنون أن إسرائيل ستبقي أقوي قوة في الدنيا ..لا ..فالأيام دول .. وأتباع أسامة بن لادن أصحاب الرايات السود قادمون ..أصحاب الرايات السود قادمون ..أصحاب الرايات السود قادمون ..

***

مرض

مرضت أم الإرهابي فأصر ألا يفحصها إلا طبيب مسلم . .ولم نترك جحر ضب في البلدة إلا وبحثنا فيه ..فقلت له :

- يا متعصب . .يا متخلف . .ألم يكن حارس بيت المال عند عمر بن الخطاب يهوديا.؟ ..يا أحمق ..ألا تعلم أن تنظيم العمل الجديد قد جعل ممارسة الطب لليهود والخدمة للعرب ..لن تجد طبيبا مسلما..

وأصر الولد على رأيه، وعثرنا بعد مشقة على طبيب مسلم ، ويبدو أنه إرهابي كابني . .فقد ازورّ عنا وراح يتهامس مع ابني ثم نظر إلينا وهو يتمتم :

-نعم الجدود وبئس من وَلَدُوا . .

***

تقدم

ما أعظم التقدم الذي جلبته الحكومية العالمية لأبناء صهيون إلينا . .لا كبت ولا قمع ولا قهر ولا ممنوع . .النساء رهن الطلب . .والمخدرات على رفوف الميني ماركت . .

ما أعظم الحرية . .وما أجمل البشر وهم يسيرون في ميادين العتبة والسادات ومحمد على عراة كما ولدتهم أمهاتهم . .أما عن الحدائق فحدث ولا حرج .

مسرح

اصطحبت الأولاد إلى المسرح . .وضحكنا كثيرا من تمثيل العراقي . .وفى طريق عودتنا فاجأتني ابنتي بالسؤال :

-بابي . .ما معنى عراقي.

احترت قليلا . .لكنني أجبت في حزم واختصار كي لا تكشف جهلي:

- يعنى قزم.

لكن ابني الإرهابي قال :

- بل كان يوجد مكان بلاد ما بين النهرين بلد كبير اسمه العراق ..تحالف إخوته مع أعدائه على شعبه فحاصروهم وحاربوهم وأبادوهم، الباقون منهم أقزام أو مشوهون كما رأيتم ..نتيجة الجوع والمواد الكيماوية واليورانيوم المشع.

همست لابنتي:

-لا تصدقيه فإنه يخرف.

***

مجاعة

سادت المجاعة مملكة مكة فأرسل ملكها يسأل الشيخ الكبير عن جواز أكل لحم الموتى ..

لم نعرف بم أجاب الشيخ لكن ابني المجنون رد على فتواه بقول ما أدرى إن كان يقصد بها الشيخ الكبير أم الملك، قال:

- يا فاجر . .تأكلون لحم الأحياء وتستفتون في الموتى؟ .!

***

أزهر

خفف الله عليه كما يخفف علينا، فلقد أفتى فضيلته -أبقاه الله -في إطار التطوير باختصار أركان الإسلام إلى ركن واحد، وكنا نصفق طربا وتلهج ألسنتنا بالحمد لكن ابني الإرهابي كان يعوي.

***

متعة (٢)

جزى الله فضيلته كل خير ..فلم يألُ جهدا في تيسير أمور الدين والدنيا علينا .. ولقد أثارت فتواه الأخيرة بشأن تطوير الفتوى القديمة عن زواج المتعة كثيرا من اللغط ..ففي الفتوى القديمة كان يشترط في المرأة أن تكون غير متزوجة ..أما في التعديل الجديد فقد أسقط هذا الشرط ..كما أسقط العدة ..وبهذا اكتملت الرحلة الطويلة نحو تحرير المرأة والتي بدأت منذ مائة عام..

***

كلب

ابني المجنون يزعم أن الأطباء اليهود يزرعون أجنة الكلاب في أرحام بناتنا . .

ملأني الاشمئزاز من الفرية و الافتراء فصرخت فيه :

- اخرس . .يا كلب . .

أجاب باكيا :

-الكلب يعوي إذا ضرب . .أفلا يحق للإنسان أن يفعل ذلك . .لكن هناك قوما أحط من الكلاب لا يعوون إذا ضربوا . . .

احترت . .هل يسبنا الولد أم يخرف . .فلم أرد . .

***

تاريخ

ما أكذب التاريخ . .

عبر اليوم بالمقهى مسطول يغنى على العود . .

راح يروى الأساطير والملاحم والفتن والبداية والنهاية . .وكان مما قال أنه منذ مائة عام كانت هناك دولة كبيرة تمتد من الإسكندرية حتى أسوان ومن العريش حتى السلوم . .و أن هذه الدولة حاربت ذات مرة إسرائيل وانتصرت عليها ..!!

وواجهنا بالاستنكار والازدراء فواصل:

وقبل ذلك بقرون فإن الحدود التي تشغلها إسرائيل اليوم من بلاد الأفغان حتى المحيط ومن روسيا حتى الحبشة كانت بلدا إسلاميا كبيرا..

ونهرنا ولكنه واصل:

-والبلاد التي تشكل ضواحي تل أبيب اليوم كانت بلادا عربية مستقلة ..فبلد كان اسمه سوريا وبلد كان اسمه الأردن وبلد كان اسمه لبنان..

قاطعناه ..ومنعناه من مواصلة الحديث ..ثم طردناه شر طردة . .وحذرناه من مغبة العودة مرة أخرى . .

وعدنا إلى مخدراتنا عاجزين عن مقاومة الضحك والدهشة لانتشار الكذب والخرافات .

***

قِبْلة

صرخ ابني الإرهابي المجنون :

-كَفَرْ . .والله كفر . .

ضربته بالحذاء صائحا به:

-إنه الشيخ الكبير . .يا كافر . .

صاح باكيا لكن ألم الضرب بالحذاء لم يصرفه عن الملاحاة والمماحكة والجدل فقال:

- كيف يفتى بجواز تحويل القبلة إلى حائط المبكى وهيكل سليمان يا أبى.

أشفقت على الدم المنهمر منه تحت ضربات الحذاء فقلت له في هدوء عساه يتعلم ويفهم:

-يا أحمق ..أولا.. هو الشيخ الكبير.. وعصيانه كفر.. ثانيا.. ألم يكن الرسول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم يوجهون وجههم هناك في البداية.. أليس تقليدهم سُنّة .. وثالثا.. إنه لا يقصد حائط المبكى.. بل يقصد بيت المقدس والمسجد الأقصى الذي بُنّيَ الهيكل على أنقاضه . .

وواصلت قائلا :

- أليست القدس من مقدساتنا . .

صاح قائلا :

- لم يعد فيها مسلم . .

لاحظت انهمار دموعه دما . . دما . . فخشيت أن أكون قد أسرفت في ضربه . . وأن يكون الحذاء قد فقأ عينه . . فاصطحبت على عجل إلى طبيب العيون . . اليهودي . . وفى الطريق حاولت أن أسترضيه فرحت أسرى عنه قائلا :

ومع ذلك يا بنى . . فرأي الشيخ الكبير صواب يحتمل الخطأ..

***

تليفزيون

حالفنا الحظ بسبب ابنتي المتفوقة فحصلنا على جائزة ضخمة من التليفزيون. .

فقد كنت أسير خالي البال معهم نتنزه على المستنقعات والبحيرات التي حلت محل النيل الخالد واحتفظت باسمه تحت حراسة العسكر اليهود الذين نشروا الأمن والأمان ومنعوا الفوضى والزحام عندما حددوا لكل إمارة يوما تنفرد فيه بالنزهة على النيل الخالد. . وفجأة وجدنا فريقا من التليفزيون والمخرج الشهير يسأل عن أهم المعارك في التاريخ الوسيط . . وسألني ابني الإرهابي : «ما معني الوسيط»؟.. لكنني نهرته كي لا تفوتني المتابعة . . اشتد الزحام وتعددت الإجابات . . فمن قائل أنها معركة شاغلون وقائلة أنها معركة اليرموك وثالث يصرخ بل معركة يستنجز وهمس الإرهابي بل معركة حطين لكنى نهرته وقال آخر أنها معركة بوفين واعترض واحد لم أره من فرط الزحام قائلا بل معركة كريسي.. كل هذا والمخرج الشهير يقلب شفتيه امتعاضا من الخطأ. وساد الصمت فقال واحد معركة أنقرة فواصل المخرج اشمئناطه وصرخ واحد : المعركة النووية الأخيرة التي انتصرت إسرائيل فيها على العالم ودمرت عواصم التخلف والتطرف والقطرية وأنشأت الحكومة العالمية الواحدة . . . ولانت ملامح المخرج الشهير وقال بتعاطف :

- إجابة كان يمكن أن تكون صحيحة لولا أن علماء التاريخ يعتبرونها بداية العصر الحديث . .

فواصل قائلا وهو يتفحص شفاهنا في خيبة أمل:

- إذا لم يجب أحد الإجابة الصحيحة سأعطيك نصف الجائزة . .

وفجأة صاحت ابنتي المتفوقة بصوت رفيع رقيع :

- أنا أعرف الإجابة . .

دعاها المخرج أمام كاميرا التليفزيون . . واستبد بي القلق أن تخطئ في الإجابة لكنها صرخت :

- حرب الخليج . . ولها أسماء أخرى : . . حفر الباطن . . والمجد للعذراء . . .

قاطعها المخرج في نشوة :

- إجابة صحيحة . . . إجابة صحيحة . . .

وطلب منا أن نصفق لها فاشتعلت أيدينا بالتصفيق وبحت أصواتنا من الهتاف وتطوع المخرج الشهير بإضافة التفاصيل قائلا:

- كانت تلك هي الحرب التي مهدت للانتصار النهائي للحضارة والتقدم على الهمجية والوحشية والتخلف . . ومن أبطالها الرئيس بوش والرئيس مبارك والملك فهد . .

ثم واصل قائلا :

- كانت تلك المعركة دليلا فذا على تفوق العقل اليهودي ونجاح توقعاته فقد تمت بكل تفاصيلها تحت سيطرته وتخطيطه . . فيها جدع الإرهابيون المتوحشون المتخلفون أنوفهم وسملوا عيونهم . . وبعدها لم تقم لهم قائمة..

ثم أمر لابنتي بجائزة ضخمة . . .

أما ابني الأحمق فقد راح يهمس:

أعظم المعارك لم تحدث بعد..

ونهرته خشية أن يسمعه الناس فتسوء العواقب فراح يتمتم:

أصحاب الرايات السود قادمون.. أصحاب الرايات السود قادمون.. أصحاب الرايات السود قادمون..

***

حج

قلت معرّضا بابني الإرهابي في تأفف:

- متى يتوب الله علينا من القلة الحاقدة التي لا تفتأ تثير الاضطرابات كلما

أصدر فضيلة المفتي فتوى؟ .

صرخ فيّ:

- يا أبى هذا كفر فأفق.

قلت له متجاهلا قلة أدبه في الرد عليّ:

- زعمتم أنهم ألغوا الحج، ولم يلغوه إلا بعد أن أصبح مخاطرة، فلما أعادوه اشتد هناك الزحام حتى كاد أن يموت الناس، ولقد كان ذلك عجيبا بعد مائة عام من التطوير، وكان يدل أننا لم نتحضر بعد، فلماذا تعترضون يا متخلفين على تنظيمه؟ !..

صرخ الإرهابي قليل الأدب :

- ليس تنظيما يا أبى، هل قرأت نص الفتوى؟ !.

أجبته في ضيق لسفسطته:

- ولماذا أشغل نفسي بالتفاصيل يا أحمق، قرأت العناوين، وهذا مجرد تنظيم، وذلك اختصاصه.

لكن الولد واصل الصراخ:

- لقد أفتى بتوزيع أيام الحج على العام كله بدلا من اقتصارها على أيام عيد الأضحى.

نظرت إلى الولد في ذهول غير مصدق و أنا أحبس ضحكة تعربد في أحشائي، فلقد قلت لنفسي أن فضيلته قد توصل إلى نوع من الحشيش لم يصل إليه أحد!!.

***

شائعات

لم يكف الإرهابيون أعداء الحضارة والتقدم والسلام -لعنهم الله- عن نشر الشائعات . . وقد استغلوا أبشع استغلال قيام العلماء والخبراء بحفر نفق تحت قبر

الرسول ﷺ وادعوا مالا أستطيع النطق به . . ولقد رد رئيس وزراء بنى قريظة على هذه الشائعات قائلا :

- إنهم كذابون مثل نبيّهم . .

أخرسني الرعب والخوف من عودة انتشار الفتن لكن ابني الإرهابي لا يكف عن الصراخ ..

***

إصلاح

أصلح الشيخ الكبير ما أفسده فضيلة المفتي بعد اندلاع مظاهرات الغضب، فقد ألغى الفتوى الخاصة بتوزيع الحج على أيام السنة، وتفتقت قريحته عن حلول فذة، فقد ابتكر أنواعا من الحج تختلف عن الطرق القديمة التي كان الحج يستغرق فيها أياما وأسابيع، ولقد سمى نوعا منها «الماكرو حج» ويستغرق ثلاثة أيام، ونوعا آخر سماه : « الميني حج » يستغرق يوما واحدا، لكن عبقريته تجلت في نوع آخر سماه: «الميكرو حج » وفيه يكفى أن تحلق الطائرات بضع دقائق في سماء عرفة ثم يعود الحجاج دون أن يتركوا مقاعدهم، وكان هذا النوع أغلى أنواع الحج، أما رمى الجمرات فقد تكفل بها سلاح الجو الإسرائيلي.

***

فتنة

ضج الناس في الحج للاختلاف في المناسك..

تقاتلوا حتى سال الدم أنهارا.. فاجتمع الحاخام بالشيخ في اجتماع لم يحضره غيرهما أحد.. وقد نجحا ببركة الحاخام وسماحة الشيخ في إخماد الفتنة وحل جذور المشكلة.. فقد اتفقا على أن يتم في كل تجمع كبير من تجمعات المسلمين بناء نماذج هي صورة طبق الأصل من المناسك ابتداء من عرفة ومرورا بالمزدلفة وانتهاء

بالمسجد الحرام.. ولقد أعلن الحاخام -بين امتناننا وشكرنا- تبرع إسرائيل ببناء خمسة نماذج في المقهورة والجزائر ودمشق وبغداد وإسلام أباد.. ثم فاجأنا بإنشاء نموذج سادس أكبر من الأصل في تل أبيب نفسها.. اشتعلت أكفنا وحناجرنا من الهتاف والتصفيق.. رحنا نتبادل التهاني والنظرات مشيدين بدهاء شيخنا الكبير الذي تمكن من استدراج الحاخام لكل هذه التنازلات .. إلا أن شيخنا الكبير لم يكتف بالدهاء فقد أسبغ علينا رحمته عندما وافق أن يبنى كل تجمع أصغر من المسلمين عرفاتهم ومناهم ومسجدهم الحرام حيث يقيمونها بجهودهم الذاتية .. وأفتى بأن الحج إليها يجزى عن الحج إلى مكة ..

بهذا الاجتماع التاريخي استطعنا أن نحل مشكلة دامت أكثر من خمسة عشر قرنا بلا حل..

رجعت إلى ابني مشتعلا بالحماس أصرخ فيه:

- يا إرهابي.. يا ظلامي .. يا متألم .. لقد غزوناهم واستولينا على عاصمتهم .. إن ما حدث يساوى الاستيلاء على تل أبيب نفسها ..

لم يشاركني الإرهابي - قليل العقل والذوق - حماستي .. وبصق .. وقررت أن أعاقبه على سوء أدبه.. لكنني تراجعت حين نظرت إلى بصاقه.. فقد كان.. دما.. دما..

***

كتب

سألت ابني الإرهابي في قرف غاضب:

من أين تأتى بهذه الكتب الممنوعة التي لا تحوى غير الخرافة والكذب؟ !

راح يشرح لي أنه بعد استيلاء بنى إسرائيل على العالم حرقوا كل الكتب التي تكشف بربريتهم عبر التاريخ، وهنا تطوع جماعة من أهل الحقيقة فحفظ كل منهم

فصلا من كتاب من كتب التاريخ لا يكف عن ترديده وكتابته وطبعه بالوسائل البدائية إذا تيسرت له، ثم توزيعه على من يتوسم فيه أنه من أهل الحقيقة. وكان كل من يحفظ كتابا يتسمى باسم مؤلفه، فهذا البخاري وهذا مسلم وذاك الصحيحان وأولئك ابن تيمية..

وقلت له مرتاعا:

- لكن هذه الكتب لا يقتنيها إلا الإرهابيون يا إرهابي..

قال والدموع في عينيه:

- يا أبي أدعوك للحق والحقيقة فاشهد.

تمتمت بصوت حرصت ألا يسمعه :

أبناء الحقيقة ثلاثا: واحد مات مصلوبا، وواحد مات مجنونا، وواحد لم يولد بعد.

***

هجرة

قال لي ابني الإرهابي :

-هذا فراق بيني وبينكم . .

هتفت في دهشة :

- إلى أين . . ولماذا . . ؟

قال كأنما يحدث نفسه :

- في عالمكم . . ما بين قماط الميلاد وكفن الموت ليس إلا الذل والكذب والنفاق..

اعتصر قلبي بالخوف والاستيحاش و آلمتني دمعة انحشرت في عيني فقلت

والرحمة تقطر من قلبي والجزع يكاد يهلكني :

– يا بنى اصبر . . فإن من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع . . هل تحسب أنى لا أفهم . . بل أفهم .. فافهم أنت الدرس . . . عندما يكون الفهم صنو الموت أو الخراب فادّعِ الجهل . . .

تمتم قائلا:

– الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديق غيره . .

انسحق قلبي تحت وطأة تصميمه فقلت :

– إلى أين ؟

قال كأن لم يسمعني :

– من سل سيف البغي قتل به . .

قلت :

– شلنا العجز والضعف فامكث . .لن تستطيع أن تفعل شيئا. .

قال :

– لن أستحي من عمل القليل فالعدم أقل منه . .

قلت نائحا:

– يا بنى قد ملكوا الدنيا . . لا عاصم اليوم إلا من رحموا . . فامكث حتى يقضي الله أمرا . .

قال :

– إن الله يرزق كل طائر رزقه لكنه لا يرميه له في العش . .

صرخت وقد جثم الحزن على قلبي :

– لن تستطيع شيئا . . . ملكوا أقطار الأرض . . لمن الملك اليوم.. أليس لهم ؟

أجاب:

بل لله الواحد القهار . .

صرخت ملتاعا وهتفت مرتاعا:

أين تذهب؟..

فقال:

إلى الفئة المنصورة.. ونزحف تحت رايات الجهاد الخفاقة باسم « لا إله إلا الله محمد رسول الله» .. نزحف بها عليكم فلا يوقفنا شيء.. نزحف إليكم فنستعيد مكة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة ودمشق و إسلام بول وطهران والخرطوم والمغرب و الأندلس..

وراح الولد يبتعد هامسا :

- لكل شمس مغرب . . ولكل ليل فجر . . . ولكل أول آخر . . إلا الأول والآخر . .

وانسرب وسط الظلام . . ورحت بين الدموع أسائل نفسي : حلم أم علم . . أم كابوس و أضغاث أحلام تنتمي للقرون الخالية وحياة التطرف والشعارات البالية و أوهام المجد . .

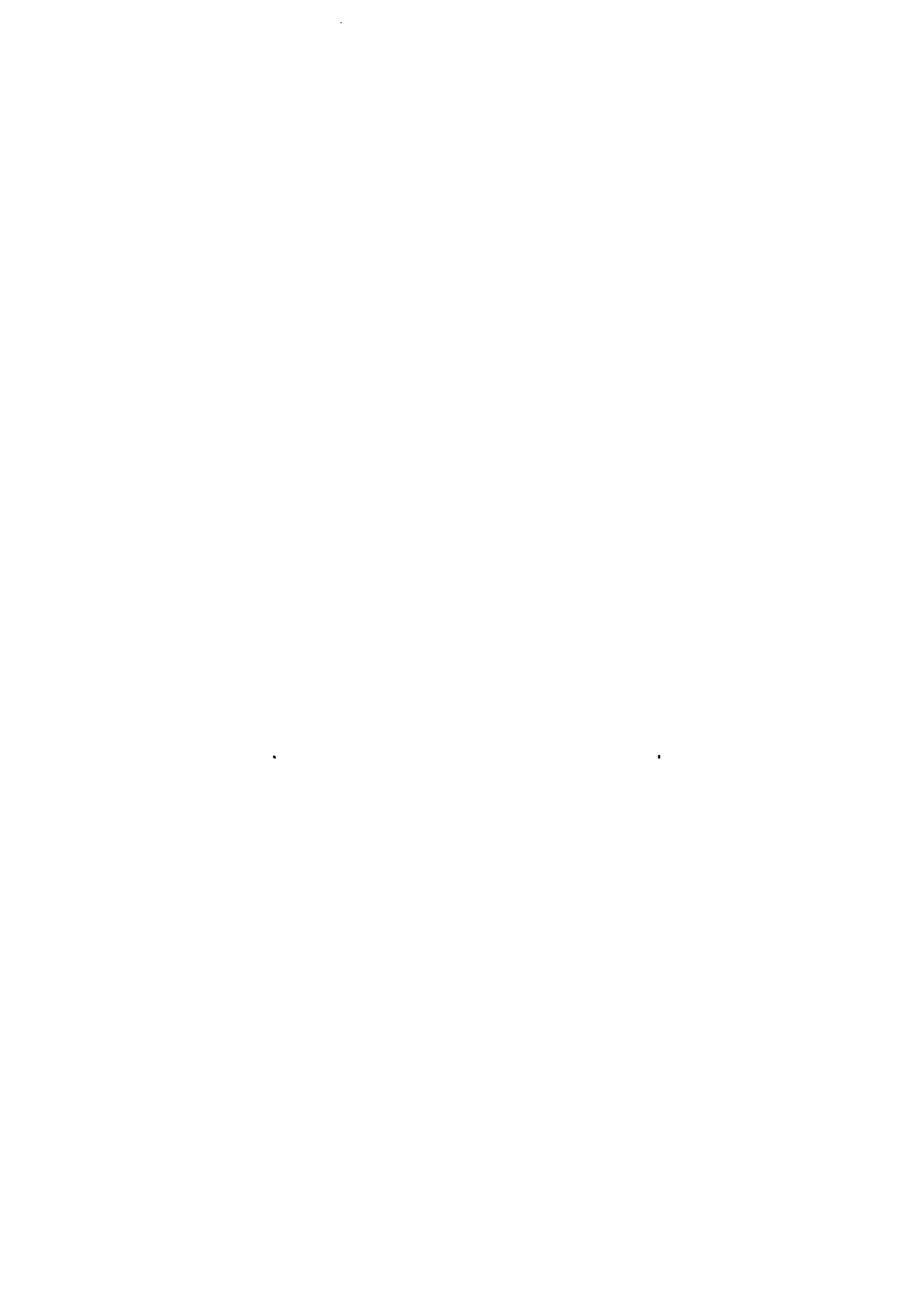
ولم أستطع الإجابة عن أي سؤال فهرعت إلى رفاقي الصعاليك مشتاقا إلى الحشيش والكوكايين والأفيون ممنيا نفسي أن يبلغ انسطالي مبلغ أن أحلم أني لم أولد(*) .

***

(*) الشعر الوارد في هذه القصة للشاعر الكبير أحمد مطر.

حفل إفطار رمضاني

تدنس ثوبك فاخلعه



(أ)

قال لي كبير الحرس :

- إلا الملك .. إلا الملك يا خصي يا صعلوك يا ابن الرعاع .. اكتب عن من شئت وعما شئت لكن إلا الملك .

قلت في سريرتي أنه مخصي قبلي و أنه هو الصعلوك وابن الرعاع لكنني أوشك - وقد غلقت أمامي كل الأبواب إلا بابه - أن أكون مثله.

وجهت وجهي إلي السماء مدعيا الضراعة و دعي لساني لمولانا بطول العمر، لكن الحركة لم تنطل عليه - ولعله سمع قلبي يدعو لله بقصف عمره وبعثرة ملكه وتشريد أهله الذين يسوموننا سوء العذاب - فواصل مهددا :

- إياك أن تظن أننا لا نفهم لمزاتك وغمزاتك ورموزك، والله الذي لا إله إلا هو لأن عدت إليها لأسملن عينيك ولأطعنن قلبك ولأخصينك ثم لأقطعن رأسك .. إلا الملك .. لا شأن لك به ..

أردت أن أقول له أنه هو الخصي في أمة خصيان ربها سيده ومولاه الذي يأمرني بعدم التعرض له، ثم كيف أكتب عن من شئت وعما شئت دون أن أتطرق إليه وهو الأصل خلف كل حدث والسبب في كل حادث . أعرضت عن كبير الحرس وهمست لنفسي مطأطئا:

- لا شأن لي بسواه .

***

(ب)

قال لي شيخي حين ذهبت إليه شاكيا متوجعا من أيام سود تطير فيها الرقاب ولا يعرف فيها مقتول من قاتله ولما قتله :

- ليتهم يفعلون ذلك .. ليتهم لم يكفوا عن قتلنا .. أصبحوا يضنون على أمثالنا

بمنازل الشهداء .. إنهم الآن يسملون البصيرة لا البصر، يطعنون الشرف لا القلب، يقطعون الأمل لا الرقبة .

هتفت في يأس :

- و ما العمل يا مولاي؟.

فأجابني متكدرا :

- حين تطلب الموت فلا تجده فلعل الله يمنح الصابرين من الأحياء فوق منازل الشهداء . ثم أردف قائلا :

- أمامك ابتلاء.

***

(ت)

قال لي رئيس التحرير شامتا :

- مقالاتك لم يعد يقرأها أحد، خير لنا أن نستغل المساحة فيما يفيد.

ثم راح يقهقه وكل قهقهة نيزك يحرق قلبي، ثم واصل الحديث وهو لا يكاد يغالب ضحكه :

- كل قضاياك خاسرة، يا شؤم يا نحس، لماذا لم تجرب مرة أن تقف ضد قضية تحبها، فلعل طلسم نحسك ينفك، ما من قضية حاربتها إلا وانهزمتَ وانهزمتْ القضية وانتصر أعداؤك، في أبسط الأشياء وأكبرها، في الأهلي والزمالك وفي أمريكا وروسيا والخليج و إسرائيل والسودان والعراق وليبيا وإيران والبوسنة والهرسك .....

ثم أتي بحركة وضيعة وهو يعابثني بيده مستهزئا وقائلا :

- بوسني وهرسكني .... !

حاولت أن أدافع، أن أكرر له ما سبق أن كررته دائما، لكنني قلت لنفسي أن ما لم يقنعه سابقا لن يقنعه آنفا . رحت بيني وبين نفسي -وأنا أطرق صامتا- أسبه سبابا قبيحا، وحين تحول القبح إلى فحش غلبني الابتسام فكسوت وجهي بالاستسلام كي لا أثير حفيظته فيمنع عنّي معاشي وطعامي وشرابي . عزيت نفسي بأن الناشر سيعوضني خيرا.

***

(ث)

قال لي الناشر مغالبا إشفاقه علي:

- طبعت من كتابك الأخير عن حقوق إنسان القرن الحادي والعشرين ألف نسخة فقط، أرسلتها محزمة من المطبعة إلى دار التوزيع، بعد أسبوعين أعادت دار التوزيع إلي ألفا وخمسين نسخة!! ....

قاطعته – وقد صَعُبَتْ علي نفسي – قائلا:

- نصابون وكذابون، لقد اشتريت أنا وحدي خمسين نسخة كي أوزعها على النقاد الذين توقفوا عن شراء الكتب ...

وغالب الناشر هذه المرة ابتسامته قائلا:

- بعد تحقيق وتدقيق ومراجعة اكتشفنا أن المطبعة طبعت مائة نسخة بالزيادة .

غرقت في الإطراق حين لم أجد ما أقول، لكنني بيني وبين نفسي رحت أسب القراء سبابا قبيحا .

قال الناشر في ود حميم :

لماذا لا تجرب مجالات أخري في الكتابة، أنت كاتب موهوب، لكن لماذا لا تغير

مواضيع كتابتك إلي مناطق لا يناصبك فيها الكل العداء؟

تمتمت مخاطبا نفسي والهم يركبني والحيرة تشملني:

- فيم أكتب إذن؟.

سارع بالإجابة مدركا أن مجرد تساؤلي موافقة:

لماذا لا تكتب في الجنس؟.

هتفت مأخوذا :

الجنس ؟؟!!..

واصل بحماسة قبل أن أغير رأيي :

- موضوع لا يبلي ولا يُمل، جديد دائمٰ ومطلوب .

تساءلت حائرا :

- كيف؟.. وماذا؟.. ولماذا؟..

فتمتم متلفتا حوله :

- الحرية الوحيدة التي لا يعاديها طاغية ولا يمنعها سلطان ولا تطاردها مباحث.

فعاودت تساؤلي :

- كيف ؟ وماذا ا ؟ ولماذا ا ؟

رحت أقلب عيني بين السماء الأرض .

ارتد إلى البصر وهو حسير، وأنا حسير.

عكفت على نفسي واعتكفت .

***

(ج)

قطعت علي حبيبتي خلوتي متسائلة وقد أحس بدبيب الخطر قلبها الشفيف:

- لكأنها خلوة لعبادة الشيطان !!..

فران علي صمت من يخشي أن يبوح بإثمه ولو بالرغم منه إذا نطق، فواصلت هي كأنما تحمل مفتاح الفرج :

- الصدق مأْمَنة.

صرخت في لوعة:

- بل مهلكة... وقد خدعونا .

انطلق صوتها الحاد كالنواح محملا بغيوم الفجيعة فتهاطلت الكلمات أمطارا من الدم:

- من أولئك الذين خدعونا ؟.

فأجبتها و قد نقلني صاروخ تدفعه كتلة وقود صلبة من الألم واليأس من درب المبالاة إلي مجرات اللامبالاة :

- شيوخنا وفقهاؤنا ومفكرونا والكتب .. و .. أنت ...!!.

ثم أردفت في تحد:

- ليس من هدف أسمي للحياة سوى الهروب من الألم، لذلك فإن أقصر الطرق بين نقطتين هو أكثرها تعرجا والتواء، أما الخط المستقيم فلا يصل أبدا...أبدا ...أبدا ...إنما هو يقطع .

***

(ح)

أقسمت ألا يسبقني في الفسق فاسق، وألا يغلبني في الفحش عاهر. ما أن بدأت حتي أيقنت أنه إذا كان أصل الشيطان ملاكا غوي وضلّ فإن أصل الإنسان شيطان لم يضل .

كتبت في الجنس، عن الجنس، عن الدعار والداعرات.

شغلت مقالتي الأولي صفحات المجلة الأولي وزينت عناوينها صفحة الغلاف واستدعاني رئيس التحرير ليعانقني في ود حميم وترحاب وانفعال وشوق حتي اقشعرّ بدني حين تذكرت ما أشيع عن إصابته بالشذوذ فابتعدت، وراح هو يهنئني مراجعا تقارير شركة التوزيع عن تضاعف الأعداد المباعة.

جاء الناشر يلهث مستحلفا إياي أن أشركه في أيامي الحلوة كما حمل معي أيامي المرة .. نثر أمامي النقود قائلا :

- لك ما تشاء لكن وقِّع معي الآن عقد نشر كتابك الجديد! .

تبت وكتبت و كتبت ... كتبت عن زنا المحارم، عن هاتك عرض أمه، وغاشي ابنته ومعاشر أخته ... كتبت عن متعة الحرام ونشوة الدنس ... غصت في الأوحال أجمع مادتي، استجوبت الدعار والداعرات، فكتبت ما قالوه ولم أخف شيئا، بل لونت لياليهم بما شئت من ألوان الطيف و أضفت ما أردت من توابل .

المجتمع يهتز، أكشف خبيئته فيمور ويغلي، أما رئيس التحرير فيرقص، والناشر يغني طربا .

***

(خ)

كتبت عن المرأة التي أغوت عاشقها فأغواها فأعطت طفلتها التي لما تكد تبلغ الحلم بعد كأس سم مذاب في العسل كي تجرعه أباها، وقضي الأب نحبه وتسللت الهواجس إلي قلب الطفلة، فواجهت الأم، فلم تجد الأم مناصا من أن تطلب من العشيق أن يغشي الطفلة ويهتك عرضها حتي يسيطر عليها . كتبت عن الجنس الساخن على رمال سيناء الدافئة، عن عنف الإسرائيلية وجدية الألمانية وتجهم الإنجليزية وانفتاح الأمريكية وعذوبة الفرنسية، عقدت اتفاقا مع ملاك قرية

تعذروا في بيع وحدات قريتهم، كتبت موضوعات عديدة بأسلوب علمي رصين عن اكتشاف إشعاعات لرمال تلك القرية تزيد الرجال رجولة والنساء أنوثة، دفعت للخبراء والعلماء فكتبوا، ألمحت بدرجة يتواري إزاءها التصريح، وأخفيت بصورة يتضاعف معها التخيل، استدعيت الأساطير فكتبت أن من يذهب سيجد نصفه الآخر الذي لم يعثر أبدا عليه، جعلت من الطبيعة شذوذا ومن الشذوذ طبيعة، زورت تحاليل المعامل ودبجت التقارير، وبرغم أن رئيس التحرير كان يعرف معظم تفاصيل اختلاق الأمر إلا أن شكا خامره ألا دخان بغير نار فاستدعاني عندما صدق الكذب وكذب الصدق قائلا:

- أريد مكانا لمدة أسبوع .

فتساءلت :

- رجالا أم نساء أم أطفالا ؟!

فتجاهل تعريضي وتصنع أنه لم يسمع و ارتسمت على شفتيه نصف بسمة ونصف انفجار. أحصيت ربحي فاكتشفت أنني فارقت إفلاسا عمره من عمري وأن ما حصلت عليه من مكاسب يساوي مرتبي من الصحيفة في ألف عام .

***

(د)

كتبت عن العروس العاشقة في شهر العسل ... عندما عاد العريس وسط الليل فجأة فقفز العاشق من الدور الرابع عاريا فلقي حتفه ... وجاء البوليس و حامت الشكوك حول الجميع عدا العروس ... لكن الفضيحة انفجرت أخيرا. ذهبت إلى سجن النساء وقابلت العروس، كتبت عن الفارق بين جنس وجنس ونشوة وزوج وعاشق وهاجمت الكبت والقهر و دعاة الانغلاق ودافعت عن حرية المرأة، وكتبت من التفاصيل ما جعل الأضعاف المضاعفة من نسخ الصحيفة المطبوعة تنفد بعد

دقائق وما جعل بوليس الآداب يستدعيني ورئيس التحرير بعد ساعات، ولولا عمق اتصالاتنا لقضينا الليلة في التخشيبة.

قلت لرئيس التحرير ونحن ننصرف معززين مكرمين :

- ما أسعد بلادنا بحكامنا.

التمعت نظرات الريبة في عينيه فواصلت :

- إذا أردت أن تذل شعبا سلط عليه حاكما، و إذا أردت أن تذل حاكما سلط عليه امرأة، و إذا أردت أن تذل امرأة سلط عليها مثلي ومثلك . أرأيت كيف نحكم ؟.

راح يقهقه - مداريا عدم الفهم - قائلا :

- ما دمت بعيدا عن السياسة فأبشر بطول سلامة.

***

(ذ)

قال لي رئيس التحرير

-اكتب ... و اكذب ...فإن أنجح الصحف أكذبها.

فكتبت عن قبيلة لم أحدد مكانها، عن شوارب رجالها الاثنين والعشرين ولحاهم و أغطية رؤوسهم ورجولتهم البادية وفحولتهم السابغة وعن جمال نسائهم وبناتهم، عن رعونة ذلك الفحل الذي بلغ به الجموح حد زنا المحارم فاغتصب ابنة أخيه مدعيا - دون أدلة قاطعة علي كذب ادعائه - أنها حلاله، فما كان من إخوته إلا أن استعانوا ببلطجي مشهور خلص الفتاة منه واصطفاها لنفسه محظية وهم يهللون ويباركون والبنت وقد تشجعت به أخذت تتحكم بسطوة حاميها في أعمامها فتسلط البلطجي علي الانتقام ممن تكره وتدله على مداخل بيوتهم و أسرارها فلم تكد تمر ليلة دون أن يرسل البلطجي من يسرق له ما شاء من بيت من شاء، كما دلته على ثرواتهم وكنوزهم الخبيئة، فأوهمهم ألا أمان لها إلا في خزائنه فاصطنعوا من فرط

الرهبة الاقتناع، وعندما همهم أحد أعمامها بما اشتم منه الفتوات أنه بادرة اعتراض علقوه على العروسة و أعطوه علقة ساخنة والفتاه تصرخ وتزغرد وأعمامها يبرمون شواربهم هاتفين للبلطجي منقذ الشرف الرفيع من الأذى، فراح يرد لهم الجميل فيأمر بتحويل خيام من ارتضوا الوضع ورحبوا به إلى ملاذات آمنة ويأمر بحصار الخيام الأخرى التي لم تهتف له فلا بيع ولا شراء ولا سفر.

***

(ر)

قال لي رئيس التحرير منتشيا وهو يقرأ تقرير شركة التوزيع:

- اكذب أكثر . . . . .

فقلت له والدموع تغرورق في عيني :

ما أنا بكاذب!!..

***

(ز)

كتبت تفاصيل رهيبة عن واقعة اغتصاب حدثت في الحرم وأخري في المسجد الأقصى وثالثة في صحن الأزهر، وأوجزت ..

و كتبت عن مضيف مصر الجديدة الذي لم يكن يثيره إلا مضاجعة الغرباء لزوجته أمام عينيه بعد أن يحبس أطفاله، وعن رواية يصيب الطلسم فيها رجال الوطن كله بالعجز، وصفت وفصلت و أطنبت ......

***

(س)

جاء رئيس التحرير يصرخ :

- لن يكتفوا بمصادرة عدد المجلة، سيسحبون الترخيص كله .

لم يكن المسكين يدرك أنني لم أعد غزالا تطارده السباع بل سبعا يفرض سلطانه..

***

(ش)

تساقط الأسي من عيني حبيبتي دون دموع وهمست من قلب موجوع :

- كنت أنا وكنت أنت فكان الأنت أنا والأنا أنت، فكيف لم تعد أنت أنت ؟!

أردت أن أحكي لها عن الجلاد والملك ورئيس التحرير والناشر وعن شيخي وعن رغبتي فيها وفي حيوات لا تشطر القلوب وكلمات لا تقصف الرقاب لكنني إذ نظرت إليها لم أر لها أذنين، وإذ ارتد بصري إلى لم أجد فما.

***

(ص)

كتبت عن وزير نافس ابنه على عشيقة فانقلبت الدنيا، إذ كان الوزير أثيرا عند الملك. صرخ رئيس التحرير غاضبا:

- هل أنت أعمي أو أصم، قلت لك أكذب ولم أقل لك قل الحقيقة!!.

ونظرت إليه فلم أجد له عينين ولا لسانا ولا شفتين، ولا حتى أذنين.

وبرغم أفضالي عليه وعلى صحيفته لم أفلت التماعة الشماتة في عينيه وهو يقول :

- الكوارث تمشي في ركابك، سواء كتبت عن الدعارة والداعرات أو عن...

وقاطعته قائلا والمرارة تفيض من بين شفتي حمضا كاويا:

- أو عن الدعارة والداعرات . .

وانفتح فمه من الدهشة والعجب من تهوري وخالط الشماتة في عينيه خبث ولمع شر.

نظر نحوي بريبة وتمتم :

– لست أفهمك، ويخيل إلي أنك و أنت تكتب عن الدعار والداعرات تضعني في زمرتهم، بل ويخيل إلي أحيانا أنك تكتب عني لا عنهم . !

ثم تفرس في مليا وهو يتمتم:

– ليس عنى فقط.. بل عنا.. نعم.. عنًا.. عنّا.. عنـّا ..

***

(ض)

قابلني اللواء الجلاد فأعرضت عنه في أنفة من لم يعد يخشاه، من اكتشف خبيئته ورأي عورته بأعين عشيقاته، وسمع أسرار البلد بآذان خليلاته، اندلعت من خزائن الذاكرة جمرة لهيب كوت القلب فقلت له في مرارة:

– أما زال التهديد بالخصي قائما قربانا لربك ؟.

فقلب يديه كما لو كان يعتذر بهما:

– أما بعد التوبة النصوح والهداية فلا، أولم تقسم عندنا أنك تبت، أولم تقسم على ألا تعود إلى المعاصي أبدا، أولم تعزم على الطاعة المطلقة والإخلاص الأعمى، أولم تحصل علي وثيقة ممهورة بخاتم الدولة الرسمي بذلك كله .

ثم أردف ملزما الحجة إياي:

– أولم تؤمن ؟ .

قلت في شرود :

– نعم .

فأخذ يفرك يديه في حبور، و أخذت أحمد الله أنه لا يفهم في اللغة .

لاحقني بعد أن انصرفت عنه قائلا :

– ليتك تزيد من جرعة الجنس و الإثارة وتقلل من جرعات الوصف والتحليل

فإن ضعاف النفوس وحاسديك يدسون عليك أنك تدس بين السطور ما في الصدور.

نظرت إليه في سأم فواصل متفرسا، وربما مهددا :

- أصارحك القول أنني أنا نفسي شككت ذات مقالة أنك تقصدني.

ثم رمقني بنظرة كادت تخترق حشاي.

***

(ط)

كتبت عن وزراء شواذ في البلاط وعن فروج تحكم . لم ينطق رئيس التحرير لكنه راح يفرك يديه في سعادة لم تطل، فقد صدر القرار بتعييني رئيسا للتحرير وبتعيينه نائبا لي، فقلت له في اجتماع مجلس التحرير:

- أكثر أيام الصحيفة رواجا تلك التي لا تكتب فيها .

وطأطأ رأسه في خزي هامسا :

- بتشجيع سيدي سوف أجتاز العقبات لأصبح عند حسن ظنه وحسن ظن مولاي .

و أخذ السفيه يكيد لي، لكنهم في لحظة شبق سلطاني اتخذوا القرار بأن أفوز بالمركز الأول في انتخابات النقابة والنادي. رحت أهدم أسياد الحقير وأقطع جذوره كي يضمر ويتعفن ويسقط، كما رحت أضم لعضوية النقابة والنادي البلطجية والقوادين كي يكونوا عونا لي عند احتدام الوغى، وكيلا يكون ولاؤهم لآخر.

***

(ظ)

قال لي الناشر في جزع :

- اكبح جماحك ..فحتي الكتابة في الجنس لها محاذيرها .. إياك ودعارة السلطة..

فتساءلت دهشا :

- ألم يكن ذلك ما تريد؟.

فازداد جزعه وهو يقول :

- أري الكوارث مقبلة عليك .

فنظرت إليه في رثاء من يدرك أنه لا يدرك شيئا لا عن عمق الكوارث حقا ولا عن قوة من يدافعون عني ..

صمتَ طويلا ثم نطق:

- لي عتاب عليك ..

نظرت مستفهما ومهتما فبيني وبين الرجل ما لا ينسي، فتشجع قائلا:

- في مقالتك التي كنت تتحدث عن العروس التي خانت زوجها في شهر العسل، واستطردت في الحديث عمن يخونون دون أن يكون لديهم أي مبرر للخيانة. . . . أحسست بصورة من الصور أنك تقصدني .

همست لنفسي «يدفعني للدعارة ثم يطالبني بالشرف» ، لكنني اصطنعت الصدق والشرف والحرارة و أنا أهتف:

- لكن الواقعة حقيقية والحادثة قد حدثت فعلا.

ركز عيناه في عيني قائلا:

- لكنني كنت ماثلا في خيالك و أنت تكتب عنها.

انفجرت من تلافيف الذاكرة أيام عذابي حين انغلاقي وتحجري، وشملني الرعب أن أفقد نشواتي ومتعي منذ انفتاحي وتحرري، فالنعمة لا تدوم.

خيل إلي أن جميع الناس يدركون خبيئتي فامتدت يد خرافية أصابعها من جليد

فاخترقت عظام الصدر وراحت تهتصر قلبي وتبث فيه الرعب فاندفعت :

- أقسم لك ...

فقاطعني في أسي :

- لا تقسم، فأنا الآخر مثلك : لا أقسم إلا إذا كنت أكذب .

وولي مغادرا وهو يتمتم :

- ليس المهم أن تقوله بل المهم ألا أكونه .

***

(ع)

مددت يدي إلى حبيبتي فصرختْ في فزع :

- لا أحلّ لك ..

فصرخت فيها :

- كيف ؟ كيف و..

فقاطعتني ببكاء بلا دموع :

- انظرْ في المرآة ..

نظرت .. فإذا بوجه ليس وجهي..

***

(غ)

أحببت ما كنت أكره وكرهت ما كنت أحب وازدريت ما قدست وقدست ما ازدريت، وقلت لحبيبتي ليس العالم ما ترين، فنظرت نحوي بدهشة مستفهمة، فقلت لها لقد خدعونا، والإنسان وحش لا ملاك، فصرخَتْ :

- كل هذا العناء كي تتحول إلى داعر؟..

فقلت لها أن الدعارة هي الشيء الوحيد الصادق والأصيل في هذه البلاد وهي العمل الوحيد الذي يمارسونه بكفاءة ومهارة واحتراف واقتدار.

نظرت إلى بازدراء فأردفت صارخا :

- إنها مهنة الحكام والسادة . . . كل الحكام و السادة.

قالت في يأس :

- يا حيوان يا وحش يا داعر. . .

ولم أكن ساخرا كما ظنت حبيبتي حين رحت أقول :

- ما أبدع الإنسان وما أعظمه !! الملاك ملاك والشيطان شيطان والذئب ذئب والكلب كلب والبقرة بقرة والثور ثور والبغل بغل والحمار حمار والفهد فهد والأسد أسد و الأفعى أفعي و ... و .... و .... ولا أحد منها يستطيع أن يخرج عن طبيعته، أما الإنسان فيستطيع أن يكون ملاكا أو شيطانا أو ذئبا أو كلبا أو بقرة أو ثورا أو بغلا أو حمارا أو فهدا أو أسدا أو أفعي ... أو ... أو يستطيع أن يكون مزيجا منها مع اختلاف النسب.

***

(ف)

قال لي مدير البنك ناصحا بعد أن انفرد بي:

- السادة أمثالك لا يحتفظون بكل ملايينهم هنا . . يمكنني أن أساعدك.

***

(ق)

نثرت الدولارات والينات والشيكلات بين قدمي حبيبتي، صففتها حتي غطت المكان، فمدت حبيبتي يدها وتلت تعويذة سرية فإذا بالنقود صحيفة بيضاء أخذت تتشكل عليها خرائط أوطاننا، واستحال اللون الأخضر إلي لونين أخذا يتبادلان ما

بين الأحمر والأسود حتي ظننت بعيني الظنون، ومدت حبيبتي يدها الأخرى تم تلت تعويذة سحرية فاذا بخرائط الأوطان تتمزق : أكبر مزقة منها بمساحة دولار فصرخَتْ باكية:

- هل رأيت ؟.

قلت :

- لا أري .

***

(ك)

نائبي الحقير وشى للسلطان بي، فأشفع دعوته لي على مائدته العامرة بدعوة لحبيبتي.

حبيبتي..

حبيبتي..

رفضتْ..

تمنعتْ..

حذرتني..

تنبهت للخطر و أنا أقدّم الملاك في وليمة للشيطان..

لا.. بل قبلها..

أستطيع أن أخدع الناس جميعا و أدعى أنني لم أكن أعلم ما سيحدث لكن أنّى لي أن أخدع نفسي..

لن أدّعي أبدا أنني لم أكن أعرف ما يحدث أو أنني لم أكن أتوقع ما سيحدث، حزرت كل شيء، لكن نائبي الحقير لم يفهم مدى حذري ممن يرجي خيره ولا يؤمن

شره، وأنه لا يوجد في الدنيا شيء ليس لـه ثمـن، ولا توجـد تضـحية يمكـن لمثلى أن ينكص عنها. . .

***

(ل)

أخون من ذئب..

قال لمولاي:

- من يبيع حبيبته اليوم يبيعك غدا.

انقلب مولاي عليّ فلم أجن ثمار تضحيتي بحبيبتي.

لم تشرق شمس الوجود اليوم فشفتا مولاي لم تتبسما حين طالعت سحنتي محياه الكريم، وتوقفت موجات الصوت عن السريان في الأثير حين لم يهاتفني اليوم سائلا عن آخر طرفة.

جمد الوجود ولم يعد إلا رجع الصدى لصراخ حبيبتي و هي تستغيث وتصرخ قبل أن تُستشهد:

- ما أفجر الإنسان ما أكفره .

وكنت أتمنى في سريرتي أن تعبر المحنة صامتة فليست الفضائح ما يحدث بل ما يعرف .

***

(م)

تلقاني شيخي ببشر لم أتوقعه فارتبكت فإذا به يقول مبشرا:

- يثاب الإنسان رغم أنفه !!.

عزاني في حبيبتي فأحسن العزاء . ثم طالعني بعين تدمع والأخرى تضحك

قائلا:

- أبشر بالفرج !!.

***

(ن)

يقاطعني الندماء والخلان ... كلما لقيت واحدا منهم يَزْوَرُّ عني غاضبا:

- هل أنا ديوث وداعر ولا كرامة لي وكل شيء يباع بعد تحديد الثمن ؟

فأرد يائسا:

- لم أقل ذلك .

فيتفرس الواحد منهم في وجهي بغضب :

- ألم أكن ماثلا في خيالك و أنت تكتب مقالتك الأخيرة؟

- لا أكتب إلا ما يحدث في الواقع .

- بل تقصدني وتقصد أولياء نعمتك .

- أكتب عن جرائم تحدث فعلا ..

- لكنك تدس فيها سمومك .

- لا أكتب إلا عن جرائم الجنس، لا أكتب حتي عن جرائم السياسة.

- ليس المهم نوع الجريمة، ولكن كيف تتناولها وتفسرها وتدس السم فيها.

- لا أكتب إلا عن الدعار والداعرات . . .

فينصرف عني . . . . .

***

(هـ)

نائبي الخسيس قابلني اليوم بوجهه القديم :

- كبير الحراس يطلبك .

ارتعدت فرائصي وارتعب قلبي وانهد في داخلي شيء فقلت محاولا التماسك من حلق جف :

- لماذا؟؟ .

فأجاب شامتا وساخرا :

- خمس دقائق . . . فنجان من القهوة.

***

(و)

- إلا الملك .. إلا الملك يا صعلوك يا ابن الرعاع .. اكتب عن من شئت وعما شئت لكن إلا الملك ..ألم أقل لك ذلك .

صرخت :

- أقسم .. .. ما فعلت سوى ما أمرتني . . . .

- يا بن المستفرمة عجم الزبيب: مقالاتك المباشرة كانت أهون شأنا، كل هذا عن مولاك وسيدك ؟ .

- أقسم ما كتبت عنه وما قربته.. وكل ما كتبت كان عن سواه .

- بل لم تكتب عن سواه .

***

(ي)

والسياط تنهال على جسدي العاري واجهني وجه حبيبتي تغسله دموع وتهمس :

- إذا ذلّ مولي المرء فهو ذليل .

والرصاص ينطلق نحوي رأيت وجه حبيبتي مشرقا وهي تهمس :

أرأيت كم أنه هين ...ذلك ما كنت عنه تحيد ...

ثم خالط الإشفاق حنان وهي تواصل الهمس :

- تدنس ثوبك فاخلعه . . !!

و أخذت أنظر إليها فإذا بوجهها مرآة و إذا بوجهي وجهي . . . .

وشعرت أنني أخف وأشف فأطير والألم يتلاشى ويتلاشى حتى ينمحي..

فانطلقت أصدح وأغنى .. ...



الحَجّاج [١]

حجاج (١)

قبل اعتقالي، كنت نديما للحجاج، ولم أكف عن محاولة إسداء النصح له، وبعد أن أمَّنا لصلاة الجمعة الأخيرة من رمضان أمر بالطعام والشراب وبجارية من جواري التليفزيون، ودعاني لمشاركته فقلت له :

- دعاني من هو أكرم منك .

قال في اطمئنان الواثق وثقة المطمئن :

- لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة .

قلت له :

- بل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار . . فكيف بك إذا كانت الكبائر بلا استغفار.

قال في غضب وهو يزدرد قطعة من اللحم والجارية تدلكه :

- ألا تعرف لي ميزة واحدة ؟!

قلت بعد تفكير علقمي المذاق مسلِّمًا :

- بلي .. ميزات وليست ميزة واحدة، لكن أعطني الأمان . .

قال :

(١) استدعيت إلى مباحث أمن الدولة بسبب تلك القصة، وحدث صدام بيني وبين الضابط المسئول، فاستعاض عن الإساءة لي بالإساءة لشيخنا الحبيب: «القرضاوي». ودافع الله عن وليه.

- فهاتها ولك الأمان . .

قلت :

- ولّيت علينا السفاحين واللصوص والظلمة فكنت كسواك، لكنك لم تولّ علينا ديوثا ولا لواطيا ولا داعرا ولا قوادا . .

ثم أردفت بعد تردد :

- ثم أنك لم تمالئ الروم ولا بني قريظة . . ولم تزور الانتخابات . . ولم تهدم النقابات . . ولم تذرف الدموع أمام تابوت عدو . . !!.

***

حجاج (٢)

رأيت الحجاج - بعد أن دخل العراق مع قوات التحالف - يخطب في التليفزيون مهددا متوعدا بقطع رؤوس أينعت وحان وقت قطافها، ورأيت الناس من لم يحْنِ الموت جبهته حناها الذل، ولم يعد لعربي كرامة في وطنه ولا لمسلم أمان في بيته، وكانت الكرامة كل الكرامة للغرباء، حتى ضج الناس لكنهم كتموا ضجيجهم خوفا، وتهامسوا أن غارات الصليبيين واليهود أرحم من مداهمات الحجاج، وتساقطت قيم البلاد ولم يعد لبغداد ولا دمشق ولا القاهرة ولا صنعاء قيمة ، فتلمست السبل حتي لقيته، فبادرني :

- والله إن قلت لي اتق الله قطعت رأسك . .

ارتعدت فرائصي لكنني تمالكت نفسي فقلت له :

- إذن فاتق غضبة الناس . .

قال باستهانة :

- كيف أتّقيهم وما من بلد إلا وعليه خصي من خصياني وقد خضعوا له خضوع السائمة .

حجاج (٣)

خطر لي خاطر ففزعت، فهرعت إلي الحجاج أسأله :

- هل تقصف الكعبة بالصواريخ ؟!

أجاب :

- لا، فقد استسلموا دون قتال .

***

حجاج (٤)

قلت للحجاج :

- ألا تخشي ما يكتبه التاريخ عنك ؟!

أجاب :

- لكن التاريخ يكتبه أغواتي ومماليكي وغلماني، وجميع الصحف ووكالات الأنباء طوع بناني . . !!

***

حجاج (٥)

كنت أداري جبروت الحجاج أحيانا فأمدحه بما ليس فيه اتقاء لغضبه، ورجاء في وجه الله أن يكتب له الهداية في كلمة من كلماتي التي كنت أعجب كيف يطيقها رغم دمويته وغباوته، وكنت أهاجمه مرات ومرات وأنافقه مرة، وذات مرة قلت له :

- أعزك الله و أطال لنا في عمرك (وكنت أقصد أذلك الله وقصف عمرك) : تعلم أن الأرواح وديعة عند بارئها يستردها حين يشاء، ولقد نعمنا في عهدك بالأمن والأمان والرخاء والديموقراطية ، لكنك لم تُسمِّ لنا ولي عهدك، و أخشي

أن ينتهي الاستقرار والاستمرار التي تنعم بها الأمة بنهايتك، فاستخلف فينا من تشاء، وانطلقت أنشد قصيدة مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار . . . فاحكم فأنت الواحد القهار

حملق الحجاج فيّ طويلا، واشتعلت عيناه بنيران الغضب، وراح يعب من زجاجة الويسكي ويلتهم السيمون فيميه والكافيار الروسي، وتشاغل بمشاهدة فيلم أجنبي، لكنه انهدّ فجأة، ولاحت في سيماه مخايل الضعف والعجز والخوف، وبدا كما لو أن عقدة في لسانه قد انفكت بالرغم منه، فانطلق قائلا :

- سوف أفصح لك عن سر لن يوجد علي الأرض من يعرفه سواك إن لم تلحق رأسك ذؤابة سيفي، حتي العراف الذي قرأ لي الطالع وأخبرني به لم يستقر رأسه علي عنقه سوي بعض ساعة بعد نطقه بنبوءته .

تحسست عنقي قائلا في وجل :

- لا تقله إذن . .

لكنه واصل كأن لم يسمعني :

- تنبأ العراف أنني سأموت في العام الذي أختار فيه ولي عهدي..!!.. حين يغتالني واحد من حرسي..!![1].

***

حجاج (٦)

اشتهر عن الحجاج فعلة أحسب أن التاريخ سيسجلها عليه، وهو أخذه البريء بذنب غيره، فكان يتخذ الرهائن ويعذبهم حتي يسلّم ذويهم أنفسهم لسيفه، وذات مرة اتخذ شيخا رهينة حتى يسلِّم ابن خالة عم زوجة ابن أخيه نفسَه، وراح رجاله يعذبونه في السجن، فذهبت النساء من آل الشيخ إلي باب قصر الحجاج بعد

(١) النبوءة قيلت فعلاً لحسني مبارك ، وكان ذلك من أسباب رفضه لتعيين نائب له .

أن حشرن أنفسهن في سيارة ميكروباس، وراحت صغري بناته تنشد :

أحجـــاج لم تشـــهد مقـــام بناتـــه — وعماتـــه يندبنـــه الليـــل أجمعـــا
أحجـاج كـــم تقتـــل بـــه إن قتلتـــه — ثمانـــا وعشرا واثنتـــان و أربعـــا
أحجـاج مـــن هـــذا يقـــوم مقامـــه — علينـــا فمهـــلا إن تزدنـــا تضعضـــعا
أحجـــاج إمـــا أن تجـــود بنعمـــة — علينـــا و إمـــا أن تقتّلنـــا معـــا

وسمع الحجاج الضجيج فسأل عن الخبر، فلما أن علم به حتي أمر باتخاذهن رهائن .

***

حجاج (٧)

قلت للحجاج :

- ألا تعمل عملا واحدا لآخرتك ؟!

قال :

- خسرنا الآخرة فلا نطيق أن ينقص حظنا من الدنيا شيئا . . !!

***

حجاج (٨)

عندما تولي الحجاج أعلن أحكام الطوارئ فظلت قائمة طيلة حكمه، ولقد بدأ عهده بخطبة شهيرة أذاعتها جميع وسائل الإعلام، كما تم بثُّها على شبكة الإنترنت، وطفقوا يعيدون تسجيلاتها حتي حفظها القاصي والداني، وكان مما جاء فيها :

والله لأجعلن نهاركم أسود من ليلكم، والله لأذيقنكم الهوان ولأمرِّينكم به حتى تدروا وتذلُّوا، و لأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تنقادوا للنظام العالمي الجديد، والله لأضربنكم ضربا يدع النساء أيامي والولدان يتامى حتى تقلعوا عن الهوى .

و في عهده كان كل مواطن مذنبا حتى تثبت براءته، و لكن لم تكن تثبت براءة أحد قط، حتى عندما كان القاضي يخطئ ويحكم بالبراءة فقد كان يرفض التصديق على الحكم ويأمر بإعادة المحاكمة، وكان هو الحاكم وهو المحكمة، وكان الإعدام هو عقابه المفضل، وطبق عماله قانون الشبهات فكان مما يحسب في صف المتهم أن يثبت أنه لا يقيم الصلاة، أو يرتكب الكبائر، أما البراءة الكاملة مع الاعتذار والتعويض فقد كانت لمن يعتقل علي سبيل الخطأ ثم يثبت بعد الاعتقال أنه مسيحي أو يهودي أو مجوسي أو شاذ أو من عبدة الشيطان، فقد كان مشهورا عنه حبه لأن تصفه الدول الأجنبية بالتسامح، وقد ترتب على سياسته أن أصبح إطلاق اللحية ذنبا لا غفران له، يحرم مقترفه لا من دخول دار الإمارة فقط، بل من كل الأماكن الحكومية، ومن التعيين في المناصب والوظائف، ويظل تحت المراقبة حتى يمكن تلفيق قضية له، أو اعتقاله إذا لم توجد القضية المناسبة، وقد رافقني في السجن قبل أن يقتلني الحجاج شاعر مسكين ذو لحية قصيرة، ضبطوه وهو يقضي حاجته في الخلاء، وكان المفروض أن يدفع غرامة أو تبرعا لمعونة الشتاء لكن حظه العاثر جعلهم يضعونه معنا في السجن بعد أن نسوْا تهمته، و راحوا يجددون أوامر اعتقاله روتينيا كلما انتهت المدة أو حكم القاضي بالإفراج عنه، وكنا نقضي ليل السجن الطويل - إن لم يكن هناك تعذيب - في السمر، فيسأل كل منا الآخر عن تهمته، فكان أحدنا يقول:

- كنت أصلي .

و يقول الآخر :

- كنت أصوم .

ويقول الثالث :

- كنت أحج .

ويقول الرابع :

- كنت أتصدق على من قتل الحجاج عائلهم . .

ويقول الخامس :

- كنت أجاهد في بلاد الأفغان والبلقان . .

ويقول السادس :

- كنت أقرأ القرآن و آمر بالمعروف و أنهي عن المنكر . .

ويقول السابع:

- تظاهرت من أجل مذابح جنين..

ويقول الثامن :

- فاض صبري فلعنت الحاكم الطاغوت في سريرتي..

ويقول التاسع:

- لم أفعل إلا أن حففت شاربي و أطلقت لحيتي . .

أما الرجل ذو اللحية القصيرة الذي حبسوه معنا بالخطأ فكان يقول بعد تردد :

- كنت أقضي حاجتي . . !!

وكان مما ينشده هذا الشاعر المسكين في ليالي السمر :

إذا نحن جاوزنا مدينة ظـالم . . .خَـرَيْـنـا وصلّيْنا بغير حساب.

وكنا لحظات الاستيئاس نطلب منه أن يكون حادينا، و ننشد جميعا خلفه..

***

حجاج (٩)

قلت للحجاج :

- كم بينك وبين آدم ؟!.

قال :

- كثير.

قلت :

- فأين هم ؟!.

صمت !!.

***

حجاج (١٠)

كنت مع زملائي من المعتقلين مصفدي الأيدي والأقدام، وكان الحجاج - قبل أن يتولى جميع أمرنا- مديرا للسجن، وكان مدير السجن الوحيد في العالم الذي حصل على جائزة نوبل مكافأة له على جهوده، فجمعنا بهذه المناسبة كي نستمع إلي خطبة منه ومحاضرة من طائفة من العلماء الأجلاء أذكر منهم الدكتور ناصر أبو زيد، والدكتور رفعت السعيد، والدكتور مأمون الفندى، وخبيرا أجنبيا اسمه فريدمان، وراح الحجاج يخطب فينا، فكان مما قال :

- « ليس فيها مثنوية، لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، والله لو أمرتكم أن تخرجوا من باب فخرجتم من باب آخر لحلت لي دماؤكم وأموالكم، ولو أمرتكم بتزوير الانتخابات فلم تفعلوا لهان علي قتلكم، أما من يطالب منكم بتنفيذ القانون و إعلاء الدستور فدستوري السيف، وأما من يحاجني بالقرآن والسنة فلأجعلنه لخماص الطير طعاما، والله لا أجد أحدا يقرأ علي قراءة ابن أم عبد أو يفسره تفسير أسامة بن لادن إلا قتلته، ولأحكنها من المصحف حتي ولو بضلع خنزير..»

وارتجفت قلوبنا غضبا، لكنه واصل :

- ما عذري من معارض يزعم أن قرآنه من عند الله، والله ما هي إلا رجز من

رجز الأعراب ما أنزلها الله علي نبيه .

وصفق الكتاب الضيوف طويلا بينما أخذ هو يلوّح لنا بكتاب مكتوب من الشمال إلى اليمين، عرفت عليه شارة النظام العالمي الجديد، و أخذ يردد :

- هذا هو كتابكم المقدس ، فرقانكم، ومن لم يؤمن بما فيه فقد أحلّ لي دمه وماله وعرضه .

كنا مصفدين فلم نتحرك . .

كانت ألسنتنا حرة لكن عقلها الخوف . .

وواصل الحجاج القول :

- ثم أن جميع آيات قرآن النظام العالمي الجديد آيات سجدة . .

وساعتها..

أمرنا بالسجود ..

أمرنا بالسجود وبارقة السيوف على رقابنا . .

فسجدنا . .

وغرقنا في عار الخزي . .

لكن الصحف لم تذكر عن ذلك شيئا . . . .

****

حجاج (١١)

قبل أن يغلق الحجاج نصف صحف المعارضة، ويستأنس نصفها الآخر، كتب مقالة صدَّر بها صحيفته - حين كان رئيسا للتحرير - فكان عنوانها:

« رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه، أم خليفته في أهله »

وبرغم أنني توجست من أن أسيء به الظن إن كان فهمي صحيحا، فقد وجدته

يطنب في عجز المقال ما أوجز في صدره، فيدعي أن منزلة الحاكم فوق منزلة الرسول صلي الله عليه وسلم، و أن طاعته أوجب . .

مزقت الصحيفة . . رغم قانون الطوارئ . .

فقدموني إلي المحكمة بتهمة الازدراء .

***

حجاج (١٢)

عندما ضيق رجال الحجاج علي السبل هربت و تخفيت، وعملت في التدريس، فاصطحبت مجموعة من الأطفال في رحلة مدرسية لتدريبهم علي الإرهاب، وعلمت مباحث أمن الحجاج التي لا تخفي عليها خافية بأمرنا و أطبقوا علينا، وكنت قد أعددت للأمر حيلة فاندفعت - لحظة دخولهم - مع الأطفال أنشد :

مذمَّمَـــا عَـصَيْنَا . .

و أمرُه أبينا . .

ودينه قلَيْنَا . . [(١)]

انطلت الحيلة عليهم، وقدموا إلينا الاعتذار والشكر، وتركونا آمنين . .

***

حجاج (١٣)

عشت في عصره أسود العهود . . .

كتمت الأمر في نفسي، وكظمت الغيظ . . .

كأنني كنت أفرج عن نفسي بالبوح لخاصتي . . .

كان قد دس عينا له بيننا . . . فسجل علي - بالصوت والصورة - ما أقول . . .

---

(١) هتاف وقح كان يهود المدينة يرددونه مناوءة وسخرية بأشرف الخلق ﷺ.

و أمر الحجاج باعتقالي و بإحالتي إلي المحاكمة . . .

في السجن، قبل المحاكمة جلدوني بالسياط كل يوم مائة جلدة وأنا منبطح على أرض السجن الرملية اللاهبة في الهجير . .

نعوا عني الماء بعد طعام كانوا يعدونه خصيصا فيشتد بعده عطشي . .

ثم عذبوني بالكهرباء . . .

في المحكمة العسكرية ابتدع بدعة غريبة، إذ كان هو القاضي، وهو المدعي، وهو الدفاع، وهو الشهود . . بل كان هو الذي يكتب ما تنشره الصحف عن المحاكمة، فيدعي عليّ ما لم أقله، فتردده الصحف، وتزيد عليه، فتدينني بها ادّعوْا علي لا بها قلت ، وكنت قد أيقنت بالموت، فغلب يأسي خوفي فصرخت فيه :

- يا فاجر ، يا جبار، يا عدو الله، يا خائن . . .

فضوعف الجلد والعطش . . .

وجاء من يساومني على التوبة مقابل العفو . . فوسوس لي الشيطان أن أتوب . .

لكن عقلي أدركني وقلبي أنقذني، فقد فعلها الحجاج مع السابقين، حين كان يحرص قبل قتلهم على الحصول علي اعتراف منهم على أنفسهم بأنهم كانوا علي الكفر وكان هو المؤمن، وبمجرد اعترافهم كان يقتلهم بإقرارهم، فيخسرون الآخرة والدنيا، وقلت لنفسي أن الله قد خلقني من المرزوئين لا من الرازئين، وأن دنياي آخرتي، ومحياي موتي، فعاودت الصراخ فيه في المحكمة :

- يا عار على الحكام والحكم، يا فاجر يا عدو الله يا خائن . .

ثم أخذت أستحث الحاضرين أن يُعلِم الحاضرون الغائبين بحقيقة أمري، و أن يطلبوا منهم ترديد الدعاء الذي سأتلوه عليهم، و أن يكتبوا نصه ويتبادلونه بالفاكسات والإنترنت، وصرخت فيهم :

- ليس لها من دون الله كاشفة . . .

طلبت من الحاضرين أن يناشدوا المسلمين جميعا أن يقوموا ليلة القدر، وألا يكفوا عن الدعاء - فقد يكون منهم من لا يُردُّ دعاؤه - لملك الملوك، للجبار، الواحد، الأحد، قاهر الجبابرة، وهازم القياصرة، ومهلك الأكاسرة، ومذل الرؤساء والملوك، ومزيل الممالك كأن لم تكن، أن يقصمه، وأن يُلِحُّوا علي الله في الدعاء والرجاء، بألا تهل علي الحجاج ليلة القدر مرة أخري، وبأن يكون هذا العام آخر عام في حكمه، و أن يجعله الله عبرة لمن أُمهل فأَهمل . . واستؤمن فخان.

***

التفتُّ إلي الحجاج قائلا :

- قتلك الله قتلة بكل قتلة قتلتها، فلقد استرعاك الله أمننا فروّعتنا، واستأمنك علي دمائنا فسفكتها، وعلي أعراضنا فهتكتها، وعلي أموالنا فنهبتها، وعلي بلادنا فضيعتها .. و أمرك الله بأن تحارب أعداءنا فتوليتهم.. فأنت منهم..

انتهت المحاكمة، وأمر الحجاج بقتلي فضحكت . .

فاستشاط غضبا . . وقال :

- ما يضحكك ؟!..

قلت له :

- جرأتك على الله وحلمه عليك .



غيلان الدمشقي

غيلان (١)

كنت ذاهبا لصلاة الفجر في مسجد الإمام الحسين فقابلت غيلان الدمشقي خارجا من الأزهر غاضبا فأقسمت عليه أن يصحبني كي يعظ شيوخنا، فقد استمرئوا طعام معاوية ولم يعودوا للصلاة مع علي، فتكدرت ملامحه وتغضن وجهه وقال :

- هذا زمن الهرج ، وشيوخكم ليسوا إلا فقهاء سلاطينكم، وهم إن وُعِظُوا أَنِفُوا و إن وَعَظُوا عَنُفُوا . .

قلت له في ضراعة :

- إدعُ لهم بالهداية فلعل دعوتك تستجاب . .

تفرس في وجهي في ألم وانطلق قائلا :

- لكن الله يضل الظالمين . . الله يضل الظالمين . . الله يضل الظالمين . .

ثم اختفي في ظلام الليل فجلست على الطوار أبكي .

***

غيلان (٢)

عرفت صومعة غيلان فألقيت عندها الترحال بعد أن خاب أملي وخارت قواي ورحت أتحين الفرص للحديث إليه ولمحته فصرخت فيه :

- إنهم أتباع بني أمية .. وها هي ذي سيوف يزيد تقطع رقابنا. حتى الحسين لم

يتركوه لكنهم يحكمون علينا بأننا نحن أتباع بني أمية وبأننا الداعون لعودة حكمهم ويرهبوننا ويتهموننا بالإرهاب .

رد في سأم :

- انظر إلى نفسك : أعبد الله أنت أم عدوه .

قلت :

- والله أنا عبد الله وهم أعداؤه .

قال :

- رُبّ متعبد لله بلسانه معاد له بفعله ذلول في الانسياق إلي عذاب السعير في أمنيته أضغاث أحلام يعبِّرها بالأماني والظنون!!.

صرخت في فزع :

- ألست علي الحق .

قال في وجوم :

- بلي ولكنك - مثلي - مقتول .

***

غيلان (٣)

رأيت غيلان يتجول في المدينة فتبعته فدار حول قصر عابدين وقصر العرب ومجلس الشيوخ ثم شد الرحال إلي طرة والقناطر والواحات و أنا أغذ السير خلفه حتي بلغ مني الجهد كل مبلغ فهتفت به :

- تعبت يا سيدي . . تعبت . .

نظر نحوي بدهشة غاضبة وتمتم :

- لكنك لا ترى .

هتفت في لوعة :

- ادع لي كي أرى ما ترى . .

قال:

- هل تستطيع معي صبرا؟.

أومأت بالإيجاب يسحقني عذاب..

فتمتم بدعاء فإذا بي أرى الحقيقة فالسماء سوداء. والسحب تمطر ترابا أحمر. و أخذ غيلان يرفع الأحجار في أرجاء المكان فما من حجر إلا وجدنا تحته دما وتلفت حولي في فزع فإذا بالجدران ملطخة بالدم فرفعت يدي أناشده و أتوسل إليه:

- ادع لي ألا أرى !!. .

وإذا بيدي ولساني تقطر دما . . !!.

***

غيلان (٤)

قلت لغيلان :

- ما يصبّرني على ماصرنا إليه من فساد في الأرض وسفك في الدم وخراب في الذمم وظلم أولي الأمر إلا أنه لا يحدث إلا بمشيئته وقدره لكن حكمته تخفي على مثلي .

رد في غضب :

- هل تزعم أن الله يحب أن يُعصى ؟!..

قلت في ضراعة :

- كلا بأبي أنت و أمي : لكن هل ترى أنه يُعصي قسرا ؟!

قال في ألم :

- هل تنسب الجور إلي الله؟. هل يحاسب الله الناس علي فعله هو؟. وهل سيدفع بهم إلي ما نهاهم عنه؟ وهل يكلفهم بما لا طاقة لهم به؟ هل وجدت حكيما يعيب ما صنع؟! أو يصنع ما يعيب؟! أو يعذب علي ما قضي؟!أو يقضي علي ما يعذب عليه؟! أم وجدت رشيدا يدعو إلى الهدي ثم يضل عنه؟!.. أم هل وجدت رحيما يكلف العباد فوق الطاقة ؟!. ويعذبهم علي الطاعة ؟!.أم هل وجدت عدلا يحمل الناس علي الظلم والتظالم؟!. وهل وجدت صادقا يحمل الناس علي الكذب والتكاذب بينهم؟!

صرخت :

- إذن كيف يفعلون ما يفعلون ؟..

قال :

- كفي ببيان هذا بيانا وبالعمى عنه عمى!!..

***

غيلان (٥)

نصبوني حاكما للبلاد . . . باستفتاء زوّرًا الأصوات فيه . . . فقطنت أعلي ربوة من روابيها . . . وجاءني غيلان يعظني ويحمل الحمل الثقيل معي فقال لي: انبش تحت الربوة فوجدت كوما من الجماجم والذهب المنهوب ووثائق الخيانة المدفونة وراح يكشف لي عن كل قبيح ويعرض علي كل مظلمة حتي برهن لي أن العفن قد تسلل إلي كل شيء حتي طالني و أنني محاصر بحاشية السوء أحسب أنني أحكم بينما هم الذين يحكمون. وفكرت في الأمر طويلا واستبدت بي الحيرة حتى وصلت إلي يقين ؛ فأمددته بالمال والرجال والعتاد ورجوته أن يحارب جيشي ، وأن يهدم حكمي.

غيلان (٦)

رأيت غيلان وقد تسلل إلى لقاء الرئيس بالمثقفين في معرض الكتاب وأخذ مكبر الصوت عنوة وراح يصيح :

- اعلم أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا ورسما عافيا، وربما نجت الأمة بالرئيس وربما هلكت بالرئيس ، فانظر أي الرئيسين أنت ، فإن الله تعالي يقول : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فهذا إمام هدي ومن اتبعه . . ويقول : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

رأيت الحرس ينقض عليه ويسوقونه إلي حيث لا أعلم . .

ولم تنشر الصحف عن ذلك شيئا . .

***

غيلان (٧)

قال غيلان لي :

- ليس لعين تري الله يُعصي أن تطرف حتي تغير أو تنتقل !.

قلت له :

- فبم نواجه الشر ؟

قال :

- بالسيف . .

***

غيلان (٨)

قلت لغيلان :

- هل بعد هذا الشر خير ؟!

قال :

- نعم .

قلت :

- فهل بعد ذلك الخير شر ؟

قال: نعم . .

قلت له :

- فادع الله أن يمد في أعمارنا حتى نرى بشائر غرسنا . .

قال :

- ما رأيت عاقلا يطالب بتأخير نضوج محصوله ونوال أجره !!.

ثم واصل القول :

- بعد عام نموت وبعد ألف عام سوف نموت . . . فالآن .

***

غيلان (٩)

رأيتني نائبا للظالم الجبار الغبي المتكبر فلما قتلوه صار إليّ الحكم من بعده فوليت غيلان ديوان المظالم فجمع كل ثروة حرام ولم يترك للجبار الهالك ولا لبنيه شيئا ولا ترك وزيرا ولا مديرا ولا حتى حلي امرأتي، وراح يقف كل يوم أمام كاميرات التليفزيون ينادي علي ما صادره :

- تعالوا إلي متاع الخونة . . تعالوا إلي متاع الظلمة . . تعالوا إلي من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته . . من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدي، وهذا متاعهم والناس يموتون من الجوع . . ؟! .

جاءني كبير مباحث أمن الوطن يقول لي أن غيلان يشعل الثورة ويشجع علي

الإرهاب ، و أنه يخشي علي العواقب فقلت له :

- كل يوم أتقيه و أخافه دون يوم القيامة لا وُقِيتُه !!.

***

غيلان (١٠)

جلست أمام صومعة غيلان في انتظار أن تهل علي طلعته أو يشنف أذني صوته فأخذتني سنة نوم ، فرأيتني أمتطي بساطا سحريا يعبر بي الزمن إلى أزمان أنكرتها حتي حطّ بي أمام صومعة كصومعة غيلان ، وجدت فيها خالد الإسلامبولي وأسامة بن لادن فهتفت به والدموع تتقاطر من عيني :

- رأينا من المظالم ما لا قبل لبشر به فلا تبايعا أحدا منهم.. !!

فردا بنفس مطمئنة :

- ما هؤلاء ولا أولئك سوي بثور قيح علي جسد الزمن ولقد خلعنا بيعتهم جميعا ، ثم أن العصور عصور الناس لا عصور الولاة الطغاة .

سألت ملهوفا :

- فمن بايعتما إذن ؟

قالا في نشوة من يعلما أن الاستشهاد مآلهما :

- بايعنا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

***

غيلان (١١)

صحوت من نومي فإذا الشرط يحيطون بداري، ويسألون عن غيلان فأنكرت معرفتي به ، فواجهوني بتسجيلات بالصوت والصورة ، وعذبوني فأرشدتهم إلي صومعته ، واستفتوا الشيخ الكبير فأفتي بأنه إرهابي و بأن قتله أفضل من قتل ألفين

من الصهاينة، وجاء القاضي فصدق على الحكم فصرخت فيه :

- احكم بما تعلم - أعزك الله - لا بما يقولونه لك و أنت تعلم أنه قول الزور وتخرص الكذب .

أمر بإحالتي إلي المحاكمة ببنود القانون فصرخت :

- حاكموني واحبسوني واقتلوني لكن دعوا غيلان يرد المظالم .

قالوا :

- بل تقرر صلبك مع غيلان و أعوانه .

سألتهم :

- ألم يبطل النظام العالمي الجديد الصلب .

قالوا :

- لكننا تحت حكم الطوارئ، ثم أن النظام العالمي الجديد يحض على صلب الإرهابيين مثلك .

صرخت فيهم :

- والله إنكم أنتم الإرهابيون ، وأنتم القتلة . .

فأتوا بنا فصلبونا وغيلان يدعو الله عليهم . .

صرخت فيه :

- لماذا لا يستجيب الله لك . . ؟!.

قال لي في رثاء :

- يا أعشى القلب . . بذلك يستجيب !!.

وقال له الشيخ الكبير :

- أرأيت ما فعل الله بكم .

أجاب غيلان :

- لعن الله من فعل بنا ذلك .

أمروا بتقطيع أيدينا و أرجلنا من خلاف، و أجهدنا العطش والألم، وطلب أحدنا شربة ماء، فرفضوا وقال الشيخ الكبير :

- لا نسقيكم حتى تشربوا من الزقوم في جهنم .

التفت إلينا غيلان من علي صليبه وقال :

- يزعم هؤلاء أنهم لن يسقونا حتى نشرب من الزقوم كذبوا . . إن الذي نحن فيه لبشير بالجنة فاصبروا على ما أنتم فيه .

صبرنا، ورحنا نموت الواحد بعد الآخر، فيستدير غيلان من فوق الصليب فيصلي علي من يموت .

والتفت إلى من حضر من الناس و أخذ يقول :

- قاتلكم الله، وقاتل حكامكم فكم من حق أماتوه ؟! وكم من باطل قد أحيوه ؟! وكم من ذليل في دين الله أعزوه؟! وكم من عزيز في دين الله أذلوه؟!.

وراح غيلان يفضح خيانة الحكام ومباذل الحاشية ونهب الثروات وضياع الحقوق والاستسلام للعدو وضياع الدين وانهيار القيم وتفاصيل البنود السرية في الاتفاقيات المخزية والاستسلام لضغوط صندوق النقد الدولي، و أخذ يسترجع عِبَرَ التاريخ. وخشي رجال الحاشية أن تنقل وكالات الأنباء ما يقوله .. وأن تنقل الصحف عنه، فهرولوا إلى سيدهم وقالوا له :

- لقد قطعت يدي غيلان ورجليه و أطلقت لسانه .

فأمرهم بقطع لسانه، فقطعوه ، فظل ينزف حتى ارتفعت روحه إلى بارئها فالتفت من على صليبي، وصليت عليه .

***

غيلان (١٢)

وأنا علي الصليب اجتاحتني من العذاب الهلاوس، فخيل إلي أنني قابلت الملك صدفة بعد أن أفرج عني فسألته :

- أخبرني عن رجل له خصم ألدّ ، ما حاله ؟.

قال :

- سيئ الحال .

قلت :

- فإن كانا خصمين ألدّين .

قال :

- فهو أسوأ حالا .

قلت :

- فإن كانوا ثلاثة .

قال :

- ذاك حيث لا يهنئه عيش .

قلت :

- فوالله يا جلالة الملك ما من أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك .



الوزير (سنة ١ ق ٠ ف ٠) (*)

في ذلك الزمن الغابر، السحيق الساحق، الذي تفصلنا عنه هوة سحيقة من الألم والشقاء والمهانة، كنت وزيرا في بلاط الملك ، ففوجئنا برئيس الوزراء يدخل علينا هلوعا يهمس في صراخ أو يصرخ في همس :

- لقد استبد الغضب بالملك..

غرقنا في رعب هواجس الإقالة والفضيحة والحرمان من كل نشوات السلطة الحلال والحرام، وواصل رئيس الوزراء همسه الصارخ وصراخه الهامس :

- كل أسرار المملكة مسجلة عند الأعداء، كل أسرار المملكة.

رحنا نتبادل النظرات الزائغة في روع وقد هدتنا مصيبة فادحة لم نعرف بعد كنهها وتفاصيلها وأخذنا نهدئ من انفعاله كي نفهم منه ما حدث، لكن داعيا جاء يستدعينا إلي الاجتماع الذي يرأسه الملك بنفسه .

عند مدخل قاعة الاجتماع فوجئنا برئيس المخابرات بشحمه ولحمه يقف عند بوابة الإلكترونية، طلب منا أن نمر من خلالها فامتلأنا بإحساس غامر من المذلة والمهانة، وأنذرتنا الشواهد بسوء المصائر.

نظر الملك إلينا ساخرا -والعجيب أن شبح ابتسامة كان يلوح علي محياه الكريم - وهو يقول:

- كل أسرار المملكة مسجلة عند الأعداء، كل أسرار المملكة..

راح يسرد علينا كيف أن كل خططنا لمقاومة خطط الأعداء قد ذهبت أدراج الرياح عندما جلس يتفاوض معهم، فإذا بهم يعرفون كل شيء، كل شيء، فحاول أن يقاوم وأن ينكر، لكنهم أتوا له بتسجيلات كاملة لاجتماعاتنا، سُمع فيها حتي

وجيب قلوبنا. أشار الملك إشارة خفيفة فأحضروا جهازا للتسجيل أداروه فإذا به أحد تلك التسجيلات، وقال الملك :

- علي سبيل النكاية والزراية أعطوني نسخة من تسجيلاتهم.

أسقط في أيدينا.

قال رئيس المخابرات أنه سيبحث الأمر، سيتقصاه، سيستجوب البشر والحجر والشجر، وسيتنصت حتي علي دبيب النمل، حتي يصل إلي حقيقته.

خرجنا من الاجتماع نرتجف وقد بلغت أرواحنا الحلقوم.

في الأيام التالية، تم استبعاد المعاونين والخدم، بعد تقص مستفيض قال رئيس المخابرات أنه لم تكن لديه شبهة حقيقية فيهم لكنه درءًا للذرائع لم يترك ثمة شبهة إلا بحثها.

تم فحص المكان بأدق الأجهزة، واستبعدت احتمالات التسجيل عن طريق تسليط حزمات من أشعة الليزر، فقد كان المكان محصنا ضدها، كما تم استبعاد احتمال التسجيل عن طريق الأقمار الصناعية التي كان جهاز مخابراتنا العظيم قد نجح في الشوشرة عليها.

جمعنا رئيس الوزراء ليقول لنا أنه عاجز عن مواجهة الملك بعد أن فشلت جميع محاولاته في اكتشاف الثغرة الخائنة التي تتسرب منها أسرارنا إلي الأعداء، و أنه علينا إما أن نساعده في البحث عن سبب للمصيبة و إما أن نقدم استقالاتنا، لأنه لم يعد سوانا محل اشتباه. قلت لرئيس الوزراء غاضبا:

- إذا لم يكن الوزير محل ثقة فإن أحدا لن يقبل المنصب بعد ذلك.. فأجاب رئيس المخابرات في أسي :

- علي العكس تماما ...

غطي ضجيج الوزراء علي محاولات الاحتجاج وراح كل منا يدلي بدلوه.

في اليوم التالي جمعنا رئيس الوزراء علي عجل وفوجئنا باضطرابه وتلعثمه حتي فوجئنا بدخول الملك مجتاحا كإعصار مشتعلا كبركان هادرا كطوفان فصرخ بنا بصوت الرعد:

- من منكم الخائن ؟.

ثم أمر بجهاز تسجيل وأمر بوضع شريط فيه فإذا بكل ما دار في الاجتماع الأخير مسجل عليه، وقال رئيس المخابرات أن خطابا مرفقا مع شريط التسجيل هدد بأن وقائع اجتماعاتنا يمكن أن تذاع حية علي شبكات الإنترنت ، في بث مباشر، بل وأنذر الخطاب بأنهم قد يبدءون من اجتماع تالٍ في بث أصواتنا بعد معالجتها كي تُسمع أصواتنا دون أن تُفهم ألفاظنا، وأنهم لن يعلنوا عن ذلك، لن يفضحونا، لكننا نعلم وهم يعلمون، وعند اللزوم سيكشفون كل شيء!!..

ملأنا الرعب وشلنا الخوف و أغرقنا الذهول، وقال رئيس المخابرات :

- الخائن إما واحد منا أو قريب جدا إلينا ..

انطلقنا يجللنا العار وتخيم فوق رؤوسنا حيرة.

أخذ رئيس الوزراء يجرب كل حيلة كي يكشف الخائن الأثيم .. فمرة يدعونا إلي مكان غير متوقع لاجتماع مفاجئ، ومرات تقتصر الدعوات علي البعض دون البعض الآخر، لكننا في كل مرة كنا نفاجأ بعد يوم أو يومين، بشريط تسجيل لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، فحصوا أحذيتنا وملابسنا وعويناتنا وأقلامنا وحقائبنا، وامتد الفحص -بعد إذننا- إلي سياراتنا ومكاتبنا، وحتي إلي منازلنا .

قال وزير البحث العلمي أن وسائل المخابرات قد تقدمت إلي الحد الذي يستطيعون فيه زرع جهاز إرسال لا تراه عين في إطار نظارة أو في حلية علي مثبت رباط عنق أو في أزرار سترة أو حتي في ضرس محشو.

خضعنا جميعا لفحص طبي مكثف ..

قال رئيس المخابرات وقد أوشك علي الانهيار :

- إذا استمر الوضع علي هذا الحال فليس ثمة مناص من اختيار من اختيارين ليس لهما ثالث : فإما أن نتخلى جميعا عن الحكم ، وإما أن نتفق مع الأعداء علي أن نسلم لهم بكل ما يريدون، كل ما يريدون دون قيد أو شرط ..

واجهته غاضبا بقولي :

- ذلك واجبك أنت وحدك فلا تتنصل..

قال وكاهله ينوء بهمه :

- أنا شخصيا سأقدم استقالتي إذا لم أكشف سر الخيانة خلال أيام..

تعالت همهماتنا لا يبين منها موافقة أو اعتراض ..

انطلقنا، كل منا في اتجاه، وعلت نبرتنا في الخطابة بين الناس وفي الإدلاء بالتصريحات النارية الملتهبة التي ندين فيها العدو الزنيم ونقسم أننا سنواجهه في كل شبر وسنهزمه، لكننا في نفس الوقت توقفنا عن اتخاذ أي قرارات حقيقية ضده انفصمت نفوسنا بين عداء العلن وخنوع السر، وأصبح الهم الشاغل لكل وزير أن يراجع خطط وزارته لينقيها مما يمكن أن يستفز العدو، انفرط عقدنا وتشتت جمعنا وأخذ كل منا يحارب معركته الخاصة محاولا أن يترك عند الأعداء يدا يذكرونها له عندما يشاءون تفجير الفضيحة، لم يكن أحدنا يقول للآخر ما يفعل ولماذا يفعله، لكننا كنا جميعا نفهم، وكان كل واحد منا يبحث خلف قرارات أي زميل في الوزارة عن السبب الحقيقي، الذي لا يعلمه الناس ونعلمه نحن.

ترامت إلينا الأخبار أن رئيس المخابرات راح يستدعي بعضنا، ولم تتسرب مما حدث بين المستدعين ورئيس المخابرات نأمة، انتشرت بذور الشك بيننا، ولم تعد عين وزير تلتقي بعين وزير، ورحنا نفسر كل تصريح وكل قرار في ضوء وضعنا الجديد، ورحنا بعد كل استدعاء نتوقع إقالة، لكن الاستدعاءات راحت تتوالي ولا

جديد ..

توقفنا في اجتماعات مجلس الوزراء عن بحث أي موضوع آخر.. قال وزير السلام أنه لا مناص من الحرب، فرد عليه وزير الحرب أننا لا نستطيع أن نحارب بعد أن تشتت جمعنا وأُهدِرت قوانا، ورحنا نتداول في الأمر، وانضم نصفنا إلي وزير السلام ونصفنا الآخر إلي وزير الحرب. تعالت أصواتنا فقال الساعون إلي السلام أن للحرب ويلاتها و أننا غير مستعدين لها، وأننا سنضيع الأمة إذا خضناها، و أن هذا كان سبب قرارنا الاستراتيجي بأن تكون حربنا الأخيرة آخر الحروب، ورد دعاة الحرب بأننا نخون الأمة الآن ونضيعها فعلا، بعد أن أصابنا الشلل وأصبحنا عاجزين عن اتخاذ أي قرار، وأن خوفنا من استفزاز الأعداء قد دفعنا إلي النكوص حتي علي ما يحتمل ألا يستفزهم، وأن ذلك كله يدفع بالأمة إلي وضع رهيب، تتحلل فيه وتنهار، وصرخ واحد منا في تشنج أنه إن كان علينا أن نموت علي كل حال فمن الأشرف لنا أن نموت في الحرب بالصواريخ والمواد الكيماوية وأسلحة الدمار الشامل، فذلك أشرف من أن نتعفن ونتحلل حتي الموت ونحن ساكنون ساكتون!!..

عند ذلك حدث شيء غريب رهيب، فقد اندفع أحد كبار رجال الأمن إلي قاعة الاجتماع دون استئذان ليقول لنا أن أجهزة الرصد والمتابعة قد التقطت أصواتنا علي شبكة الإنترنت وإن كان رجاله لم يستطيعوا تمييز ما نقول ..

انفض الاجتماع علي الفور دون كلمة، دون تعليق، ودون إكمال للنقاش عن السلام والحرب..

واصل رئيس المخابرات استدعاءاته لنا واحدا فواحدا..

كنت آخر من استدعاه.

كنت غارقا في التوتر فمجرد الاستدعاء دليل علي الاحتمال، والاحتمال مهانة، لم

أستجب لملاطفاته وهو يرحب بي ويسألني عن الأحوال والصحة والأولاد، أعرف أساليب هؤلاء الناس مع المتهمين العاديين لكنني لم أعرف أبدا كيف يمكنهم التعامل مع وزير، على التزام أقصي درجات الحرص إذن فأقل هفوة يمكن أن تضيعني، وما أحوج الملك الآن إلي كبش فداء، واجهت رقته المصطنعة بخشونة :

- فلندخل في الموضوع مباشرة.

فإذا به يواصل السؤال عن الصحة، فانفجرت غاضبا:

- لا شأن لك بصحتي فالموت أهون عندي من هذا الموقف أمامك.

لكنه قال في أسي :

- لكن الأمر في النهاية يتعلق بصحتك ..!!

نظرت إليه مشدوها فواصل :

- منذ أعوام كنت في الولايات المتحدة الأمريكية وأجريت بعض الفحوصات الطبية هناك..

قاطعته قائلا في خشونة :

- تفاصيل هذا الفحص موجودة في ملفي الطبي لديكم ..

لكنه قال في تؤدة :

- لقد أخفيت عنا عملية صغيرة أجريتها في عيادة طبيب الذكورة الشهير..

شلني الرعب وأخرسني الخجل.

واصل هو قائلا :

- كنت تعاني بعض المشاكل .. زرع الطبيب لك عضوا صناعيا للذكورة..

انفجر الصمت حتي غطي دويه علي كل صوت آخر ..

أحسست صفيرا في أذني وغشاوة أمام عيني . .

قلت لنفسي أن للأذن البشرية مجالا لترددات الصوت لا تسمع فوقه أو دونه ومهما ارتفع ذلك الصوت فلا يمكن للأذن أن تسمعه مادامت تردداته خارج نطاق استقبالها، وأنني ولا شك قد أطلقت صرخة هائلة انصدع لها قلبي، لكنها صرخة لم تسمعها أُذن، لا تسمعها أذن، لن تسمعها أُذن..

قلت لنفسي أيضا أن للجلد البشري قدرة علي تمييز الحرارة في مدي محدود، تستطيع مثلا أن تقول أن هذا الشيء دافئ وأن الآخر ساخن أما الثالث فهو ساخن جدا، لكن، إذا ارتفعت الحرارة إلي ألف درجة، إلي مليون درجة، إلي مليار درجة، إذا ارتفعت إلي ذلك، أو إلي شيء منه، فإن الجلد يصبح أعمي، لأن لحظة الإدراك نفسها هي لحظة التلاشي..

هل كان رئيس المخابرات هو الذي يتكلم وهل كنت أنا الذي أسمع ؟.

هل واصل الكلام مباشرة أم صمت مليون عام ثم استأنف حديثه ؟.

هل كان هو الذي يقول :

- كانت مخابرات الأعداء تراقبك ونجحوا بطريقة معقدة واتفاقيات متشابكة في زرع جهاز إرسال لا يري في العضو الذي زرعوه لك ..

خيم صمت مروع وتخايلت لعيني مشاهد الفضيحة والخراب .. ليست مجرد الإقالة ما تنتظرني، بل المحاكمة والفضيحة والخراب.. وانطلق الصوت داخلي يصرخ:

- خسرت كل شيء . خسر ت كل شيء.

هل قال ذلك ؟.

هل كنت أنا الذي قلت له منذ قليل أن مجرد استدعائي أشد من الموت؟.

الآن إذن، ماذا يمكن أن أقول؟ .

أطرقت طويلا وأنا لا أجرؤ علي مواجهته أو النظر إلي عينيه .. تساءلت أخيرا

بصوت مهزوم :

- هل تلقي القبض علي الآن .

فوجئت به ينفجر ضاحكا، ثم يقول ببطيء مرّ :

- هل تذكر احتجاجك علي مراقبة الوزراء، حين قلت لك أن الأمر علي العكس تماما..

ثم راح يتمتم كأنما يحدث نفسه :

- ما يحرك الوزير في عمله ليس المثل الأعلى بل خوف الإقالة، وهو لا يثبت علي مقعده إلا إذا اهتزت فرائصه، ولا يستمر استقراره إلا باستمرار اهتزازه..

اعتصر قلبي تحت وطأة ضحكاته الصاخبة، وقلت لنفسي : عليك من الآن أن تحتمل كل إساءة، وأن تبتلع كل إهانة، وأن تصمت علي كل سخرية، لكنه واصل قائلا :

- شر البلية ما يضحك !.

قلت و أنا من الانسحاق في غاية :

- الموقف صعب فلا تطله علي .

واصل هو القول :

- ليت القبض عليك يحل المشكلة!!..

نظرت إليه وقد استبدت بي الدهشة بعد العذاب، فإذا به يقول :

- ربما تعلم أو لا تعلم أنك آخر وزير أقابله .

تطلعت إليه في يأس فقال :

- ما من وزير منهم إلا وهو مثلك !!.

لم أفهم في البداية ما يعنيه، كنت أغرق فلم آبه لغرق من بجواري..

رأي هو ملامح عدم الفهم تلوح علي فأكد قوله :

- ما من وزير منهم إلا وهو مثلك !!..

هتفت به :

- ماذا تعني؟..

أجاب :

- أعني ما أقول، كلهم، كل واحد منهم كان عاجزا مثلك، وكل واحد منهم عاني ما عانيته أنت، . وفي رحلة إلي أمريكا أو فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا أو حتي إسرائيل، ذهبوا إلي مراكز مختلفة للذكورة و أجريت لهم نفس عملية الزرع. وكلهم، واحدا واحدا، يحملون داخل عضوهم المزروع جهازا دقيقا للإرسال لا تراه عين !!.

عربد الشيطان داخلي، وكدت أنفجر أنا الآخر ضاحكا، لكن ملامحه المتجهمة كبحت جماحي، وانطلق هو يكاد يصرخ :

- ما من وزير إلا وهو مثلك !!.. وليت الأمر اقتصر علي ذلك، فما من وزير سابق إلا وهو مثلك، وما من مرشح للوزارة إلا وهو مثلك، الجميع، لم يتركوا أحدا، من كان وزيرا وكل من يمكن أن يكون..

رحت أنظر إليه مشدوها، وقد حدث لعقلي مثلما يمكن أن يحدث لجلدي لو تعرض لحريق تعدت درجته مليون درجة .

انفجر رئيس المخابرات كشحنة طال كبتها، أو كقنبلة نزعت عنها ذراع الأمان فارتطمت فانفجرت، كرصاصة انطلقت فلا يمكنك مهما بذلت أن تعيدها بعد انطلاقها، مهما بذلت، انفجر وانطلق حتي خيل إلي أنه لا أنا ولا هو ولا الملك نفسه ولا حتي أي قوة في الدنيا بقادرة علي إيقافه عن الكلام :

- إنني لم أكف عن التفكير في الأمر لحظة، لا أفكر في شيء آخر تقريبا، أكاد أُجن، ليس الأمر أمر وظيفتي، ولا عبء مسئوليتي، ولا حتي ما يمكن أن يحل بي

من عقاب أو من مهانة، الأمر أبعد من هذا بكثير، لا أستطيع أن أشرحه لك، لأنني حتي لا أستطيع أن أشرحه لنفسي، ما لدي ليس سوي تساؤلات بلا أجوبة، كشريان ينزف بلا توقف، إن صفاء عقلي يغيم، وسرعة بديهتي تتحول إلي حيوان بائس يسير بسرعة السلحفاة في زمن نبحث فيه عما هو أسرع من الضوء، وعندما يعجز العقل فلابد أن تلجأ إلي وسائل أخري، الوعي ليس سيارة تتوقف عندما تفرغ شحنة بطاريتها..لا.. لا تتوقف السيارة عن الدوران وانتهي الأمر، سيارة الوعي لا تتوقف أبدا، أبدا، وهي إن لم تسر بالعقل والمنطق فلابد أن تسير بغيرهما، بالحدس، أو يقين القلب، أو الخرافة، لكننا قتلنا الحدس داخلنا، وليس الحدس سوي بوصلة الروح وموجه النفس وعين القلب، قتلناها في صراعاتنا اليومية بقصر نظر منقطع النظير، بعماء ليس له حد، قتلنا أنفسنا ونحن نظن أننا نحييها، ننقذها، بل وبلغت بنا الغشاوة أن ظننا أننا بذلك ننتصر، يا له من انتصار بائس، لقد كنا كالسكران الذي ينظر في المرآة فيري صورته فيظنها عدوا فيطلق عليها الرصاص، حتي هذا السكران أفضل حظا منا، فكل خسائره لوح زجاج يتهشم، أما نحن فقد كنا نطلق الرصاص علي أنفسنا، وكلما كانت الإصابة أدق كنا نطلق صرخات الانتصار الوحشية ، دون أن نعي إلي أن دمنا هو الذي ينزف. .

بدا أن الرجل قد فقد عقله، وأخذت أنظر إليه في ذهول، فإنه ليس مجرد رجل، إنه رئيس المخابرات، وإذا فقد عقله فقد فقدت الأمة كلها عقلها الذي به تفهم ، وسمعها، وبصرها، ثم : ماذا يريد أن يقول؟.. وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟.

واصل الرجل حديثه :

-إنني لم أكتشف الأمر الآن، ولم أكتشفه باستجواب الوزراء، كما لم أكتشفه دفعة واحدة، لم يحدث ذلك، بل وُلِدَ في عقلي كما يولد الجنين، كما تعلق العلقة بالأحشاء، دون شعور أو وعي من الأم بذلك، ثم تبدأ الشكوك والإرهاصات، ثم

ينفجر اليقين، لقد كنت أعلم منذ زمان طويل بأمر استغلالهم للأجهزة التعويضية بعد استغلالهم للتليفون المحمول وأجهزة الكمبيوتر والأجهزة الإلكترونية الأخرى كي تعمل كأجهزة إرسال تفشي كل أسرار مستخدميها، كنت أدرك الأمر من بدايته، لكنني كنت أظنه عمل مخابرات لا يستعمل إلا في أضيق نطاق، مع مسئول كبير هنا أو هناك، مسئول واحد، اثنين، ثلاثة علي الأكثر، علي الأقل كي يقللوا من فرصة اكتشاف سرِّهم وتدبيرهم، ولقد فطنت منذ البداية أن الأمر معكم هكذا، قلت لنفسي أن المشكلة تنبع من واحد أو اثنين منكم، وفي اليوم الأول عندما جعلتكم جميعا تمرون من خلال البوابة الإليكترونية كنت أتوقع أن أكتشف المصدر لينتهي الأمر، لكن الذهول أصابني عندما اكتشفت أن الإشارات تنبعث منكم جميعا، لم أصدق الجهاز، ولم أصدق نفسي، فسّرت الأمر بخلل في الجهاز، أو بأن الأعداء يبثون شوشرة معينة تجعل الجهاز يعطي إشارات إيجابية مع الجميع كي يشك كل واحد منا في أخيه، لذلك - بعد نهاية الاجتماع - أوكلت الأمر إلي أحد مساعدي، وكانت النتيجة مذهلة، كارثة، فكل من عرضناهم علي الجهاز، لا من الوزراء فقط، بل كل المسئولين الكبار، عندما جعلناهم يمرون دون أن يشعروا من خلال البوابة الإلكترونية، أعطوا نتائج إيجابية لوجود جهاز إرسال داخل أجسادهم، وكدنا نبلغ حد اليقين من خلل البوابة الإلكترونية، لكن ضابطا صغيرا في إدارة المخابرات اقترح اقتراحا وصمناه جميعا عندما سمعناه بالبلاهة والسفه، لكنه أصر علي موقفه فأحضر كيفما اتفق أناسا عاديون من الشارع، وكان المذهل أن النتيجة معهم جميعا كانت سلبية، ولم يطلق الجهاز أي إشارات، برح الخفاء إذن، وانطلقنا محمومين نمسك بالخيط، لم أكن أستطيع أن أطلب لقاء الملك لأقول له ما اكتشفته ببساطة، كان يجب أن أعد تقريرا وافيا شاملا، وأن أشفعه أيضا بقائمة مقترحة بالوزراء الجدد، تعلم أننا في المخابرات دائما نجهز قائمة بديلة للوزراء

الحـاليين، حيـث نضـع خمسـة أشـخاص يصـلحون لكـل وزارة، ونكتـب كـل شيء عنهم، نرصد عنهم كل ما حدث لهـم منـذ أن وُلِـدوا، نكتـب حتي عمـرهم المتوقـع وأمراضهم وكيف ومتي يُحتمل أن يموتوا، ولقد كان عليّ قبل أن أطلب لقـاء الملـك أن أراجع قوائمي، أن أصطنع محـاولات لا عـدد لهـا ولا حصر كـي ألتقـي بهـم و أن أجعلهم يمرون من خلال البوابة الإلكترونية، وكانت الفاجعة، فجميعهم يرسـلون إشارات، وازدادت الحمي، فاصطفيت من أثق بهم في جهاز المخـابرات، واسـتعنت بـبعض أسـاتذة الجامعـة وأعضـاء الحـزب وبعـض كبـار المفكـرين والصـحفيين ليساعدونا في تكوين قوائم بديلة لتشكيل وزارة جديدة، أطلقنا علي هذه المجموعة اسم :«أهل الثقة »، وأخذنا المواثيق عليهم ألا يتطلع أحد مـنهم إلي منصـب وزيـر، صـارحناهم بالكارثـة، وطلبنـا مـنهم العـون لاختيـار وزارة لا يصـدر مـن وزرائهـا إشارات يلتقطها العدو ليسيطر بها علينا، كدت أجـن عنـدما كوّنـا عشرات القـوائم مـن مئـات الأشـخاص، وعنـد فحـص هـؤلاء الأشـخاص اكتشـفنا أن الإشـارات تصدر منهم جميعا، بلا استثناء، كوّنـا مجموعـات أخـري مـن آلاف الأشـخاص، ولم تختلف النتيجة، وهنـا جـاء ذلـك الضـابط الصـغير الـذي اقـترح أن نفحـص النـاس العاديين، جاء ليطلب لقائي علي انفراد، منعتني تجربتي السابقة معه من الاستهانة به، عندما انفردنا واجهني بكارثة جديدة لم تكن قد خطرت لي علي بال، فجميع من استعنّا بهم من « أهل الثقة» كانـت تصـدر عـنهم إشـارات، لقـد تصرف الضـابط بمبادرة منـه وجعلهم يمرون من خلال البوابة الإلكترونية، و أُسقط في يدي، لأنني لا أسـتطيع أن أذهب للملك و أقول له أن عشرات الآلاف الذين يحتلـون قمـة المجتمـع لا يصـلحون للوزارة، هل كنت أستطيع أن أفعل ذلك ؟!.

نظر إليّ رئيس المخابرات وكأنه يلتمس العون مني، كأنما يرجو أن أُقرّه علي رأيـه كي يزداد به يقينـا، أنـا مـن الغرقـى فكيـف أسـتطيع إنقـاذك مـن الغـرق؟!.. التقط

سيجارة وقداحة، أشعل القداحة وقبل أن يقربها من طرف سيجارته توقف فجأة، راح يحملق فيها بذهول من اكتشف أمرا واضحا لكنه غاب عنه العمر كله هتف :

- ليست هذه القداحة وحدها ما يمكن أن تحتوي جهاز إرسال!.. بل والسيجارة نفسها !!... وتلك الذبابة التعيسة الهائمة حولنا قد تكون ذبابة إلكترونية ، أو حتي ذبابة طبيعية زرعوا فيها جهاز إرسال لا يُري..!!..

حرّك يده في يأس قاتل ثم أشعل السيجارة واستطرد مواصلا حديثه السابق في غضب يائس:

- هل كنت أستطيع الذهاب إلي الملك لأطلب منه أن يختار للوزارة الجديدة أناسا عاديون نلتقطهم له من الشوارع كي يصدر مرسومه الملكي الكريم بترسيمهم وزراء ؟. أم كنت أذهب إليه لأطلب منه أن نعدم خمسين أو مائة ألف من الذين تصدر منهم الإشارات كما نعدم شحنة أغذية فاسدة لا تصلح للاستهلاك الآدمي؟!.

فجأة نظر نحوي في ضيق صارخا :

- لماذا لا تجيب، لماذا لا تشير علي ؟!..

كانت مشاعري قد استُنزِفت تماما إزاء الانفعالات الهائلة التي اصطخبت بداخلي ذلك اليوم فلم أحر جوابا. أخذ ينتظر مني ردا حتي يئس فواصل :

- لم تقتصر التساؤلات علي ذلك، فقد رحت أسائل نفسي : هل أصاب العجز الجنسي جميع وجوه المجتمع؟ ولماذا اقتصر علي صفوته ونخبه؟ لماذا أصاب المسئولين فقط؟ ثم : هل أصابهم فجأة أم رويدا رويدا؟ وكيف لم يُفلت منهم أحدا؟ هل ذلك طبيعي؟ هل يمكن تخيله أو تصديقه؟.. أم أن الأمر أبعد من ذلك؟ و أنه نتيجة لمؤامرة كونية عن طريق الجينات أو الهندسة الوراثية أو الإشعاع أو حرب كيماوية لم يُعلن عنها؟ استدعيت أساتذة في علم النفس والاجتماع وطلبت

منهم أن يضعوا لي تقريرا عن سلوك النخبة المجتمع، عن التغير الذي حدث فيه، وهل يمكن أن يكون ذلك قد حدث بصورة طبيعية، أم أن الأعداء قد دسوا عقارا ساما في أشياء يعرفون أن النخبة تستخدمها، وبهذه الطريقة أصاب الجميع العجز في نفس الوقت، فعرضوا عليهم الحل : زراعة عضو صناعي حل ينهي جميع المشاكل من جذورها، مشاكل النخبة مع نفسها ومشاكل الأعداء معنا، فلقد أدركوا ما سيحدث عندما يضغطون أقل ضغط أو يمارسون الابتزاز، كانوا يعرفون استحالة تنازل الرجل عن رجولته المفقودة بعد أن يستعيدها، وأنه في سبيل ذلك لا يتورع عن فعل مهما كانت درجته، عن خيانة مهما كانت فداحتها.

كنت قد بدأت أطفو من غَرَقِي و أتجاوز مشكلتي الذاتية إلي المشكلة العامة فهتفت :

- إن ذلك يهدد الأمن القومي..

فإذا به يصيح :

- يهدد؟!! بل يسحقه سحقا، ها أنت ذا قد وصلت إلي ما وصلت أنا إليه كرئيس للمخابرات، لكن ما هو العلاج؟.. كيف يمكنني أن أتصرف؟. ليست مؤامرة عادية أو حتي خطيرة، بل هي انقلاب شامل في الوسائل ليست لدينا أي خبرات أو برامج لمواجهته، إنها مؤامرة علي الجنس البشري، علي التاريخ، علي الفكر، علي الدين الذي ساعدناهم في تنحيته، علي الله ..!!.

كنت أجلس أمامه مشدوها كما لو كنت أري فيلما سينمائيا من أفلام الخيال العلمي وقد تحول الخيال فيه إلي واقع. وصرخ هو :

- ليس لدينا حل علي الأقل هنا في جهاز المخابرات، الأمر يحتاج إلي وسائل أخري، وهي وسائل لا نملكها وليست لدينا أي فكرة عما يمكن أن تكون،، فهل يمكن أن أذهب إلي الملك لأقول له ذلك وكيف!!..

عندما انصرفت لم أكن أدري هل تركت الرجل يحادث نفسه أم أنني ودعته كما ينبغي لمن في مثل وضعنا، وداع وزير لوزير،

في الشارع دهمني الفضول فجأة، فكدت أعود إليه لأسأله :

« هل تصدر الإشارات منك أنت أيضا » ؟!..

وكنت أنوي أن أسأل السؤال الذي أخذ يدوي داخلي ويقصف قصف الرعد:

هل فحصت الملك؟.

***

في اجتماع مجلس الوزراء التالي، كانت أبصارنا زائغة وبلغت القلوب منا الحناجر، هل يحضر الملك الاجتماع أم أن رئيس الوزراء فقط هو الذي سيواصل توبيخنا وتقريعنا ..

***

عندما دخل رئيس الوزراء، لم يكن بصحبة الملك، لكنه تلي مرسوما من جلالته بالقبض علي رئيس المخابرات الخائن، بتهمة تدبير مؤامرة خسيسة لقلب نظام الحكم ..

انفرط عقدنا، وانهار وقارنا، وقمنا نتعانق ونتصايح مهللين كالأطفال، وراح كل منا يهنئ الآخر، بزوال دولة المخابرات.. وسيادة الديموقراطية والعولمة وقانون النظام العالمي الجديد[1].

(١) * ق.ف: تقويم اكتسح جميع التقويمات الأخرى، رغم أن بعضها يوغل في الزمان بضعة آلاف عام ، وهو التقويم الذي اتخذ من اكتشاف عقار الفياجرا بداية له ، ومنذ ذلك الاكتشاف أصبح الناس يقولون سنة كذا قبل الفياجرا : ق.ف. أو سنة كذا بعدها : ب .ف..!!.

المحزن أن اكتشاف العقار السحري لن يحل مشكلة جيلنا ، فقد كان يلزم تدمير العضو الطبيعي لزرع الصناعي ، وقد كان ذلك يعني أنه لا أمل في جيلنا على الإطلاق ، الأمل في الأجيال القادمة !!

المعتقل

لا يحزنه إلا أمران : عدم صلاة الفجر، وارتياع الأطفال عندما دهم رجال المباحث البيت ليأخذوه والسياط تكوي ظهره، وكتفاه ينخلعان تحت وزن جسده المدلى من رسغيه في مقابض حديدية تهشم عظامه ، حاول -في البداية- ألا يصرخ، أن يكون رجلا فالصراخ لا يقلل الألم .. . لكنه بالرغم عنه أخذ يصرخ في وحشية يعاودون التعذيب كلما أفاق من الإغماء . نتفوا اللحية وشعر العانة وألقوا بأسلاك كهربائية علي جسده المبتل فدعا الله أن يكون تعذيبهم بردا وسلاما عليه حاول خداعهم بتصنع الإغماء، لكنهم كانوا يدركون فيواصلون التعذيب، أو لعلهم لا يدركون ولا هو أيضا يدرك أنهم يواصلون التعذيب وهو مغشي عليه اتهمه الضابط بمحاولة قلب نظام الحكم فانتزع الكلمات من وسط آهاته :

- لو استطعت أن أعدله لفعلت

سأله الضابط :

- إذن تعترف ؟

أراد أن يقول له أن الله يمهل ولا يهمل، نكن الله يعلم وهو يعلم والضابط يعلم والجنود يعلمون فلماذا يقول ذلك إذن ؟ عذبوه فأغمي عليه قال له شيخه :

- على قدر تقواك يخفف الله عنك.

لكن شيخ الشيخ قال :

- الرزايا عطايا .. . المنحة محنة، والمحنة منحة إنما يخفف عن الضعفاء .

يرفضون طلبه بقضاء حاجته فيبول علي نفسه . يتذكر أن ابنته الكبرى ما زالت تتبول علي نفسها إثر ذكري اعتقال مماثل. يقسم سرا وهو يواجههم :

- والله لإن مكنني الله منكم لأمثلن بكم.

ثم دعا الله أن يغفر له تنازله عن منازل الصابرين، حاول أن يستعيض عن الصراخ بذكر الله لكن الألم غالبه فغلبه فانطلق الصراخ.

قال له الضابط :

- لست سوي حشرة، وستعترف شئت أم أبيت فاحفظ جسدك النتن من العذاب واعترف : من شركاؤك ؟

صرخ : - ليس لي شركاء .

سبه الضابط سبابا قبيحا تناول فيه عرض أمه فبصق عليه فاشتد العذاب حتي أغمي عليه عندما أفاق، كان واثقا رغم الدوار المتبقي من الغيبوبة أنه سيعيش . في الاعتقالات السابقة، ظن في كل مرة أنه سيموت حتي غلبه اليقين هذه المرة أنه لن يموت . سوف يخرج كما خرج في كل مرة إلي البيت الآمن حيث الزوجة الطيبة والأبناء والجهاد في سبيل الله في الحجرة المظلمة قال رفيق الزنزانة لأشلائه :

- اعترف، فإنهم وحوش، ليسوا كسابقيهم، لن يأبهوا حتي لو قتلونا جميعا

قال الضابط :

- مئات من الحيوانات مثلك دفنوا في الصحراء المجاورة تبقر الذئاب بطونهم وتأكل الكلاب لحومهم فاعترف قبل أن تلحقهم.

ازداد يقينه أن الله لن يتخلى عنه . انتشت روحه عندما رأي بعين الخيال أنه قد تمكن منهم فعاقبهم بمثل ما عاقبوا به وشفي صدره، انهالت الضربات حتي ترحّم علي أيام نعتها بالهمجية والتوحش وعلا صراخه.

قال المخبر الحقير :

- يركزون العذاب في الأيام الأولي فيموت العشرات، ومن يبق لا يجد الطبيب الشرعي فيه علامة تعذيب.

قال لنفسه أنه بإرادة النصر الموعود سيحتمل .. . سيعيش ثم يخرج كي يواصل

الجهاد في انتظار وعد الله يا رب .. . ما أشد ما صبرت عليهم أدخلوا شيئا في دبره فاشتعل نارا . أطلقوا عليه كلبا متوحشا نهش لحمه ولعق دبره ثم مارس معه الشذوذ . صرخ بقوة لم يتوقعها من جسده المتهالك :

- انتقم يا قهار يا مذل .

ضحك الضابط وهو يقول :

- لم يؤد الكلب العملية كما يجب .. . شكلك مقرف لكننا في المرة القادمة سنغري الكلب بأن نضع لك مكياجا .. .

ازداد ضحكه وهو يصرخ به :

- اعترف أنك امرأة .. . يا امرأة .. . وحذاء الجندي على صدره، والدم ينزف من دبره وفمه وأنحاء متفرقة من جسده رمق الضابط بنظرة غائمة وهو يتمتم :

- أنت امرأة .. ..

تحول ضحك الضابط إلي قهقهة هيستيرية وهو يأمرهم بالاستمرار في التعذيب حتي يعترف أنه امرأة وأن يواصلوا بعد ذلك حتي يمثل مع الكلب دور امرأة شبقة أخذوا يضربونه حتي ضعف تأثير الضربات عندما خفف الله عنه فلم يعد يشعر، يري ولا يشعر. كف عن الصراخ حين توقف إحساسه بالألم. أحس بالسخرية منهم، وبالشفقة عليهم، وبالرثاء لهم .. لكنهم ظلوا يضربونه ويضربونه . . . حتى مات.



إبراهيم شكري رئيساً للوزراء

في منتصف التسعينيات، نشر الأستاذ إبراهيم سعدة، رئيس تحرير أخبار اليوم آنذاك بنشر قصة ركيكة يسخر فيها من الإسلام والإسلاميين يتخيل فيها ارتباك الجميع عندما عين إبراهيم شكري -رئيس حزب العمل الإسلامي آنذاك - رئيسا للوزراء، كانت القصة ركيكة جدا، ومع ذلك احتشدت مطبوعات أخبار اليوم لتشيد بعبقريتها وبمؤسسات عالمية تريد إنتاجها سينمائيا وبحيرته في اختيار الأفضل.

كان قراري أن أرد عليه بقصة حقيقية تلتزم بقواعد القصة. وبعدها توقف الأستاذ إبراهيم سعدة تماما عن مهاجمة حزب العمل.

تقارعت الكئوس وتمايلت الرؤوس وتناغمت أصداء الموسيقي منافسة بإيقاعاتها إيقاع جسد الراقصة والأغنية.

وعلا صوت قهقهة غطت علي الضجيج..

كان أبراهام أبو سعدة- رئيس تحرير مجموعة صحافة الأنباء العربية- يضحك والراقصة تقول له بصوت عابث:

- لماذا لا تتوسط لي كي أكون وزيرة في الوزارة الجديدة التي تؤلفها الآن في روايتك؟

فأجاب وهو ما يزال يقهقه:

- أقسم بشرفي لو كنت رئيسا للوزارة لجعلت منك ملكة لمصر.. وتباعدت الراقصة في دلال قائلة كأنها تغني :

- إنه يقسم بشرفه، ولو أقسم بشرفي أنا لكان الرجاء اقرب.

أثناء تباعدها أتت بحركة- غير عفوية بالتأكيد من خبيرة مثلها- أطاحت بطاولة تحمل الكئوس نحوه، وبالرغم من ذلك لم تصبه تقريبا. وتعالت الضحكات.. واندغمت الهمسات تلفت أبراهام حوله كي يغطي علي الموقف سائلا جلال:

لم تفلح هده المرة أيضا في إقناع الأستاذ مصطفي أمين بالحضور. ما رأيك لو أحضرته أنا الآن؟

ولم يجب أحد ،وكانت الضحكات ما تزال تتردد و القفشات حول الشرف، فقام كي يطلب الأستاذ راجيا أن ينهي الموقف بقيامه.

هل ستطلب الأستاذ فعلا؟

وأجاب أبراهام وهو غير قادر علي مداراة ارتباكه.

- ولم لا..

لكنك تعرف رأيه في حفلاتنا..

وبرغم أنه يعرف رأي الأستاذ إلا أن ارتباكه افقده سرعة بديهته فسأل عما إذا بدا له ما يسوؤه:

- ماذا تقصد..

- تعرف أنه يقاطع حفلاتنا منذ زمان طويل.

و تذكر أبراهام تعليقه ذات يوم علي سهرة حضرها معه. (كنت سيد الطرب في زماني.. والفرق بيني وبين أبراهام أبو سعدة كالفرق بين أم كلثوم واعتماد خورشيد).

تراخت قبضته علي التليفون. لماذا يا أستاذنا. لم تدعني أبدا أشك بحقيقة شعورك نحوي. لكن لماذا تدفع الآخرين لازدرائي..

وهذه الراقصة التي خصصت لأخبارها في صحفي أضعاف ما خصصته

للفلسطينيين واللبنانيين و الأفغان والبوسنة والهرسك جميعا.. الآن تطعنني أمام الجميع..

عدم الاحترام من شخص محترم كمصطفي أمين يمكن التغاضي عنه. التماس المبرر له.. لكن ما أتعسك يا أبراهام حين تسخر حتى الراقصة من شرفك. يا ناكرة الجميل يا ناقصة الشرف.. أقسم هذه المرة بغير شرفي يا ابنة الجاحدين ألا يذكر عنك في أخبار النجوم خبر..

فليكتب عنك نمير رجب، صديقك الجديد، و لتقارني سطوته بسطوتي. كنت كالجرو العاجز حين انتشلتك و أعدت صياغتك، خلقتك، ثم عرفتك علي علية القوم، لكنك احتفظت بدمائتك في التعامل معي حتى عرفت نمير رجب بادي العجب فانقلبت أحوالك.

عاد إلي مقعده محاولا إخفاء همه، كدره، ثقل الناس عليه وثقله عليهم، سعيه المحموم طوال عمره بحثا عن الاحترام، عن واحد فقط في هذا العالم الوحشي ينظر إليه باحترام لا يخالطه نفاق ولا خوف ولا رغبة ولا سر مخجل يخشى كلاهما الإفضاء به ونشره، أحد يحترمه دون أن يخشى شره..

كان يضحك ولا يضحك، يتكلم ولا يتكلم.. يتصنع الاندماج بالآخرين، يلقي النكات.. يتحدث عن الصدى الهائل لمقالاته الساخرة عن عزل عاطف بيه صدقي و تولية إبراهيم شكري رئاسة الوزراء . لكن الداعرة نكأت في قلبه جرحا لم يندمل أبدا. ليت أجهزة الأمن المصرية كانت في ذكاء ودهاء قرينتها الأمريكية ، أو حتى الإسرائيلية، ليتها توصلت إلي المزيج العبقري الذي يصنع للإنسان شرفا صناعيا. لابد أن يكلم المسئولين في ذلك.. الموساد تستطيع إبقاء هالة الشرف حول من تريد لأي زمن تريد، لا تسحب الهالة عنه إلا عندما يخرج عن طوعها، عن أمرها، فلماذا لم تجد أجهزة الأمن عندنا لذلك سبيلا. لماذا كل المقربين من السلطة بل

والسلطة نفسها هدف مستديم لبعض الناس، الاحتقار لا يمنعه من الانفجار إلا الخوف.

حتى الراقصة تسخر من شرفك.

علاقته بأولي الأمر يعرفها الجميع، أكبر مجموعة من الصحف والمجلات والدوريات تحت إدارته، وما ليس تحت إدارته طوع أمره، والإذاعة والتليفزيون و المؤتمرات كل ذلك رهن إشارته ، لكن الراقصة تسخر من شرفه.

تداعت إلي ذاكرته ذكري ذلك الخليفة السفاح الذي أمر السياف بقطع رقبة طاه لم يتقن طهي الطعام، ثم قال لمن التمس منه تخفيف العقوبة:

لا يا صاح.. نحن خسرنا الآخرة بما فيها فلا نطيق أن ينقص حظنا من الدنيا شيئا.

يغلي الدم في عروقه و نفاق المحيطين يغرقه، يخنقه، يبالغون في إبداء الاحترام كأنهم لم يسمعوا الراقصة تعرض بشرفه.

لو كان كامل الشناوي ما يزال حيا لواساه ساخرا:

لماذا تحزن، ولماذا تدعي أنها جرحت كرامتك بينما أنت أصلا بلا كرامة.

لا ينسي ما أطلقه محمود السعدني عليه من نكات و نوادر، لا ينسي إحساسه بالمهانة و هو يلمح بسمات السخرية عندما تحين منه نظرة مفاجئة أو لفتة غير متوقعة.

ادعي محمود السعدني أنهم جاءوا بمحمد حسنين هيكل ومصطفي أمين وأبراهام أبو سعدة وسألوا كلا منهم عن أصعب سنة في عمره، وأجاب هيكل:

قليلة هي الأسئلة التي يعثر الإنسان لها علي إجابة في هذا الزمن الممتد الذي يجب علينا أن نقسمه إلى عصور ثم نقسم العصور إلى قرون ثم نقسم القرون إلى حقب والحقب إلى عقود والعقود إلى سنين. وبرغم أن السنوات كلها كانت صعبة إلا

أنني لا أنسي قسوة عام ٦٧ وصعوبته علي.

و أجاب مصطفي أمين:

أصعب الأشياء علي النفس علو الرعاع علي السادة، تعالم الجهلاء و تحكم السفلة ، لكن أصعب سنة مرت علي كانت سنة أولي سجن.

أما أبراهام سعدة فقد فكر طويلا ثم أجاب :

الحقيقة أن أصعب سنة في حياتي كانت سنة ثانية إعدادي!!.

حتى أنت أيها الموكوس.

لا ينسي أيضا تعليقه علي كتابته لخطابات الرئيس السادات:

الحكاية زواج شرعي كامل الأركان، الرئيس يخطب، وصندوق النقد يشبك، وأبراهام يكتب، وأمريكا تدخل!!

ثم ينظر إلى أبراهام نظرة ذات مغزى ويجأر الرجال بالضحك أما النساء فيطرقن مدعيات عدم الفهم.

آه يا شيوعي.

تعود الراقصة إليه، تشعر أنها تجاوزت الحد فخلطت الخاص بالعام، تشير إلي الفرقة الموسيقية والمغنية فيعزف لحنه المفضل وأغنية عبرية يحبها. لكن من خسر آخرته بما فيها لا يطيق أن ينقص حظه من الدنيا شيئا..

لعل أخبار ممنوعة أو العصفورة قد استمعت لما حدث ، وتتردد أصداء الفضيحة يوم الثلاثاء والخميس والجمعة والرعاع لن يتوقفوا عن الرعب منك في مواجهتك وعن السخرية منك فور أن تمر. عبادة المصريين للكهنة وحماقة العرب فيهم تأبي أن تغادرهم. مازالوا يظنون أنه لا يراهم مادام لا يواجههم. ظن السفلة أنهم كشفوا عيونه بينهم فتجنبوهم. لم يدر أحد منهم كم مليون دولار أنفقها علي كاميرات تليفزيونية بثها في كل مكان تسجل باستمرار علي شرائط كل واردة وشاردة.

لماذا لا يدق جرس التليفون، لماذا لا يطلبك أحد كي تستطيع ادعاء عذر تنسحب بسببه، لو انسحبت بدون سبب ستكون حديث الحفل طوال السهرة.، لم يتعودوا منك أن تغادر الحفل قبل الفجر، حين تغادر قائلا جملتك المأثورة عنك ساخرا:

فلنقم لصلاة الفجر.

رغم المرارة الطافحة من أعماقه فقد طفت بين أمواجها العاتية بسمة .

الفجر.. تذكر ذلك اللص الذي نشر حكايته منذ أيام.. حين انتهز انشغال المصلين بصلاة الفجر فسرق ساعة المسجد وانطلق يجري لكن بعض المصلين خرج من الصلاة ليطاردوه ويقبضوا عليه، وأمام النيابة ادعي اللص أنه كان يصلي معهم وخرج من الصلاة معهم ليطارد اللص لكنهم تركوا اللص وقبضوا عليه بدلا منه.

وأدرك وكيل النيابة حيلة اللص فسأله:

كم ركعة في صلاة الفجر

وأجاب اللص بثقة المستنكر:

ثلاث ركعات..

لشد ما ضحكت يا أبراهام وأنت تطالع تفاصيل الحكاية قبل نشرها، ضحكت حتى خفت أن يظن المحيطون بك الظنون. ولم يكن ضحكك من أجل الحادث بل لأنك اكتشفت أنك أنت أيضا لا تعرف عدد ركعات الفجر!!. كنت تظنها أنت الأخر ثلاثا.

يقرب مني جلال باسما طبقا من المخللات وكأسا. يتوق أن أموت قبل أن يبلغ الستين كي يحل محلي، لو استطاع لقتلني. لكنه لم يبد لي قط إلا أنه مستعد للتضحية بحياته من أجلي. ارتفع صوته صائحا:

لو كان هناك من يفهم لأعطوك جائزة نوبل علي روايتك : (إبراهيم شكري

رئيسا للوزراء).. لقد تفوقت فيها علي نجيب محفوظ.

مرسي يا جلجل.

لكن لماذا تذكر اسم نجيب محفوظ. أكرهه . وتعرف يا جلال أنني لم أحتفل به عندما نالها. لم أقرأ إلا القاهرة ٣٠، وذعرت وذهلت. فقد خيل إلي لسبب ما، علي وجه ما، أنه تمثلني أنا وهو يرسم شخصية محجوب عبد الدايم.

فلماذا تذكرني به يا جلال. أعرف أنك ذكي. أفهمك جيدا. أفهم عينيك الصفراويتين كعيني ثعبان وهما تحدثاني دون صوت: لم تصبح رئيسا للتحرير لأنك أكثر ذكاء بل لأنك أكثر سفالة.. يا محجوب عبد الدايم، لكن تلك حجة كل عاجز يا جلال.

تقترب سوزي مرة أخري، تحتك بي، ثم تنفلت لتواصل الرقص. وشرفي وشرفك معا لأعيدنك كما كنت الفتاة البائسة المسكينة، خادمة الشقق المفروشة.. سعده أنت، لست سوزي ولن تكون غدا سوزي. أم نسيت كيف انتشلتك. كيف قدمتك إلي الوسط الفني وأنا أدعي ضاحكا أنك ابنتي.

أما من استدعاء ينقذني.

طرق الطبول لا يدق علي غشاء مشدود بل علي أم رأسي. الضحكات خناجر. والسفلة من الحاضرين سيحكي كل واحد منهم غدا لألف واحد كيف أهنت. تقرير جديد إلي فضائحي سوف يضاف.

لو أنني كنت أرغب في مزيد من الوقت معها لجاءني ألف استدعاء

أما الآن فلن يأتي استدعاء.

الحمقاء لم تعرف الفرق بين ما يمكن أن تقوله لي فقط وما يمكن أن تقوله أمام الناس. كبريائي أمام الناس عود ثقاب، إن احتك مرة، إن اشتعل فلن يصلح مرة أخري، وهؤلاء الرعاع لن يفهموا أن جرأتها علي سببها استمتاعي بوقاحتها نشوتي

بسبابها بل وبضربها، سيفهم البعض أن أسهمي سقطت وأوراقي احترقت وزماني ولّي. و إلا كيف تجرؤ راقصة علي إهانتي ما لم يكن قد أضيء أمامها ضوء وأعطيت لها إشارة.

هيهات أن أعطيك كما انتويت دورا في الفيلم الجديد الذي كتبت روايته. كنت أنوي أن أجعلك القديسة التي تكشف زيف إبراهيم شكري ومصطفي مشهور وعادل حسين. سوف ألغي الدور كله. سوف أشطبه من الرواية كما سوف أشطبك من الوجود.

أخيرا يدق جرس التليفون، وثمة من يطلبه علي الخط، كان طلبا روتينيا يتعلق باستبدال خبر بخبر. لكنه تصنع أنه استدعاء، وتصنع العجلة والاهتمام كي يتخيل الموجودون أنه استدعاء هام وأن الأمر جلل.

لطالما استمتع بخداع الخلان بهذه الطريقة، إذ يدبر في لحظات معينة يرسمها بدقة أن تدخل السكرتيرة عليه في قاعة الاجتماعات الكبرى لتخبره أمام الموجودين أن رئيس الوزراء أو حتى الرئيس يطلبه، أحيانا يتحدث أمامهم، خصص موظفا لهذه المواقف، يطلبه من خارج المؤسسة، ويصطنع هو الحديث، أنه يتبادل مع الرئيس ليس الآراء فقط بل النكات والقفشات، يضحك في غير وقار .. ولطالما منحه الموجودون الوقار كله طالما كان يستطيع الضحك مع الرئيس دون وقار..

نسيم ليل القاهرة الحلو يربت علي وجهه حين يخرج فيلطف لهيب نار يتصاعد أوراها من جوفه. كوكتيل الكئوس والمهانة والغضب . خيبة الأمل. مجيء المذمة من ساقطة، عندما يصف أمين لصا بأنه لص فذلك محتمل، مفهوم، ممكن، مبرر، منطقي. أما أن يصف اللص لصا بأنه لص فذلك فوق الاحتمال والفهم و الإمكان والتبرير والمنطق.

ولو أن الأمر كان يعود إلي فظاظة طبيعية فيها، إلي خشونة البيئة السافلة التي

خرجت منها لاعتبر الأمر طبيعيا، لانتشر بكونه يعيد صياغة وتمثيل وإخراج فيلم سيدتي الجميلة، أو لاعتبر نفسه بيجمالون الذي يبدع نحت تمثال جلاتيا حتى يتفجر التمثال بالحياة فيصرخ فيه- وقد حل الجنون مكان الفنون:- تكلم. لكن الأمر ليس أيا من ذلك، من فترة لاحت بوادره واندلعت نذره وبانت مراميه، حين تمسكنت حتى تمكنت، حين عرفت غيره، لتكرر سيرة ملايين من قومها الذين يعبدون سادتهم كالآلهة ثم يرجمونهم كالشياطين، وقد أكون يا ابنة الأبالسة شيطانا لكنني لن أسمح لك برجمي.

تحرك سائقه بسيارته الجديدة من طراز الشبح. شكرا لسيادة الرئيس فقد أحسست أنه يدافع عني شخصيا حين دافع في خطابه الأخير عمن يركبون الشبح.

أما صدام الأحمق فقد ظن أنه اشتراني بالزلكة. مقالتان فقط وجاءتني الشبح من الخليج. زلكتك يا صدام توصل الأولاد إلي المدارس وتحمل الخضروات والبقالة إلي القصر.

مقالتان فقط ساويتا شبحا، ثم يدعون أن هيكل أغلي صحفي في مصر!!.

تنساب السيارة كالشبح.

يسألني السائق أين أذهب فأطلب منه أن يتجول بي في شوارع القاهرة.

أدير رقم تليفون السيارة فأطلب رقم اللواء واصل.

توطدت علاقتي به عندما أخرجني كالشعرة من العجين من حادث سميرة مليان. ورددت الصنيع إليه وإلي الآخرين عندما جاء تقرير الطبيب الشرعي بانتحارها، ولم أنشر في صحفي ولم أشر قط إلي تقرير الطب الشرعي في المغرب. عرف أبعاد قوتي وعرفت أبعاد شهامته.

لدي لك صيد ثمين الليلة

...

قضية آداب

...

الراقصة سوزي

....

نعم واثق مما أقول.. لماذا لا تفهم.

...

سوف تؤدي نمرتها الأخيرة في فندق الواحة الخضراء عند الفجر.

...

أرجو أن يتم القبض عليها وسط المدعوين بأكبر قدر من الفضيحة.

...

استخرج كل ما عندك من أرشيف التسجيلات والصور لها.

...

أرجو أن تشرف علي ذلك بنفسك. استبعد من الأرشيف كل الشخصيات الهامة والأخرى التي ممكن أن تفسد القضية.

...

الآن ينطفئ اللهب.

أدير التليفون مرة أخري لأطلب الصحيفة :

هل توجد أخبار عن الراقصة سوزي غدا

...

ارفعها جميعا لكن أبق علي الصورة.

...

نعم.. نعم

...

قلت لك نعم

...

نصف مساحة صفحة الحوادث بهذا العنوان : القبض علي الفنانة سوزي في شبكة رقيق دولية. الشبكة تمتد إلي دول عربية وأوربية.

...

أجل

...

أريد أيضا مساحة بارزة في الصفحة الأولي بنفس العنوان

إذن في الطبعة الثالثة.

...

أجل

...

ارفع خبر المذبحة الجديدة في البوسنة وضع هذا الخبر.

....

أرسل صحفياً ومصورا إلي فندق الواحة الخضراء في الرابعة تماما. أريد تغطية هائلة تستمر لمدة شهر كامل.

...

في التاسعة صباحا أرسل صحفيا إلي مكتب اللواء واصل. سيعطيه مزيدا من المعلومات والصور، كي تنشر في صحيفتنا المسائية.

تنساب الشبح كالشبح.

حماقتك يا صدام أنك فكرت في عمليات البيع والشراء كنخاس عجوز.

حسبت أنه يمكنك شرائنا مرة واحدة والي الآبد. اختلفت مقاييس البيع والشراء الآن، تعقدت حتى أصبح مثلك لا يفهمها. لا يمكن أن يفهمها.

طفحت روحه بالمرارة والحقد وهو يتذكر قول الأستاذ مصطفي أمين له منذ عشرين عاما:

أنت أخطر الموجودين في هذه المؤسسة.

وقبل أن تثمله النشوة بادره :

-أنت أول من أدرك أن أفضل الطرق للاستثمار ليس أن تبيع نفسك وتقبض الثمن، بل أن تؤجرها مفروشة، وبالساعة.

أين أذهب الآن.

ما من مكان يحبني وأحبه.

الحب أشتريه. بالمال والجاه والسلطان والنشر.

أشتري الحب.

فلماذا أعجز عن شراء الشرف والكرامة وراحة البال.

قال لي الأستاذ عندما استوليت علي مكانته ومكانه:

يمكن أن تظل عبدا حتى أصبحت رئيسا أو ملكا.. ويمكن أن تكون حرا خلف أسوار السجون.

مولع أيها الأستاذ بالألفاظ الفخيمة.

لكنني أعطيك الدرس. لعلك تفهم. أم أنك نسيت يوم استدعينا في اجتماع للمحررين، كنا عشرات بل مئات كنا في مقتبل العمر أو أوسطه يحدونا الأمل ونتصارع كحيوانات الغابة كي نحصل علي توقيعك علي أعمالنا لتنشر. وفوجئنا بك

تقول :

- إذا كان مخ محفوظ الأنصاري يساوي مائة جنيه ومخ سعيد سنبل يساوي ألف جنيه ومخ جلال دويدار يساوي عشرة آلاف جنيه فإن مخ أبراهام أبو سعدة ونمير رجب يساوي كل منهما مليون جنيه.

وقذفنا صاروخا مذهلا فوق سحاب مفعم بالطموح والنشوة وتعالت همهمات الحقد والحسد والاعتراض لكنك لم تلبث أن قذفتنا إلي أعماق الجحيم حين أضفت:

- ذلك لأن أمخاخ الآخرين مستعملة، أما مخهما فهو جديد لم يستعمل قط.

وانفجروا ضاحكين.

لم أنس ولم ينس الزملاء ولا الرعاع والسفلة نسوا. ومئات النكات والشائعات تنطلق. حتى بعد أن أثبت لك أيها الأستاذ أن مخك يساوي صفرا واستوليت علي مكانك ظلت النكات تطاردني والشائعات تجري خلفي.

ما يذبحني، أن النكات التي وجهت لي أنا كانت ذات طبيعة خاصة.

النكات التي أطلقت علي هيكل تشير إلي جبروته وعبقريته. النكات التي أطلقت عليك أنت يا شيخ الصحفيين وأستاذ الأساتذة تشير إلي اتصالاتك ونزواتك. أما النكات التي تطلق علي أنا فكلها تشير إلي غبائي، حماقتي، استعدادي المطلق والدائم أن أبيع أي شيء وكل شيء ، وأن تفوقي دليل علي انتصار الجهل وسيادة السطحية، وانهيار القيم.

لن أغفر.

لن أغفر لك ولا لهم ولا لأي أحد.

سأشوهكم جميعا.

وذلك الاحتقار الذي واجهتموني به، أخذته، وسآخذه، أرضعه حقدا وأرويه شرا وأغذيه نارا ثم أطلقه.

خطب يطم، وأمر يتم، وشرّ يعمّ

الأغاني الوطنية لحن جنائزي.

مارشات العسكر، وترتيل آلات النحاس مراسم دفن لشيء مات. زوي. انتهي..

تلاوة القرآن في صوان للعزاء..

لكنه ليس صوانا للعزاء إنما مكتبي الذي ما زلت أنتظر فيه مع مرؤوسي بيان الرئيس.

علمت أمريكا..

ألم تعلم إسرائيل أيضا.

صاروخ موجه أو غارة بقاذفة واحدة كفيلة بإنهاء المأساة..

لا تثقوا كثيرا بنظامكم الجديد.

ليس عصيا علي الانهيار لأي سبب.

الصاروخ الهائل الذي تطلقونه قد يسقط لأن مسمارا- مجرد مسمار- لم يثبت بإتقان في مكانه.

تنبهوا.

فما يحدث الآن رهيب رهيب رهيب.. يجل عن الوصف.. يكبر ويكبر حتى لا تستطيع الحروف الصغيرة المتراصة وصفه، ولا يستطيع الصوت البشري مدعما بأحدث وسائل التكنولوجيا التعبير عنه، يتمدد الحدث داخلي.. يتمدد حتى لأعجز عن استيعابه عجز العين البشرية عن رؤية مجرة كونية أو تفاصيل ذرة، عجز الأذن البشرية عن سماع هدير دوران الأرض حول الشمس أو سماع صوت يستطيع جرذ أن يسمعه ولا أسمعه.. أين الشرطة وقد أمكنكم اختراقها حتى النخاع؟ وأين الجيش، وأين العشرات والمئات والآلاف من أصدقائكم؟.

أيها الإخوة المواطنون: يوجه سيادة الرئيس بيانا هاما إلي الأمة بعد قليل.. »

والأغاني لحن جنائزي و المارشات مراسم دفن والقرآن في صوان.

تدخل مدام نعمة متجردة من وقار أعوامها المجاوزة للخمسين. إحدى القليلات اللائي أفلتن مني. لم أطبع عليها بخاتمي، ولم أوقع عليها، وبرغم ذلك ارتفعت في المناصب وتقدمت في الوظيفة حتى لتكاد تنافس باقي مرؤوسي علي خلافتي، وراثتي.

لم ألحظ في البداية تجهمها ولا احتقان وجهها واحمرار عينيها.

أستاذ أبراهام.. أريد أن أتحدث معك..

علي أن استجمع نفسي، ألملم أشلائي شلوا جوار شلو، وأرتق مزقي حتى أعود أبراهام الذي يستطيع أن يرد، بالطريقة العادية يرد، بالابتسامة الساخرة واللامبالاة يرد، كأن بركانا لا يدمدم داخل نفسه يرد، وكأن إعصارا لا يوشك أن يودي به يرد.

خيرا يا مدام نعمة .

أمر خطير أريد أن أحدثك به علي انفراد.

لطالما وددت الانفراد بك لكنك عصيت علي الإغراء وصعبت علي الإغواء، وكأن ثمة من يعضدك فلم أستطع فصلك، كما عضد المشير سمير، الآن بعد أن وصمك الهرم بميسمه وأصبح مجرد النظر إلي ملامحك كفيلا بالحض علي الفضيلة والعفاف، تطلبين الاجتماع علي انفراد، لم يحدث هذا منك قبل قط، خاصة بعد فضيحة عبد العاطي شاكر وشريطه الملعون.

اجلسي لتسمعي بيان الرئيس.

الأمر أخطر من أن يؤجل.

استقال عاطف صدقي والرئيس سيعلن بيانا يسند فيه تشكيل الوزارة إلي إبراهيم شكري.

اختلجت ملامحها تحت وطأة الخبر وارتج عليها لكنها تمالكت نفسها أخيرا:

تلك أحداث روايتك التي تكتبها.

صمتت قليلا ثم أردفت:

أو علي الأحرى التي كتبت فكرتها في صفحة ثم أعطيتها لمن يمطها لك إلي خمسمائة صفحة.

ثم واصلت بصوت صك أذني بخشونته الغريبة..

علي العموم ليس هذا موضوعي الآن، إنني أوشك علي الإقدام علي أمر رهيب، وقد طلبت أمس مقابلة الرئيس، وانتظر الآن تحديد الموعد، لكنني وجدت أن من حقك علي أن تسمع مني، وأن أسمع لك قبل أن أقول للرئيس ما سأقوله.

وتسللت إلي ذاكرتي أصداء صوت يشبهه لكنني عجزت عن التحديد.

نضب الخمر وبدأ الأمر، اطلبي مقابلة إبراهيم شكري أو حلمي مراد.

تساءلت بنظرات حائرة غاضبة مستفسرة، فأجبت:

لست أدري ماذا حدث، لكن الرئيس سيخطب بعد دقائق.

قالت ونيران الجحيم تراقص في عينيها:

لم أنم منذ أسبوع كامل، أشعر بأنه علي أن أفعل شيئا أو أموت أو أجن.

(أيها الأخوة المواطنون: يوجه سيادة الرئيس بيانا هاما إلي الأمة بعد قليل).

أرجوك الانتظار حتى انتهاء بيان الرئيس.

لماذا لم أعد أخيف

لماذا لا يشعرون بالرعب مني و الفزع.

أسقط الثور فكثر ذابحوه.

ثم أنه يمكنك إذا كان الأمر عاجلا أن تتحدثي إلي سعيد أو جلال.

بل أريد الحديث إليك أنت.

إذن بعد البيان.

(أيها الأخوة المواطنون : سيادة الرئيس ...)

وجهك غريب عني.

أمامك كوب ماء وفي عينيك نصف دمعة.

لا يحمل هذا الوجه ملامح ذلك الوجه الحميم الذي طالما التقيت به وسهرت معه وتحادثت وتحاورت وتبادلنا الأخبار والضحكات.

لم أر هذا الوجه منذ تعيينك نائبا للرئيس، ولا منذ رئاستك. ربما وجه شبيه به رأيته يوم اختطاف الطائرة المصرية حين نجح الأمريكيون -كما ينجحون دائما- في إفساد الخطة الغادرة لإنقاذ بعض الفلسطينيين المجرمين في حادث الباخرة أكيلي لاورو، وربما وجه آخر شبيه به رأيته يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ حين كنت في معية الرئيس قائدا للقوات الجوية..لا.. ليس شبيها به إنما هو هو، كنت قد نسيته وظننتك أنت أيضا قد نسيته.

(لا ننكر أننا واجهنا في الأيام القليلة الماضية نكسة خطيرة)

وكان قلبي يرقص من الفرح لانتهاء الجبار..

فماذا ستقول أنت..

***

ما إن بدأ حتى انتهي..

ولم أكن أريد أن أعرف ماذا سيقول فقد علمته..

إنها كنت أتلمظ نارا وأصلي سعيرا لأفهم لماذا فعلته..لماذا قلته، لماذا أقدمت عليه.

يخيم علي المكان صمت قبوري. لا أحد يتكلم ولا أحد يسأل ولا أحد يندهش ولا أحد حتى يؤيد.

يسقط في جب للزمن نيفا وخمسة وعشرين عاما فكأن لم تكن، كأن لم تمر، لا دليل في هذا المكتب ولا في هذه الأرض الممتدة ولا في السماء المتباعدة أنها حدثت. في نقابة الصحفيين كنا، لم أك بعد عضوا بها، فلم تكن شهادتي المتوسطة في بلد الشهادات تسمح بذلك، لكنني دخلتها بعد ذلك دخول الفاتحين بقانون استصدر لأجلي، كنا حشدا هائلا نرقب ونسمع ونشاهد في التليفزيون الأبيض والأسود، وعتمة الغروب في المساء كظلمة الغيوم في الشتاء، تسربل الدنيا، واللون الأزرق القاتم يغطي النوافذ.

وتنحي..

تمنيت ساعتها لو أنني كنت أمارس الصلاة.

إذن لصليت ركعتين لله شكرا.

دون أن أدري ولا أن أفهم ارتفع العويل والنحيب والنواح والتشنج والصراخ، وفاض من الدموع طوفان فانتحيت وبعض الزملاء ركنا قصيا.. وظننتهم من العقلاء فتمتمت:

أراح واستراح.

وجاوبني منهم صدي الصمت، فسمعت في طياته همس الموافقة فأردفت..

لو أننا انتصرنا لانتهينا

ولم أفطن لمعزي التساؤل الهامس المذهول:

ماذا تقول..

ولكنني أفقت علي صفعة هائلة علي قفاي و بصقة علي وجهي، وأدركني ذكائي لينقذني عندما قفزت علي المنضدة أنضو ملابسي وأرقص وأضحك وأنشج وأصرخ مثلهم، حتى ظن الرعاع والغوغاء أن ما بي مس الجنون لفرط المصيبة.

حتى مصطفي شردي كان يبكي مع جلال عارف.

لو لم أفعل ذلك لمزقتني الحيوانات الضارية إربا.. وخرجت معهم أناشده أن يبقي..بعد عشرة أعوام صرخت في وجه مصطفي شردي:

حتى أنت قد بكيت...لماذا بكيت؟.

وأجاب يضيق من يجيب علي طفل لن يفهم قوله:

لم يكن ما هزم النظام هو الوطن.

وتمتمت ساخرا بل النظام هو الوطن.

ولم أستطع أن أحاصرك يا مصطفي كما حاصرت جلال فقد أنقذك الوفد مني، لكن هل كنت تتوقع مني أن أتركك وأنتما اللذان تعرفان حقيقة أمري، سري المكنون وعاري المدفون.

ماذا أفعل الآن؟

هل أرسل لك الآن أنت الأخر برقية تأييد.. وهل أشيد في صحفي بحكمتك، برجاحة عقلك وثاقب رأيك ونافذ بصرك وسديد قرارك. أم أبوح بها بين جوانحي فألقي الصفعة والبصقة.

كقضاء يحم جاءت مدام نعمة:

انتهي الخطاب فلنتحدث .

كأنها تقول قامت القيامة فلنتحدث، وهل بعد القيامة حديث.

أي شيء أيتها الحيزبون مازال يهم.

ما أقسي اللحظات التي تضطر للتواجد فيها رغم رغبتك في الاختفاء. موتك

شوقا للاختفاء . أطرافك لا تحملك لكنك تقف. شياطين الرعب والخوف والقلق تنهش في أعماقك لكنك تبتسم بسمة المطمئن.. العارف بما يحدث، المتوقع له والمشارك في صنعه، تماسك يا أبراهام وتجلد، أصدقاؤك أقوياء ولن يتركوك، فتماسك.إن بقيت نجوت، وإن هربت تلاشيت، بل لماذا لا يكون كل هذا الذي يحدث مجرد امتحان من الغرب لصلابة أصدقائه.. لقدرتهم علي التصرف في المصائب والتحرك في النوائب، يوجهون الأمور من بعيد ، بالريموت كنترول حتى يحدث هذا، ويتولى إبراهيم شكري رئاسة الوزراء، ثم تتتابع الأمور كما حدث في الجزائر لتنتهي بسجن إبراهيم شكري واغتيال عادل حسين واعتقال مائة ألف وإرغام الرئيس علي الاستقالة، كي نتولى نحن الأمور مباشرة، فتماسك يا أبراهام..أصدقاؤك أقوياء. وما يحدث الآن اختبار لك، لو أثّبت فيه الجدارة والقوة فزت.

طمئن نفسك حتى ولو بدون منطق، إنس ولو لأيام أنهم تركوا أصدقائهم تذبحهم الغوغاء من شعوبهم، أو تطردهم إلي الخارج كالكلاب الضالة لا تجد مأوي.

كأنما من مكان آخر في عالم آخر يأتي صوت مدام نعمة مصرا لحوحا، فأفاجأ بأنها وأنني مازلنا موجودين في هذا العالم:

هل نجلس في مكتبك؟

لو جلسنا في مكتبي فسيجلدني الشامتون بألسنتهم وعيونهم ومكالماتهم التليفونية وزياراتهم، لشد ما أود أن أغادر الدار كلها، لكن ذلك سيحسب علي وقد يكون خطيرا.

بل في مكتبك أنت كي لا يقاطعنا أحد.

فرصة أترك بسببها هذا المكان الكئيب والنظرات المسلطة علي فيه. الهواء خانق

مسموم، والصمت ذو دوي أسطوري يصم الأذن لا صوت غيره هنا يسمع. والأغبياء شامتون بي كأن المصيبة مقتصرة علي، كأنها لن تطول الجميع.

وفي الطريق أدركنا صحفي فانتحي بي قائلا:

لقد أتيت بالأخبار كلها، صورها أثناء القبض والحجز، لكننا لن نستطيع النشر.

لماذا.؟

صدر قرار بحظر النشر.

ونظرت إليه بدهشة فأجاب :

ذهبت إلي مكتب المفوض العام لأعرف السبب لكنني وجدت الأستاذ نمير رجب عنده ففضلت عدم الدخول.

لكن ما مدي إيذاء طلقة رصاص بعد قذيفة مدفع.

هل يضر الثور سلخه بعد ذبحه، وإذا انهار جبل المقطم فهل يسال عن رقم بيت فيه.

أجلس في مكتبها منتظرا ما يهمها، ما جعل وجهها هكذا وجه ثكلي.

طوال الأسبوع الماضي أمر أنا ودرية شرف الدين علي ضحايا الزلزال.

وأجبت في بساطة:

جهد مشكور لكن أحدا لم يطلبه منك، وكان يكفيك إرسال بعضا من شباب الصحفيين.

ثم أدركتني كياستي فانتزعت البسمة من حميم مسنون يغلي داخلي وقلت ضاحكا:

بالطبع أنت مازلت شابة لكن مركزك أكبر من الطواف بنفسك.

أسامه أنور عكاشة ثالثنا. يخيم بظله الثقيل علينا. فما يحدث منذ ما قبل الفجر

عصي علي التصديق، ثقيل، غبي ومتجن، كأنها إحدي حلقات مسلسلاته، طوال عرض ليالي الحلمية لم يتوقف التساؤل والهذر، كيف حال زهرة، ماذا فعل بك سليمان باشا غانم، وهذا الموقف الآن بيني وبين نعمة كأنه مشهد تمثيلي هو يخرجه.

ستموت قهرا كما مات يوسف إدريس ومصطفي شردي، ستموت لأنك لا تفهم أصول اللعبة.

أطوف بعيني في أرجاء مكتبها. وثمة شجرة (فيكس) باسقة تكاد تطول سقف الحجرة متفجرة بالحياة والخضرة لمن نبات بوتس متسلقا بجوارها ذبلت أوراقه، أدهشني أن ألحظ كثافة الأوراق الذابلة فوق جذوره الواهية.

اندفعت قائلا غير قادر علي التحكم بنفسي:

ما رأيك في قرار الرئيس اليوم بتكليف إبراهيم شكري بتشكيل الوزارة الجديدة.؟

وأجابت دون تردد:

أقل ما يجب أن يحدث بعد الزلزال.

وأدهشني الرد، فما علاقة الزلزال بهذا.؟

أين كنت لحظة الزلزال يا أستاذ أبراهام؟

هل أقول لها أنني كنت أجتمع بصديق علي حفل غداء في جنيف ؟ كان ينبغي أن أكون بصحبة الرئيس في الصين لكنني ادعيت أمرا يضطرني إلي الذهاب للصين عبر جنيف؟

هل أكشف لها عن تفاصيل حديثي مع الصديق الغبي الذي بدا مهتما لأقصي ما يكون بمعرفة أدق التفاصيل عن زيارة الرئيس للصين، رغبته في أن أسجل كل كلمة وكل حرف، أن أعي كل معني وألا يفلت مني مغزى، وكنت أحدثه بالأهم لكنه لم يفهم ولم يع ولم يلتفت إلي المغزى، كنت أنبهه لخطورة إبراهيم شكري

وحلمي مراد وعادل حسين ومصطفي مشهور ومحمد الغزالي.

لو استطعت العثور علي كمال أدهم لاستطاع أن يفهمني، لأقنعته، ولتكفل هو بإقناعهم، لكنه ليس موجودا، مشغول - كما علمت - بمحاصرة الآثار السلبية التي أحدثتها مذكرات شوارزتسكوف عن حرب الخليج، لو أنني وجدته لقلت له يا كمال لا تعط لهذا الأمر بالا فأنت تفهم الغرب خيرا مني لكنني أفهم العرب أحسن منك، ومهما وجهت لهم الصفعات علي القفا والبصقات علي الوجه فلن يثوروا، لن يتحركوا، وسيقتصر الأمر علي كذا مليون دولار ينشرون بها إعلانات مدفوعة الأجر يستنكرون فيها ما أتي بمذكرات الصديق، الحليف، ثم ينسون كل شيء كما - دائما - نسوا.

لقلت له أيضا أنه من الضروري استغلال الفوضى الضاربة في أطناب المجتمع باغتيال نجيب محفوظ أولا، لاستعداء الناس ضد الجماعات الإسلامية ثم إعادة أحداث سبتمبر. أنا الذي وصفتها بأنها أعظم من ثورة ١٥ مايو فسخر الحمقى مني، كما لو كانوا يقرون بان ما حدث في ١٥ مايو كان ثورة، لو تم الأمر أيامها كما نشتهي لانتهت مشاكلنا لمدة قرن. لكن حادثا مشئوما وأد الأمل فمات من كنا نستطيع التحدث معه دون حرج، ولم يستطع أحد منا ولا حتى من الأمريكان أن يفاتح الرئيس مبارك بالأمر.. بالجهد الجهيد الذي بذل، بآلاف الأضابير التي أعدت للمعتقلين قبل اعتقالهم بسنوات، الملف الصحي لكل معتقل، ماذا يجب أن يسمح به له من دواء وماذا يمنع؟ نوع الغذاء الذي يقدم له، وكان التخطيط أن يموت نصف المهمين منهم لأسباب تبدو للآخرين أنها مرتبطة بأمراضهم السابقة، أما النصف الذي لا يموت فقد كان مخططا أن تتكفل بهم المحاكم الاستثنائية، كي تحكم عليهم بالسجن حتى الموت.

لم تجب، أين كنت لحظة الزلزال؟

تعلمين أنني كنت في طريقي إلي الصين، لكنني غيرت وجهتي فور علمي.

وواصلت:

عندما وصلت إلي القصر وجدت الأسرة مازالت في هلع عظيم لما يتته بعد فأرسلتهم إلي مارينا العلمين.

فردت في جرأة وقحة:

لكن قصرك لم يبن بالأسمنت المستورد في السبعينات.

علي أن أتجاهل ما تقول، لأنها نفسها تقوله دون أن تفهم شيئا.

تحدق بعيني في إصرار فاهرب بعيني إلي شجرة البوتس المتسلقة ذات الأوراق المتساقطة.

الرئيس مبارك يعين إبراهيم شكري رئيسا للوزراء، والحمقاء تحدثني عن قصري الذي لم يبن بالأسمنت المستورد في السبعينات.

ما أقسي أن أستمر، لكن الأقسى منه أن اذهب إلي أي مكان آخر. وهذه الجدران الصلدة التي لم يصدعها الزلزال، لماذا لم يصدعها، لماذا لم ينهدم كل شيء لنعيد البناء من جديد، بصياغتنا، بشروطنا.

يطلبني التليفون فأعطي أوامري ألا يوصلوا بي أحدا قط إلا إذا طلبني الرئيس. لكنني أعلم انه لن يطلبني.

أنا كنت في ميدان هليوبوليس.

حقا!

أنا لم أكتب بعد ما رأيت.

لكن صفحتك حفلت بأعظم تغطية للحادث.

فاجأتني صرختها الداوية:

ليس حادثا.

فتساءلت في دهشة:

ماذا؟

إجرام.

ولجأت إلي الموروث الذي أغطي به نفسي عند الحاجة:

أستغفر الله العظيم، بل قضاء الله وقدره.

وواصلت صراخها..

لا تستغفر فلن..

وقطعت حديثها فجأة. أطرقت إلي الأرض وبدا أنها تبذل جهدا هائلا كي تتمكن من السيطرة علي نفسها.

بعد ساعتين أو ثلاث من الزلزال-لا أدري تماما فقد اهتز الزمن مع ما اهتز- كنت ودرية نلهث، كما لو كنا نود أن تكون لنا ألف عين تري وألف قدم تجري وألف يد تنقذ وألف عقل يفكر، كنا نريد أن نفعل كل شيء في نفس الوقت، أن نتواجد في ذات اللحظة في شرق القاهرة وغربها وشمالها وجنوبها، وفي الجيزة و طنطا والفيوم والإسكندرية والسد العالي، في القرى والمدن، في كل عمارة وفي كل بيت وفي كل شارع، وكنا نحتاج إلي مليون عين كي نبكي بها.

توقفت لتلتقط أنفاسها، فانتهزت الفرصة:

لقد سافرت إلي معظم بلاد العالم ورأيت بنفسك كيف تكون الكوارث الطبيعية، عنف الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات، وحرائق الغابات، والأوبئة، والحروب، وحوادث السيارات، والموت جوعا. من الشائع أن يموت في أي منها خمسمائة ألف لا خمسمائة.

ألف لا خمسمائة.. وتلك نقطة أخري كذبتم فيها كما كذبتم في تحديد حجم

الخسائر، فبدونا أمام العالم كالمتسولين بعاهاتهم ودمائهم.

وواصلت:

لا تقاطعني أرجوك. لأنني أبذل جهدا هائلا في أن أتوازن، في أن أعبر عن نفسي بالكلمات لا بالصراخ. فبداخلي فرن نووي يوشك أن ينفجر.

ران الصمت كثيفا، ثقيلا لزجا، يا ابنة الأفاعي أنا أغرق، يمد التنين الخرافي أذرعه الرهيبة نحوي، وأنت بحاجة لمن تفضفضين له..أيتها العجوز الثرثارة فلتذهبي إلي من يحتملك، أما أنا فلو لم يصبح الأمر علي ما أصبح عليه لأنهيت الحديث بعد دقيقتين بنكتة بذيئة تدفعك إلي ترك المكان مولية هاربة.

لم يكن الزلزال اهتزازات استمرت لدقيقة ثم انتهي، بل كان بركانا انفجر داخل نفسي، جحيما فتحت عيني عليه ففتح علي الدنيا عيني، علي العالم وعلي الكون وعلي هذه المؤسسة وعليك، وعلي نفسي أيضا.

وفي بولاق كنت أقف أنا ودرية، مذهولتان مصعوقتان كنا، وكنت أحسدها علي طوفان الدمع الذي ينهمر من عينيها، لأنني عجزت حتى عن البكاء. وفي الزحام والفوضى والفزع اتجه إلينا طفلان، طفل وشقيقته، بملابس المدرسة كانا، وكانت ملابسهما ممزقة وحقائب كتبهما ممزقة ودماء جافة تلطخهما، كانا يبكيان. توجهت درية إليهما للمساعدة، وكالمنومة،سرت خلفها، لعلهما خاطرا بعمريهما كي يعودا بحقيبتي الكتب، ولعل أحدهما خاطر بعمره فعاد إلي فصله المنهار كي لا يفقد مسطرة أو قلما ستضربه أمه أو أبوه علي فقده، لأنهما لا يستطيعان شراء غيره. أخذت درية تكفكف دمعهما وهي العاجزة عن كفكفة دموعها، واستطاعت الطفلة أخيرا أن تنطق من بين شهيقها وزفيرها المتلاحقين، أن تسال في نواح: (بيتنا فين يا أبله).

كانا يشيران إلي أكوام من الأنقاض الناتجة عن عدة بيوت متجاورة انهارت

جميعا. كانا لا يفهمان ما حدث، وأنه لا رجعة فيه، لعلهما ظنا أنهما تاها عن الشارع الذي يقطنانه، وأننا يمكن أن نرشدهما إلي شارع أخر يجدان فيه البيت.

آآآه..

منعت نفسي ساعتها من الصراخ، لكن الصريخ الذي ولد في نفسي في تلك اللحظة لم يمت ، لم يتلاش، بل يتوالد ويتوالد، لم يزل، حتى أنني أود أن أجري في الشارع لأصرخ وأصرخ وأصرخ حتى أموت، أن أعتلي القاعدة الخالية في ميدان التحرير لأصرخ، أن أتجمد في مكاني هناك وأنا أصرخ، أستحيل تمثالا لا تنقطع صرخته أبدا.. تمثالا تظل صرخته مرئية بالعين مسموعة بالأذن أبدا.....

(بيتنا فين يا أبله)..... أردت أنا الأخرى أن ألمس درية أن أهزها حتى أصل إلي أعمق أعماقها، أن أسألها أنا الأخرى:

(مصر فين يا أبله) أحسست أن قوانين الجاذبية قد انهارت مع ما انهار وأنني أترنح ضائعة تائهة في أرجاء الكون، وأنني أريد أن أسال درية: (وطني فين يا أبله)، لكنني كنت أعرف أنها لن تجيبني كما لم تجب الطفلين.

وتركنا بولاق لنذهب إلي الأماكن الأخرى، وكان كل سؤال معلقا كالسيف لا جواب له . قلت لك أنني كنت لحظة الزلزال في ميدان هليوبوليس، أحسست بالهزة ثم سمعت فرقعة الانفجار، ثم رأيت الطابق الرابع والخامس من العمارة يتلاشيان فتسقط الطوابق التسعة العليا علي الطوابق السفلية لتسحقها، ولا يبقي إلا كومة هائلة من التراب والغبار، حاولت أن أقنع نفسي بأنه حلم، كابوس سرعان ما سأستيقظ منه ، لكنني اكتشفت أن ما كان هو الحلم وأن الكابوس هو الحقيقة، اللحظة المروعة للحقيقة، لحظة التماعة البرق في ظلام دامس، فإذا كل ما خفي يعلم، وكل ما استتر يظهر، وبانت السوءات فلم أجد ما أخصفه عليها، ورأيت كل شيء علي حقيقته، ورأيت الحقيقة، وهرعت إلي منزلي كي أطمئن علي أسرتي،

حاولت الاتصال بدرية لكن الاتصالات كانت معطلة فذهبت إليها ونزلنا إلي الشوارع والمستشفيات، حدثت بنفسي تلك الأم التي مات ابنها تحت الأنقاض بين ذراعيها، وهو يستنجد بها ويستغيث وهي تقول له (وأنا أقدر أعملك إيه يا خالد، أقدر أعملك إيه يا حبيبي يا ضناي!!)، ويخفت صوته فتمد أصابعها بصعوبة بالغة كي تتلمس نبضه، وهما تحت الأنقاض يختنقان تتلمس نبضه، وهما تحت الأنقاض يختنقان يموتان يفرحها انه مازال ينبض، ويأتي صوته مرة أخري ذاويا ضعيفا مرتحلا يستغيث ويطلب النجدة والعون، أقدر أعملك إيه يا حبيبي... وعندما وصلوا إليها أخيرا كان خالد قد مات...كان يمكن آن أكونها وكان يمكن لابني أن يكونه دون ذنب منا ولا جريرة، لكننا بمحض الصدفة لم نكنهما.

آه

آآآه...

آآه..

لقد كنته.. كنت خالدا الذي يستغيث فلا يغاث، ويستعين ولا يجد العون، وكنت الأم التي يموت ابنها بين ذراعيها، ولا تستطيع أن تقدم له العون. كنته وكنتها وكنتهم، جميعا كنتهم، كنت الألف قتيل فانسحقت تحت الركام حتى الموت ألف مرة،اخترقت الأسياخ جسدي فمزقته ألف مرة، اختنقت ألف مرة وتهشمت ألف مرة ونزفت ألف مرة وتناثرت أشلائي ألف مرة ثم قمت كي أجرح عشرة آلاف مرة، ثم كنت الثاكلة والثاكل والأرملة والأرمل واليتيم واللطيم، ولم أك قط شيئا عندما كتبت أنت مقالتك الأولي بعد الزلزال تؤيد كل شيء وتشيد بكل شيء وتبرر كل شيء. وتركتني درية لتذهب إلي التليفزيون الذي كان ما يزال يمرح، ما يزال ،وسمعت يعد ذلك عن دموعها التي لم تستطع كبحها علي الشاشة، لكنني أنا لم أبك، ألف، أدور حول نفسي وفي الشوارع وفي الأحياء أي شيء هائل وددت أن

أكونـه لأمـتص الألم، أخففـه، لأداوي النزيـف، أوقفـه لأمـس بيـدي عـلي الجـروح فتندمل، وعلي الكسور فتلتئم، وعلي الألم فيتلاشـى.. أن أمـد يـدي لأمسـح بهـا عـن المفـزوعين الفـزع وعـن المكـروبين الكـرب، وعـن المتـألمين الألم، وعـن المعـذبين العذاب.. أن يمدني الله بطاقة المعجزة لا لأبرئ الأكمه والأبرص فقـط، بـل لأحيـي الموتى فأعيد خالدا إلي أمه وقلبه ينبض..أن أمد يدي وسط الزحام بين الركام لأنقذ أكثم، أو أن أمد أمه -علي الأقل- بجرعة ماء بدلا من جرعة بول قبل أن تموت وأن أخرج زوجته لأقذف بها بيدي المجردة حية إلي إيطاليا، هاتفة بها: اذهبي يـا بنتـي إلي بلدك ولا تعودي قط إلي هذا البلد القاسي الظالم أهله،اذهبي إلي بلدك الذي توقفت فيه الحياة ثلاثة أيام لإنقاذ طفل، وترك رئيسكم قصره ليقيم في خيمة يتابع عمليـات الإنقاذ بنفسه ذهب لينقذ الطفل لا لينقذ الحكم.

لماذا تنظر إلي هكذا يا أستاذ أبراهام؟ إيـاك أن تقـول لي أنـك قـد قطعـت زيارتـك المهمة وعدت كي تشارك شعبك، أهلك، قومك وناسـك، إيـاك أن تقولهـا، قلهـا في مقالاتك لكن لا تقلها لي. لقد رأيت بعيني رأيت رجال الشرطة يطاردون الناس في الشوارع، ولم يكونـوا مـن الجماعـات الدينيـة المتطرفـة ولا مـن التكفـير والهجـرة ولا الناجين من النار ولا الشوقيين ولا الشركيين ولا الفؤاديين، ولا أيا من هذه الأسماء البغيضة الشائهة التي أطلقتموها، فصدقها الناس، حتـى أنـا صـدقتها وظننـت أنهـم هم الذين سموا أنفسهم كذلك، ولم أكتشف إلا أخيرا جـدا أنهـا أسـماء يـتم الاتفـاق عليها بين المباحث والصحافة لتنفير الناس، لكنهم عـلي أيـة حـال لم يكونـوا أيـاً مـن ذلك. كانوا أناسا فقدوا كل شيء، يبحثون عن خيمة تأويهم وكسرة تطعمهم ومزقة تستر عورتهم ، وكانت الشرطة تطاردهم، وكنت تقـول في مقالاتـك إن ٧٥٪ منهـم مـدعون كـذابون، زوروا الأوراق وشـهادات الوفـاة. كـانوا جـائعين والشرطـة تطاردهم، جـائعين عـارين لا مـأوي لهـم، والشرطـة تطـاردهم ولـيس لهـم في الـدنيا

مكان يذهبون إليه، لكن الشرطة تواصل مطاردتهم فيهربون من شارع إلي شارع ، فيجدون رجال شرطة آخرين يطاردونهم. لم تكن مظاهرات، ولم يكونوا شبابا يحتملون الجري، كانوا أسراً، فيهم الشيخ والطفل والنساء، ولم يكن لديهم قصر في مارينا العلمين يذهبون إليه. تقول أنك قد عدت للمشاركة، للمشاركة أم للإشراف علي المطاردة. كي تتجنب اتساع الخرق علي الراتق، امتداد الصدع الذي ألم بالوطن إلي النظام. قل لي يا أبراهام: هل رأيت طفلا ميتا في فمه نصف قطعة من البسكويت وفي يده النصف الآخر، طفلا يتشبث بخمسة قروش معدنية وهو ميت، لقد حاولت بنفسي لن أنزعها وأنا أسجيه علي النقالة فلم أستطع، وهو ميت. هل سبق لك قط أن رأيت أجساد أطفال بلا رؤوس ورؤوسا بلا أجساد.. هل رأيت عيونا مفقوءة، وأفواها مفغورة وأطرافا منزوعة وعظاما مسحوقة وجلودا مسلوخة وأشلاء متناثرة.

***

هل رأيت .. أنا رأيت ..

كنت مرعوبا، كأقصى ما يصل إليه الرعب، ذلك الرعب الذي يشملك عندما تواجه شيئا خارقا، رهيبا، مروعا، لم تعتد عليه ولم تسمع عنه ولم تر قط مثله. المروع أكثر، أن عينيها كانتا جافتين تماما كما لو كانتا من زجاج، والصوت لم يكن بشريا بالمرة.. ولقد اكتشفت في لحظة أنها كادت تصل بي إلي درجة التنويم المغناطيسي، إلي درجة الذوبان والتلاشي والتوحد، حتى أنني خلت للحظة وهي تصف أنني أري بأم عيني، حقيقة لا مجازا، وواقعا لا خيالا،أجسادا بلا رؤوس ورؤوسا بلا أجساد، وعيونا مفقوءة، وأفواها مفغورة وأطرافا منزوعة وعظاما مسحوقة وجلودا مسلوخة وأشلاء متناثرة.

أحاول استرداد وعيي، السيطرة عليه، عدم فقدانه، وقد بدت مدام نعمة أمامي

مثل الساحرة التي تخدرني بالكلمات والانفعالات ونظرات العينين الناريتين، تنومني، حتى إذا فقدت الوعي التهمتني.

أنا رأيت..

أخذت ترددها حتى تخيلت أنها تكررها في حيلة مكشوفة لتنويمي بالتكرار. لكنها واصلت وقد خفت حدة صوتها وإن ازداد مرارة.

أنا رأيت.. وأنت تعرف أنني لست بالغرة الساذجة التي تري ذلك للمرة الأولي فتنهار. رأيته في السويس وبورسعيد والإسماعيلية، هل تذكر يوليو ٦٧، ١٥ يوليو٦٧ ، لم تكن قد أصبحت صحفيا بعد، لكنك كنت تغطي معنا أخبار الجبهة، من القاهرة وجنيف كنت تغطيها، وكنا نحن هناك، في الجبهة في ذلك اليوم عشت كابوسا هائلا لا يضارعه حتى الزلزال، كنا في مرحلة الصمود، التي سخرت منها كثيرا بعد ذلك في مقالاتك، في ذلك اليوم – منذ ربع قرن أو يزيد- تصدت الطائرات المصرية لطائرات العدو لأول مرة بعد الهزيمة، وكان علي إسرائيل أن تضرب بإجرام وجنون، لتمنع وميض الأمل، إذا ما إن انتهي القتال بين الطيران والطيران ، والمدفعية، حتى سمعت من مكاني في الإسماعيلية أصوات الضرب الرهيب المروع، لم يكن موجها إلي الأماكن العسكرية المصرية ، بل إلي المدينة. كانت دانات قنابل المدفعية والدبابات من كل الأنواع تنهال عليها، علي الناس والمنازل وعلي كل شيء آخر، ورغم إدراكنا لخسة العدو، لحقارته وإجرامه، فلم نكن نتوقع كمدنيين أن يلجأ العدو إلي ضرب المدن بكل هذه الضراوة . لكنه كان يحاول قتل روح الأمة، القضاء علي قدرتها علي المقاومة ، نزلت إلي المخبأ وكنا نسمع أصوات القنابل والهاونات ترتطم بالمنازل والشوارع في جنون، ثم توقف كل شيء فجأة، وخرجنا من المخابئ، هرعنا جميعا نحاول تقديم المساعدة والعون، وخرج الناس من المنازل، أما الذين كانوا في أعمالهم فقد كانوا يعودون بسرعة إلي ذويهم ليطمئنوا

عليهم.

لكننا وقعنا في مصيدة رهيبة، ففجأة انطلقت كل وسائل الدمار من الضفة الشرقية بإيقاع مرعب، الصواريخ والمدفعية الثقيلة والهاونات والدبابات. وهرعت مع فتحي رزق إلي فريق المراقبين الدوليين المحاصرين في فندق بالاس، وكان الفريق عاجزا عن إجراء أي اتصالات نتيجة لتعرض الميدان لإصابة مباشرة، وكانوا مندهشين من موقف القوات الإسرائيلية التي تركت الرد علي القوات المصرية لتضرب المدنيين وانتهي القصف أخيرا، وقالت إذاعة القاهرة في نشرة الحادية عشرة مساء إن العدوان الإسرائيلي تسبب في إصابة ١٩ شخصا وإصابة ٢٢ منزلا ومحطة بنزين أهلية.

لكن ذلك كان كذبا، كان كذبا، كان كذبا، ولقد عشت طول الليل في كابوس مروع لهول ما رأيت.. كان فتحي رزق يبكي ويصرخ:

- سننتقم، ولو بعد عشرة أجيال سننتقم.

وأخذنا نعمل لمدة ٢٤ ساعة، وكان عدد الشهداء ٣٦٢ قتيلا والمصابين ٣٥٠ وتهدم ٦٠٠ منزل، وتم تدمير محطة التيار الكهربائي ومحطة المياه ومبني السنترال، ومحطة السكة الحديد في موعد قيام القطار الذي يغادر المدينة إلي القاهرة وموعد وصول القطار القادم من الزقازيق. وأصيب قطار الزقازيق بإصابات مباشرة فاشتعلت فيه النار وأصيب من فيه بإصابات قاتلة فاخذوا يلقون بأنفسهم منه والنيران مشتعلة فيهم وقذائف الهاونات تستقبلهم علي شريط السكة الحديد وأرصفة المحطة، أما الذين هربوا إلي ميدان عرابي فقد أصيبوا فيه بالقصف العشوائي المروع للمدينة.

كنا نبذل جهدا هائلا، وشاركت في نقل جثث الموتى والمصابين إلي المستشفي، استخدمنا الكشافات، وكان ثمة اتفاق بيننا جميعا وإن لم يصرح به أحد، لم يقله أحد

ولم تهمس شفة ببنت شفة ، أن لا يبقي الوضع علي ما هو عليه حتى الصباح حتى لا تتأثر الروح المعنوية للمواطنين، ولم يكن ذلك هو الآخر كذبا، لم يكن لإخفاء حقيقة عن أحد، فقد كنا جميعا هناك، كنا نحن المواطنين.

اضطررت للمشاركة في كشط اللحم البشري المسحوق في الإسفلت، إلي تجميع الأشلاء التي لا معالم لها في بطانية أو ملاءة، وأمام مبني النادي في شارع السكة الحديد تعثرت في بعض الجثث فسقطت، وعندما حاولت النهوض وجدت يدي في أمعاء واحد منهم، وأحسست بهلع لا يوصف وأنا أتماسك وأمسح الدماء بملابسي. ووجدني فتحي رزق الذي افتقدني فجاء يبحث عني، وانطلقت معه نواصل العمل، وسألني ساخرا. أين أبراهام؟ فأجبته بنفس السخرية: لعله مع عبد العاطي شاكر يقضيان سهرة حمراء، يسكران ثم يكتبان مقالتين عن معركتين لم تحدثا قط. وانطلقنا إلي حي التمساح، كان كل شيء مدمرا، وكانت الأشجار محترقة وملايين العصافير والطيور الصغيرة محترقة تفرش الأرض ببساط مرعب للموت، وكانت أعمدة الكهرباء واقعة علي الأرض وأسلاكها مبعثرة والدخان ما يزال يتصاعد من المباني، وكان الرجال في كل مكان وبعض النساء يشتركون في تنظيف الشوارع وغسلها من الدم واللحم البشري الذي لم يمكن فصله من الإسفلت.

في ظهر اليوم التالي كنت أرقب طابور الأرامل وأسر الشهداء، كانت عيونهم مفتوحة، زجاجية، بلا دموع، ولم يكن فيها حزن ولا يأس ولا ألم، بل غضب ورغبة هائلة في الانتقام. وعندما وجدت أن أحدا منهم لا يبكي، انطلقت أنا الذي لم أفقد أحدا أبكي كما لم أبك طول عمري.

نظرت إلي ساعة يدي، الحيلة القادمة للتعبير عن نفاذ الصبر والملل، عن الرغبة في الانتهاء، وجاءني صوتها خشنا قاسيا:

لا تنظر إلي ساعة يدك فلم أنته بعد.

لو أنني كنت في حالتي الطبيعية، لو لم يسند الرئيس الوزارة لإبراهيم شكري، لكنت قد تصرفت علي وجه آخر، لما جرؤت هي من البداية علي الحديث معي بهذه الطريقة، لما تركني المئات في هذه المؤسسة الكريهة التي أمارس منها سلطاتي دقيقة واحدة دون تساؤل أو نفاق أو التماس مشورة وطلب نصح.

وواصلت هي الحديث:

لن أحكي لك عما رأيته في بحر البقر وأبي زعبل، لكنني أريد أن أقول لك أن ما رأيته في الزلزال لم يكن أبشع ما إن رأيت، ولم يكن هو الكفيل بانهياري، كفتاة رقيقة تري الدم فتصاب بالإغماء.

وقلت لها في تعجب حقيقي:

الزلزال قوة من قوي الطبيعة التي لم يتمكن الإنسان في أي مكان في الدنيا من السيطرة عليه، وما حدث طبيعي.. طبيعي.. طبيعي.

وارتفعت نبراتها مرة أخري.

قلت لك ليس الزلزال بل الإجرام..

أنا لا أفهمك!

تلك المجازر البشرية التي رأيتها في الجبهة كان لها ما يبررها، كان الوعي الجمعي للأمة يدرك أنها ضريبة أحلام أجيال مقهورة منذ عشرات القرون، وأننا إن عجزنا عن الدفع، إن فشلنا في المواجهة، إن انهزمنا فسيأتي أبناؤنا وأحفادنا لينتقموا، وأن دماء من ماتوا لن تضيع هدرا. سيدفع أعداؤنا الثمن سيدفعوه.

قلت حين لم أستطع احتمال الصمت:

هذا ثأر جاهلي لا يليق بنا إثارته بعد السلام وكامب ديفيد.

وواصلت كأن لم أتكلم، كأن لم أنطق، كأن لم تسمعني:

أما ضحايا الزلزال، وهذه الدماء المسفوكة والأرواح المزهقة والآلام الهائلة الرهيبة المروعة فمن سيدفع ثمنها وممن سننتقم؟

بدا تساؤلها غير مفهوم بالمرة، وبلا جواب، ولشد ما أخشي أن ينتهي الأمر بانهيار عصبي ليتعالى صراخها وتشنجها كما حدث يوم موت زوجها، ولن يسلم الأمر من تفسير المفسرين وتأويل المؤولين.

أضافت.

من سيدفع الثمن وممن سننتقم ؟! هل تظن أنني اكتفيت بتعذيب نفسي بمشاهدة الأنقاض والأشلاء والجرحى. لا. فقد ذهبت إلي الحاجة كاملة ولقد أعطتني الخيط فذهبت إلي العشرات.

يا إلهي..يا إلهي..

علت نبرة صوتها مرة أخري، في صراخ يخالطه نواح:

يا الهي: ألهذا الحد أنت فاجر.

أنكمش في مقعدي. أود أن أتلاشي. إذا كانت نعمة مرؤوستي تعاملني كذلك، فكيف تعاملني غدا نور الهدي سعد وليلي عبد الحميد وهبة سعد الدين. وماذا لو جعلوا زينب الغزالي قاضية علي ونعمات أحمد فؤاد تترافع ضدي.

ألهذا الحد أنت فاجر.. لهذا الحد.. لقد عرفت الكثير، هزة الزلزال جعلتني أفتح عيني بالرغم مني وأعرفه، تلك الدقيقة التي اختزل العمر فيها، واكتشفت اكتشافي المروع، أنني لم أكن أعرف لأنني أنا لم أكن أريد أن أعرف، كنت أغمض عيني، كان واضحا دائما أمامي أنك سيد رابطة صناع الطغاة، وأنك أخطر علي الوطن من أي عدو في الخارج، ومن أي حاكم في الداخل لأنك تفتح الباب للأول وتصنع الأخير، تصوغه، كان كل ذلك أمامي، وكانت أمامي أيضا جرائمك المعروضة علي مجلس الشيوخ، ٤٨ جريمة علي وجه التحديد- يجب أن تحال إلي النيابة، لكنها لم

تحل ولن تحال لأن خيرت فظاظة صديقك رئيس المجلس وواحد من أعضاء رابطتك، وأن ثمة عقد بين النظام و بينكم أن تفسدوا كما شئتم وان تفسدوا من شئتم بشرط أن يحتفظ النظام بولائكم.

يا إلهي الشيطان يلد شيطانا ويربيه، أما من سبق الأخر فليتساءل الإسبرطيون عنها حتى يدخل العدو عليهم ليفنيهم.

يزداد انكماشي، هلعي، وغدا تنفجر الأرض بزلزال أخر يترك الناس جميعا ويصيبني وحدي، فيظهر الخبيء ويبرز الكامن، ماذا ستفعلون بي..؟ ماذا سيفعل بي إبراهيم شكري وعادل حسين..؟

لقد عرفت من الحاجة كاملة والأخريات أسرارا من أسرار علاقتك بعبد العاطي شاكر، واستيراد الأسمنت المغشوش والحديد المغشوش، وأنك أنت بالذات كنت الواسطة الكبرى التي تمكنت الحاجة كاملة بها من مواجهة القانون والارتفاع بالعمارة تحديا له.

هل تريد أن تسمع التفاصيل.. هل أقول لك كم قبضت ..؟ هل أعد أمامك آلاف المواقف التي فسدت فيها وأفسدت وقبضت؟ يا إلهي، أنك تتنفس شرا، خيانة ولصوصية وانتهازية وكذبا، لم تترفع من ادني دنية ولم تتورع عن اكبر معصية، قل لي ماذا ستفعل بعد أن تدمر كل شيء ؟ أي شيطان رهيب يعربد في أعماقك؟ هل تريد أيضا أن أحدثك عن علاقتك بصلاح نصر والملك فاروق؟

والرعب يشملني، وأنا أزدرد لعابا لا أجده، همست:

لا..

ثم أردفت:

- لا تصدقي ما يقال إنهم مجرمون يحاولون تشويه سمعتي.

- دعك من هذا..لقد ذهبت إلي عمارة الإيموبليا وستراند والعمارات الأخرى

المبنية منذ مائة عام فوجدتها شامخة كالطود. الذي انهار لم ينهر بفعل الزلزال، بل بفعل إجرام أنت مسئول عنه بالوكالة والأصالة والصياغة والصناعة والتستر. لقد انهارت العمارات التي بنيت منذ عشرة أو عشرين عاما، بنيت تحت سمع بصر أسيادك ومواليك، بتصريح أجهزتهم ، بترخيص مكاتبهم، برقابة موظفيهم الذين ائتمنهم الناس علي حياتهم فخانوا. لقد كنت أبحث عن قطعة متماسكة من الخرسانة فلا أجد، أين كنتم وأين كانوا..؟ الذي انهار أيضا مدارس بنيتموها أنتم واستلمتموها من مقاوليكم انتم، والذي انهار مباني كانت آيلة للسقوط منذ أعوام وأعوام تركوها لتنهار علي من فيها وذهبوا ليبنوا لك في مارينا العلمين قصرا، وقري ومدنا، بالمئات والآلاف، والأنفاق والمصانع التي لم يستفد منها سوي من قبض العمولة عليها، بعضها تصل خسائره إلي مليار جنيه في العام الواحد، معظم ما انهار كان يمكن ألا ينهار، لم يتهدم منزل ولم يسقط مبني إلا والحكومة طرف فيه، عمارات مغشوشة، ومدارس مغشوشة، وضمائر مغشوشة، وحكومة مغشوشة، حتى المسرح القومي المبني منذ سبعة أعوام تصدع! يا إلهي، ما من أحد قابلته ظن في البداية انه زلزال، كل امرئ ظن أن بيته ينهار، وهذه الواقعة وحدها أصدق استفتاء للأمة علي نظام الحكم، لا أمان ولا أمانة. لو أنه كان القدر فلا حيلة لنا..فصبر جميل والله المستعان، لكنه لم يكن قدرا،بل سلوكا قذرا ساد. قل لي يا أبراهام. هل تعتقد أن الأماكن الأخرى تختلف عما يحدث في قطاع المباني، الأماكن الأخرى ، الصحافة مثلا، والجامعة، والصحة، والانتخابات وكل الأماكن الأخرى..كلها...بلا استثناء.

ألتزم الصمت تماما، أتمني أن يصيبها الإجهاد والانفعال بنوبة قلبية فتموت. لكنها لا تموت بل و تكرر:

بلا استثناء...ثم تندهش لتكليف إبراهيم شكري برئاسة الوزراء.

في بلاد أخري تستقيل الحكومات بسبب سقوط طائرة أو حادث قطار لا يد للحكومة فيه. بعد هذا الزلزال الذي كشف وفضح وعري تندهش، ما من مبني سقط إلا والحكومة تحمل وزر سقوطه، وما من دم سفك إلا والحكومة تحمل عبء قصاصه، وما من خسائر أبدا أبدا إلا والحكومة مهدت لها بالعجز والفساد وخيانة الأمانة، ثم تندهش؟!

صمتت قليلا ثم قالت بمرارة:

لقد دافعت عنك بحرارة حين قال لي البعض أنك كنت وراء موت زوجي، لكنني عندما عرفت من الآخرين حقيقة حادث عبد العاطي شاكر، الحقيقة المخزية المخجلة، عندما عرفت لم أعد استبعد أي شيء...أيتها البؤرة الصديدية التي تنفث السم في كل ما حولها وكل من حولها..علي مستوي الأفراد والنظام والوطن.

لقد تخيلت للحظة أن من حقك أن أمنحك فرصة للدفاع عن نفسك، كان ثمة بصيص احتمال أن أكون متجنية عليك لكن، الآن، وأنا أتحدث إليك دون حتى أن ترد أدرك أن هذا البصيص انطفأ، مات، وأني كنت أخدع نفسي باحتمال وجوده، كنت أخدع نفسي، كما دائما خدعتها بالتعايش مع هذا النظام الفاسد الذي يأوي مثلك، ربما لأجنبها عناء المخاطرة والمواجهة.

***

صه.. صه يا ابنة الكلب. أنت تدخلين في المحظور وأن أكتمل دخولك قتلتك. كان لابد لعبد العاطي شاكر أن يموت فقد كان أشد سفالة مني.. ولذلك هددني بالمنافسة، ولو عاش لكان الآن مكاني و لكنت مكانه : جثة في قبر.

كانت قد أجهدت تماما...هدها الانفعال والجنون وهي تقول بإعياء:

من أجل ذلك طلبت مقابلة الرئيس.. أنت تتساءل كيف فعلها بينما أتساءل أنا كيف كان يمكنه ألا يفعلها؟ كيف ولماذا؟ لم أطلب لقاءه لأكشف له حقيقتك

كأبراهام، وإنما وجودك كرمز للكل ونمط.

الغبية الحمقاء تظن أن شيئا يخفي علي الرئيس.

- ولست أنا الغبي يا أستاذ الأساتذة، لست أنا الغبي رغم ادعائك، حين رحت تقول أن جحا لم يكن غبيا حين راهن علي تعليم الحمار القراءة والكتابة، وأنك ستثبت ذلك بتعليمي الصحافة.

أما من منقذ..؟

وجاءني الإنقاذ من حيث لا أتوقع عندما سمعت صوت خيرت فظاظة الناعم الحاد يدفع الباب قائلا في احتجاج:

أنتظرك في مكتبك منذ ساعة، هل هذا وقت لاجتماع، ألا تأتي لنبحث ماذا سنفعل في هذه الكارثة؟

ما حدث بعد ذلك كان غريبا، لو أنه صادف قلبا خليا لظللت أضحك أياما عليه، إذ أن خيرت ربيب القصور والأبواب الواسعة اندفع دون تقدير من خلال باب مكتب مدام نعمه فانحشر فيه، فأخذ يصرخ في غضب موجها السباب لي ولمن بني المبني، وبذلنا جهدا جهيدا مع الصحفيين والسعاة ونحن نحاول دفعه إلي الخارج فلا نستطيع، فدفعوه إلي الداخل أخيرا.

جلس يجفف عرقه وهو من الإرهاق والغيظ في غاية.

يا خيرت أنت أقرب الأصدقاء إلي لكن هذا ليس وقتك أيها الصديق العزيز الطيب الذي لا يثير ضحكي في الصحف المصرية إلا مقالاته وكاريكاتير مصطفي حسين. يا خيرت أنت طفل في السبعين من عمره وحجمك الهائل لا يوحي أبدا بالخواء الذي بداخلك. ولشد ما استمتعت بان أدفعك إلي أقصي درجات الغضب والحزن والانفعال بكلمة، لأعيدك مرة أخري بكلمة أيضا إلي أقصي درجات السعادة والمرح. وكلما سمعتك تتكلم قلت لنفسي آن لأبراهام أن يمد رجله. كما

أتذكر قول عبد العاطي شاكر:

كأنه دمية بزمبلك: إذا أدرته يمينا ضحك وإذا أدرته يسارا بكي.

عجبت عندما وجدت مدام نعمة بعد كل ما حدث لا تفقد كياستها فتطلب له مشروبا مثلجا..

وهو يشرب سألته بمرارة :

يا هاوي الشعر: لمن هذين البيتين:

يــــا رب أهلنــــي لــــذكرك واكفنــــي

شــــطط العقــــول وفتنــــة الأفكــــار

ومــر الوجــود يشــف عنــك لكــي نــري

غضــــب الحلــــيم ورحمــــة الجبــــار

وعجز خيرت عن معرفة القائل فأردفت نعمة بذات المرارة:

بعد إعدام الشهيد عبد القادر عوده، وهم ينظفون زنزانته وجدوا هذين البيتين مكتوبين علي الجدران بدمه.

وكنت أفكر كيف سنخرج خيرت من المكتب، وكيف سأتخلص منه بعد ذلك..أنا في حاجة للاختلاء بنفسي..

أريد أن أفكر في صفاء كي أستطيع اتخذ القرار..

فمن أجل ذلك...افتح عيني وأراقب... وأتعلم..

***

دنيا لا كبقية الدنا ...

ورؤية لا كبقية الرؤى ..

ويوم ما ظننت أني ملاقيه.

ويشملني الدوار وتختل العلاقات بين الأحياء والأشياء فأضع يدي علي جبهتي قائلا: - ما أفظع الصداع

يسألني السائق بانزعاج مصطنع:

- هل تأمر بأن أذهب بسعادتك إلي المستشفي يا باشا؟.

- لا..بل إلي القصر..مجرد إجهاد عدم النوم.

لكنني أتمني أن يجيء الموت بغتة. أن أموت كالسادات سيدا في ذرا المجد لا أعالج كربة الموت إلا لحظة، حين تكون لحظة الإدراك هي ذاتها لحظة التلاشي، لم أعايشه معايشة القريب ولم أره إلا علي وجه موسي صبري في أيامه الأخيرة عندما رأيت عذابه المروع والمخيف وتناوب الغيبوبة والصحوة عليه، لكنه لا يصحو إلا ليتمني أن يأتي الموت كي يريحه، وكلما اكتشف أنني موجود ناداني بصوت يقطر بخلاصات التعاسة واليأس: أريد أن أموت، كما لو أنني أستطيع أن آتيه بالموت، قضيت عمرا جعلته فيه يظنني الخيل الوفي وأنه لو أراد العنقاء لأتيته بها، لذلك ربما خال أنني كفيل بإحضار حتى الموت، وبكيت. وما أقل ما أبكي... بكيت علي نفسي لا علي موسي فلم أحبه، أنا لم أحب أحدا أبدا في الدنيا، بكيت علي نفسي حين تخيلتها مكانه تموت كما يموت وتتعذب كما يتعذب... وعادت بي الذكري إليه في موته والسادات يقول له في جمع حاشد:

- يا موسي لقد رفض أبراهام ما عرضوه عليه في الخارج، لذلك أريدك أن تكافئه، عينه بمرتب رئيس تحرير. وكان الرئيس يعلم والجمع الحاشد يعلم وموسي يعلم أنني ما رفضت شيئا بل قبلت، وتعلمت درسا جديدا من دروس اللعبة.

لا أحد..لا أحد..

ما أفظع الزحام لكن لا أحد.. ما أكثر الناس لكن لا أحد.. واعتصرتني الحيرة وأنا أغادر المؤسسة، حيث تخلصت من خيرت بسهولة غير متوقعة بمجرد أن قلت

له:

- من المناسب أن تكون في مجلس الشيوخ الآن فقد يطلبك الرئيس للاستشارة.

ونظر إلي بعين شك يغذيه تاريخ طويل من السخرية والمقالب لكنني أردفت:

- وقد يطلبك إبراهيم شكري لمنصب في الوزارة.

فرمقني بنظرة يتصارع فيها شك الإنكار والرغبة في التصديق قائلا:

بعد ما كان بيني وبينهم. -

فتصنعت الجد قائلا:

- أنت سيد من يعرف التوازنات التي تحكم تشكيل الوزارة.

فحملقت عيناه في اللاشيء قليلا ثم هرول إلي سيارته فجأة حتى دون أن يودعني.

وجاء أحد السكرتيرين يجري خلفي صارخا:

- مقال الغد يا باشا.

أنا لا أكتب يا غبي، أنا أكبر من أن أكتب، الأغبياء مثلك يظنون أنني أعجز من أن أكتب لكنني أكبر، أنا أخطط وأدبر، كان الخائب عبد الوهاب هو الذي يكتب مقالاتي ويرسلها إلي التحرير مجموعة بالكمبيوتر علي ورق مكتبي لكنه استهان بالأمانة وفرط في الثقة فأخذ يرسلها بخط يده علي أوراق مكتبه حتى تهامستم بالفضيحة.

- تركته مع عزت للمراجعة والجمع.

لست غبيا كما ظننت يا سمير وقد تكون أبرع مني. قلتها وأنا ألمح عنوان مقاله في الصفحة الأولي من الطبعة الرابعة من صحيفته:

(عهد جديد مبشر بالأمل تحت رئاسة إبراهيم شكري)

في الطبعات الأولي من نفس الصحيفة سباب قذر.

يشاع أن مبرمج كمبيوتر عبقري أعد له برنامجا هائلا، لم يعد يحتاج للكتابة بعده، ويتردد أن الفكرة نشأت في ذهن المبرمج أثناء صلاة الجمعة في أحد المساجد النائية، حيث راح الخطيب يدعو الله- من الكتاب بالغ القدم في يديه – أن يطيل عمر السلطان بيبرس، والتقط الفكرة فأعد لسمير برنامج مقالات يصلح في كل مناسبة مهما كانت، ما عليه إلا الضغط علي أزرار قليلة يحدد فيها اليوم والتاريخ واسم من يكتب عنه وهل يمدح أم يذم، ويقوم الكمبيوتر بالباقي حيث غذاه المبرمج بكل ما سبق لسمير أن كتب.

ولا يقتصر الأمر علي هذا، إذ أكد لي ثقة أنه حتى سمير لا يقرأ ما يكتبه له الكمبيوتر.

قبل أن تغادر السيارة المكان جاء عزت يلهث:

– ماذا تفعل في الفصل الخامس من روايتك: (إبراهيم شكري رئيسا للوزراء)؟

فقلت له في ضيق وتبرم:

– تصرف يا عزت، ألا يريد أحد أن يعمل في هذه المؤسسة غيري.

– بل أريد أن أعرض علي سيادتك اقتراحين لتختار أحدهما.

– ما هما؟

– أن تتوقف الحلقات فجأة والناس سينسون كل شيء في الظروف الجديدة.

–والآخر.

– أن أحاول بأقصى سرعة كتابة فصل أخر أغير فيه اتجاه الرواية بدرجة ١٨٠، فيتمكن إبراهيم شكري ببراعة منقطعة النظير من قيادة البلد إلي بر الأمان.

– هل يسعفك الوقت؟

فقال باسما ومجاملا.

- بفضل عبقرية سيادتكم لدينا أعظم ورشة للكتاب في العالم، ليس عليكم إلا إعطاء إشارة الاتجاه وستجد كل شيء كما تحب. لو أردت أن تكون الرواية مكتملة في المطبعة غدا بصورتها الجديدة فستكون.

وقلت في إعياء:

- تصرف يا عزت.

ما أفظع الصداع. ومقالتي في الغد لا أعرف ماذا سيكتبون فيها.

لكن محمود السعدني يطلق شائعة أن الصحيفة تباع ب٢٥ قرشا عندما أكتب مقالتي وبـ٥٠قرشا حين لا أكتبها.

لماذا يخون الناس؟ ولماذا يخون الزمن؟، حتى جورج بوش قد خاننا في يوم نحس وذهب، كلما راهنا علي رئيس أمريكي نحسناه، وغدا ينبشون القبور وتنطرح الجيف في العراء وتزكم الرائحة الكريهة الأنوف عندما يعرف القاصي والداني حقيقة المبادئ التي حركتنا في حرب الخليج. والحمقى في الغرب لا يدركون أن حجم الحرية الذي قد يصلح لهم قد يقتلنا، ولم يستنكف مساعد كلينتون أن يسخر من حديث بوش عن النظام الجديد بقوله أنه شيء لم يصدقه في العالم إلا حفنة من العرب.

عندما أمرت السائق أن يذهب بي إلي القصر لم يكن ذلك لحبي للقصر وإنما لأنه لا يوجد مكان أخر اذهب إليه ولا أحد أحدثه، فما أفظع الخواء، عشرات الآلاف يملئون الشوارع يسدون الأفق بالزحام لكن لا أحد. أمن أجل هؤلاء تكتب يا عادل؟! أمن أجلهم ضيعت عمرك؟! لكنهم ليسوا بشرا. ليسوا سوي حيوانات جائعة يكفيهم أن تلقي إليهم بكسرة من الخبز وتعطيهم مأوي، ولولا ما يستترون به لرأيت ذيولهم تهتز عرفانا وشكرا. ليسوا رجالا ولا بشرا وإنما أنصاف رجال وأشباه بشر. حلقة وسيطة في التطور الحيواني والدرجة الأخيرة في سلم التطور

والنشوء قبيل اكتمال تحول القرد إلي إنسان. يا عادل أنت لم تسافر مثلي ولم تر بشرا حقيقيين كالذين أراهم. البشر في أمريكا وأوروبا، وعليك أن تتخلي عن أوهامك وتعترف. لا حق إلا القوة ولا خير إلا اللذة فاعترف.

ماذا يغريكم علي الثبات رغم كل الهزائم التي ألحقناها بكم، ورغم كل الكذب الذي نشرناه عنكم والافتراءات التي ادعيناها عليكم، لماذا؟ ألم يكن عبد الجبار هبيلة رفيقك في الفكر والمعتقل. أرأيت الآن أين أنت وأين هو. لم يحمل من اسمه إلا صفة العبد. يا عادل هل تظن أني احترمه أو أقدره أو أحبه؟ لا. فأفق. ألم يكن يساريا يذرف دموع التماسيح علي الفقراء، ها هو ذا الآن يلهث خلف ذهب المعز بعد أن أرعبته لمعة سيفه.

لقد قال فهمي هويدي ذات مرة أن اليساريين من واقع إيمانهم بقضية العدل الاجتماعي أقرب فهما لجوهر الإسلام من غيرهم، لكن عبد الجبار لم يكن- كذلك معظم أقرانه- يساريا، لم يكونوا باحثين عن أي شيء سوي ادوار لأنفسهم، أدوار يعرفون في أعماقهم أنهم لا يستحقونها. لم يعد معظمهم خطرا، والأهالي أصبحت أقرب لقلوبنا من الوفد، و روز اليوسف التي هزت ذات يوم عروشا أصبحت أحب إلينا من آخر ساعة، وعبد الجبار هبيلة يقف بين الجمع الحاشد هاتفا: ديمقراطيتك الناقصة شرف يا أفندينا. لا خطر لهؤلاء لكن فهمي هويدي خطر ولا أدري كيف يسمح له إبراهيم نافع بالكتابة، خطر كبنت الشاطئ ومحمد سيد أحمد سلامة فأولئك - جميعا رغم اختلاف اتجاهاتهم ورؤاهم - لا يفهمون جوهر رسالة الصحافة في ترويض الأمة كما يروض الحيوان المفترس كي يصبح أليفا، يستغل جهده ويجز فراؤه ويشرب لبنه ويطعم من خشاش الأرض ثم يذبح إن جن أو ظهرت عليه بوادر المقاومة أو الاعتراض، وظيفة الصحافة أن تقمع كل محاولة لتجميع هذه الحيوانات البشرية، وأن تهدم أي حد أدني لفكر مشترك أو هوية

واحدة، فتجمعهم خطر، ووظيفة الصحافة توقي هذا الخطر. وظيفتها بلبلة فكر الناس ونشر العداوة والبغضاء والتربص بين فئات المجتمع، عدم السماح للأمة أبدا بأن تدرك السمات المشتركة بين طوائفها، وأفرادها، الجامعات والمعاهد والمدارس للعلم فقط وأي محاولة للمشاركة السياسية يجب أن تعامل علي أنها إثم يستحق العقاب الشديد، المصانع والشركات كذلك، في المساجد يجب ألا يتردد إلا وجوب طاعة الحاكم وان فسق، أما في الشارع فالمظاهرات ممنوعة، ولقد أبليت في صحفي في هذا الصدد كأعظم ما يكون البلاء وجاهدت أفضل الجهاد، إذ لم يقتصر دأبي علي أن أجعل المتمردين علي هذه القوانين مجرد مجرمين عاديين، بل أن يشهر بهم كأفظع ما يكون، لكم دبلجت صورا وزيفت حقائق كي أشوه صورتهم، لكن ما أمر أن تأتي الطعنة من صديق كإبراهيم نافع، وفي الأسبوع الماضي طعنتني الأهرام طعنة غادرة حين نشرت طلب المتهمين بعرضهم علي الطبيب الشرعي، فأجاب القاضي أن ملفات تقارير الطب الشرعي عنهم موجودة أمامه بالفعل فصاح المتهمون في ذهول: لكننا لم نعرض عليه!!. وفي نفس اليوم نشر أن قوائم الحكومة فازت بالتزكية في ٨٥٪ من الدوائر، وتلك يا إبراهيم مؤامرة تدبر لكنها فضيحة لا تنشر، لكم سيسخر العالم منا، لأنها طريقة في التزوير تفوق حتى طريقة ال٩٩٫٩٩٩٪، طريقة تفوقها ولم يسبقنا في العالم إليها أحد فلماذا تفضحنا؟ وما هكذا الصحافة يا نافع، أنت بهذا تشوه الدولة لا الأمة، وتهدر علينا جهد عام من العمل الشاق، ويضاف إلي أوزارك وزر أخر، وظيفتنا يا إبراهيم أن نشكك الناس في كل شيء، أن ننشر في الصفحة الأولي خبر وفي الثانية نقيضه وفي الخامسة تأييدا للأول وفي العاشرة تأكيدا للأخير وفي الأخيرة تكذيبا للجميع، ألا ندع الناس يثقون في شيء أبدا ولا يركنوا إلي أي يقين، أن نجعلهم دائما في مرحلة الشك، مرحلة البين بين، لا يقين يستقر ولا اكتشاف يكتمل، ذلك يبقيهم يا نافع مشلولين عاجزين عن الثورة

والتمرد، عاجزين عن مواجهتنا، لأنهم ليسوا علي يقين كامل بأنهم علي صواب أو بأننا علي خطأ.

لذلك وددت دائما ألا تجعل أحدا سوي أنيس منصور يكتب لك، ولو أنني مكان الرئيس لما اخترت سواه وزيرا للإعلام، لكن الرئيس اختار إبراهيم شكري رئيسا للوزراء، وإبراهيم شكري لن يختار أنيس منصور ولا أبراهام أبو سعدة، فتري أين أكون غدا؟

يكبح السائق مقود السيارة بعنف فتطلق مكابحها صفيرا كالنواح وانتبه إلي صعلوك كدنا ندهمه ونتوقف حتى يعبر، يا إبراهيم شكري هل تريدني وهذا الصعلوك سواسية كأسنان المشط؟ كلا.

يدير السائق – كما عودته – المذياع لأسمع نشرة الأخبار.

سيعلن تشكيل الوزارة فعلا بعد عشاء اليوم أو ضحي الغد.

إبراهيم شكري يوجه إنذارا للصرب بالانسحاب بلا شروط ويكلف الفريق سعد الدين الشاذلي بتشكيل قوة للتدخل الفوري بصلاحيات مطلقة.

إنهاء مقاطعة العراق وليبيا.

محادثات نشطة للوحدة بين مصر وليبيا والسودان.

عادل حسين يصرح بحق اليهود بالحياة في فلسطين كأفراد لا كدولة.

إطلاق حرية تكوين الأحزاب وحرية إصدار الصحف.

الحزب الشيوعي ليس ممنوعا من ممارسة نشاطه.

الدكتور حلمي مراد مع نخبة من رجال القانون يشرفون علي الاستفتاء علي الدستور الجديد وعلي إعادة جميع الانتخابات من القاعدة إلي القمة.

شيخ الأزهر ورؤساء الجامعات والمحافظون بالانتخاب.

تحقيقات شاملة في جميع قضايا التعذيب والتزوير والاختلاس والتهريب.

طلب إلي السفارة الأمريكية بتقليص عدد موظفيها إلي الحدود المعقولة.

إبراهيم شكري يناشد الأمة. لقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن انحرفت عن الحق فقوموني ولو بالسيوف، فوالله إني لا آمن مكر ربي ولو كانت إحدي قدمي في الجنة.

ليس ثمة معصوم بعد الرسول صلي الله عليه وسلم لكنكم أنتم لا تجتمعون علي ضلال.

....

يواصل المذياع إذاعته فأهتف من قلب مكلوم: يا إلهي، هذه أخبار قرن لا أخبار يوم.

فتحت بوابة القصر الإلكترونية ونزل السائق ليفتح الباب في أدب:

- تفضل يا باشا.

السائق يحمل درجة الليسانس من كلية الألسن، والطاهي يتباهى بشهادة الثانوية الفندقية، لو مضت الأمور كما تمنيت ذات يوم لكان الآن زميلي أو لكنت طاهيا في قصر سمير.

السفرجي أيضا يحمل شهادة جامعية أما مديرة القصر فإنجليزية.

يجهز لي الحمام الساخن ويأتي المدلك ليدلك جسدي، تلميذ الدكتور علي العطفي، وقد عرفني به عبد العاطي شاكر قبل أن ينقلب علي، الخائن، استصدرت له من القوانين ما جعله يجمع المليون الأول ثم جعلته يخرق من القوانين ما جعله يضاعف المليون إلي ملايين وملايين لكنه عرف الطريق والطريقة فاستغني وبدأ يخطط ليحل محلي، فكيف ينتصر التلميذ علي أستاذه. وحاصرته بعشرات التهم الأخلاقية، وكشفته أمام الكافة لكن الخائن جاء في الأسبوع التالي بشريط تسجيل

جعلني أنا أبراهام بلحمه وشحمه أذهل لمدي ما يمكن أن تصل إليه الخسة بالإنسان، وراح يسال الموجودين:

- هل تعرفون الرجل؟

فيتهامسون:

- وهل من أحد غيره..

فيتساءل مرة أخري

- وهل تعرفون المرآة؟

- لا

فيجيب في نشوة المنتصر الذي أوقع بعدوه الضربة القاضية:

- إنها زوجتي

كان يجب أن يموت.

تبسط المائدة، لكن مسز مارجريت في صرامتها تطلب مارينا العلمين لأكلم الأسرة أولا، فتجيبها المديرة الفرنسية لقصر مارينا أن لا أحد هناك.

لا أحد. لا أحد هناك ولا هنا. ولا في أي مكان آخر يوجد أحد.

ازدرد الطعام، لدي المال والنفوذ والجاه والسلطة وما اشتري به كل ما يشتري، لكن كل شيء خواء، وقد سلبت ما لا يشتري.

كنا في النقابة وقلت لموسي معابثا: هل تؤمن حقا أنه وجد دون أب أم انه كما يقول عنه أبناء عمومتنا؟ واحمر وجه موسي غضبا وتدخل عادل ليقول كيف تصدق انه دون أب بينما جدك الأول قد وجد دون أب ولا أم فبهت.

لكنني لست كما تظن يا عادل، أنا أؤمن، لكنني أؤمن أيضا أن يترك ما لقيصر لقيصر.

أؤمن بان الله خلق الكليات وترك الجزيئات لنا، نصوغها نحن كما نشاء، وأؤمن بأن الصلاة والصوم والزكاة فرضت في وقت لم يكن يوجد لتهذيب الإنسان سواها أما وقد وجد البديل فما حاجتنا إليها، كحاجة الأقدمين للإبل: سفن الصحراء، هل يحتاجون إليها في زمن سفن الفضاء، وكحاجتهم للرق والتعاويذ، ولم يكن يوجد سواها فهل يحتاجون إليها في زمن الهندسة الوراثية.

اصرف الخدم، لا يقر لي قرار، أتجول في أرجاء الجناح كالمجنون، أطالع انعكاس وجهي في المرايا، وأسالها كيف هان علي مبارك أن يفعل بنا ذلك، ألا يدرك كم الجرائم الهائلة التي فعلناها والتي سيكتشفها إبراهيم شكري ورجاله غدا؟ ماذا سنقول عن مليارات هربت، وعمولات قبضت، وأموال اختلست، وطاقات أهدرت، وانتخابات زورت، وأرواح أزهقت، وأجساد عذبت، وأخبار كاذبة نشرت، وفضائح لفقت، وحقائق شوهت، وبيانات أخفيت، وعلاقات قطعت؟ يخيل إلي لو اكتملت اللعبة فسيكون للقاضي اختصارا للإجراءات لا أن يسألنا عما ارتكبنا من جرائم بل علي ما لم نرتكب.

استند والدوار يكتنفني – قبل أن اشرب – علي البار، لماذا فعلت بنا ذلك يا سيادة الرئيس، علي حين غرة، في جزء من الثانية فوجئت به يفاجئني بنظراته الساخرة فانتفضت، فأدركت فورا أن ليس هو بل انعكاس صورته الضخمة علي المرايا، فهل يتحتم غدا أن أضع إلي جوارها صورة إبراهيم شكري.

هذا البار من الصدف الخالص والبللور النقي، تحفة فارسية، ولطالما تضاحكت مع الصحاب مدعيا أنه هدية من الخميني، لكنه في الواقع هدية من الحاجة كاملة، قطعة فنية رائعة ضاهي ثمنها العشرين باكو منذ عشرة أعوام وكان ثمنه الحقيقي يصل إلي ١٠٠٠٠٠ ألف جنيه، لكن ظروف اكتساح الثورة الإسلامية لإيران دفعت مالكي هذه التحف إلي تهريبها بأبخس ثمن.

ولقد رددت لها التحية بأحسن منها.

أرقب ما بداخله من زجاجات مرصوصة، بلاك أند هوايت، أبسليوت فودكا، جون ووكر، وايت هورس، الفريد هينكين، دومبل، كور'فوازييه[1]، احتاج أن أشرب ما في البار كله حتى أنسي أن إبراهيم شكري يشكل وزارته الآن.

أعد لنفسي كوكتيلا وأحضر الكافيار والسيمون فيميه.

من خسر الآخرة بما فيها لا يطيق أن ينقص حظه من الدنيا شيئا.

بتولي إبراهيم شكري رئاسة الوزراء أخسر الآخرة والدنيا.

فلقد راهنت بعمري كله علي الحضارة الغربية والنظام الجديد.

يا حمقي لقد كانت النازية والشيوعية مجرد نتوءات وأورام في حضارة الغرب، وكانت فروعا منها أمام الحضارة الإسلامية فهي المناقض، هي العدو الذي يهدد ويمكن أن ينتصر، يمكن أن يقدم للدنيا بديلا عن حضارتكم.

كيف تسكتون إذن؟

وكيف فجر الرئيس قنبلته.

إنهم خطر... خطر...

ماذا يريد إبراهيم شكري وماذا يريد حلمي مراد؟ وماذا يريد عادل حسين، ولماذا تتركونهم؟

لو تركتم لهم الفرصة لن يكونوا زعماء محليين طيبين ينشرون مكارم الأخلاق في القاهرة وضواحيها فقط ولا ربوع مصر فقط، ولا في العالم العربي وحده، ولا في العالم الإسلامي كله، هم يقولون – يعترفون ولا ينكرون – أن رسالتهم موجهة إلي العالم، العالم قديمه وحديثه وحادثه، ولديهم تصور شامل للكون منذ بدايته وحتى

(١) اتصل بي صحافي من تلاميذ أبراهام وأخبرني بهذه المعلومات وبالأصناف الموجودة في البار الموجود بمنزله.

نهايته، والخطير أكثر وأكثر في إيمانهم بما يدعون إليه، بما لا يقاس ولا يقارن مع إيمانكم بحضارتكم.. ذلك أن الاقتناع بحضارتكم مبني علي الاقتناع بنظريات سرعان ما تتغير، ما يثبت فسادها وبطلانها لتنشأ مكانها نظريات أخري تؤمنون بها من جديد مدركين أنه إن هي إلا أعوام حتى تؤمنوا بغيرها.

إيمانهم هم بحضارتهم إيمان بحقيقة مطلقة لا تتعلق بالزمان ولا بالمكان لأنها فوق الزمان والمكان، ولقد علمنا التاريخ أن الفيصل النهائي لنتيجة أي معركة هو درجة اليقين عند أصحابها..ليست نهاية التاريخ فلا تركنوا إلي الدعة، إنهم أخطر من الشيوعيين مليون مرة، فخبروني عن أي زعيم شيوعي في العالم جرؤ علي أن يصادر أموال الناس جميعا لمجرد أن صعلوكا في أطراف قرية قد بات جائعا،أم أنكم لم تقرؤوا مقولتهم: إذا بات امرؤ جائعا فلا مال لأحد. خبروني عن نظام يحاسب الحكام كما يحاسب نظامهم الحكام، ولقد افترينا عليهم فرية كبري يكشفون لعبتنا ليدافعوا عن دولتهم المدنية ضد دول الطواغيت والعسكر.

لا تجعلوا من أحبال أكاذيبنا مشانق لنا. لقد كذبنا كثيرا كي نشوهم – وليس الكذب عارا – ولقد حاربت حضارتكم منذ أكثر من ألف عام وارتكبتم مع شعوبهم أبشع جرائم التاريخ ، ولقد خدعتموهم وهزمتموهم وقتلتموهم وأجعتموهم وصدرتم لهم لحم الكلاب كي يأكلوه، وصدرتم لهم السموم والأوبئة والأمراض واستنزفتم عقولهم بعد أموالهم وفعلتهم معهم كل ما يمكن أن يفعله نصاب مجرم مع قروي ساذج أو ذئب شرس مع حمل شارد، وبالرغم من ذلك كله وعلي الرغم منه كله فان تعدادهم يزداد وأرضهم تتسع وتشبثهم بحضارتهم يزيد!

لا تركنوا للدعة والأمان إذن، أجداد لهم هزموا المشرق والمغرب في ربع قرن.

لقد كان أملنا دائما أن ننجح في أن تشوههم، أن ننشر الأكاذيب عنهم وننشر الشائعات حولهم، وكان كل هذا ممكنا ما دام إبراهيم شكري بعيدا عن الوزارة، عن

السلطة.

***

إياكم وما يحدث ..

طالما كان إبراهيم شكري بعيدا عن السلطة كان في إمكاننا أن ننقل للناس لا ما يقوله بل ما ندعي نحن انه يقوله، ولا ما يفعله بل ما نتفق سويا علي أن ننسبه إليه، والناس لا يعرفون الحقيقة، لكننا نحن نعرفها، نعرف أنه لم يقل ما ادعيناه ولا اقترف علي ما اتفقنا علي نسبته إليه.

ماذا نفعل إذن إذا أصبحت السلطة في يديه؟!

إننا والسلطة كلها في أيدينا لم نستطع مواجهته ولا مواجهة حزبه وهو في المعارضة إلا بأساليبنا الخاصة، فكيف إذن نواجهه ونحن في المعارضة؟!

لماذا تظنون أن مشاعر الناس تجاهنا تختلف عن مشاعر الرومان تجاه تشاويشسكو والألمان تجاه هونيكر والمصريين ضد كرومر.

لماذا، أنتم لا تعرفونهم إذن، وغدا تسفر هذه الحيوانات البشرية عما لم يخطر لكم علي قلب، غدا تنفجر فينا من جموع دهمائهم مشاعر السخط والغضب والكراهية والاحتقار والرغبة في الانتقام، في الكشف، في معرفة الدخائل والأسرار..كيف استطعنا خداعهم طول هذا الوقت والسيطرة عليهم كل هذا الزمن، أم نسيتم ماذا حدث في سفارتكم في طهران.

هل تظنوا أن المصريين يختلفون؟

لا تكرروا خطيئتكم في إيران إذن، لا تكرروها فإبراهيم شكري أخطر، حزب العمل أخطر والاتجاه الإسلامي أخطر، والمصيبة أن هذا يحدث بعد أن فشل كل اتجاه عدا الاتجاه الإسلامي، هو وحده الذي لم يجرب، الشيوعية فشلت والفاشستية صلبت والنازية سحقت، أما الرأسمالية فلا دور لهم فيها إلا دور العبيد، وهم

يدركون ذلك، فلا تغامروا.

وبرغم كل سلبيات التجربة الإيرانية، سلبياتها الداخلية والخارجية، ما نشأ من صلب التجربة وما نتج عن احتكاكاتها بالخارج، ثم ما نتج عندما حرضنا صدام حسين ضدها وأوعزنا إلي كل حكام العرب أن يساعدوه، برغم كل هذا فقد تمخض الأمر بالنسبة لنا عن نتائج محزنة، لقد اكتشف السنة في جميع أنحاء العالم أن الشيعة مسلمون مثلهم، ضاعت كل أكاذيبنا عبر القرون..إنهم كفرة، ضاعت ادعاءاتنا عليهم التي روجناها عنهم، وما عاد الناس يصدقوننا في أن لهم مصحفهم الخاص ولا أذان صلاتهم، وما عادوا يصدقون منا دعاوى الفارسية والمجوسية عنهم.

بل لقد بلغ الأمر بالبعض أن يهتف دون ضمير يؤنب أنهم هناك هم السنة والشيعة معا..أما نحن فلا سنة ولا شيعة، نجاح الثورة الإسلامية في إيران أدي إلي ذلك، فكيف تسلمون لهم مصر أيضا وكيف تسلبون نظامكم الجديد درة تاجه، وغدا يتكرس نظامهم هم ليدركوا أن ليس ثمة سنة ولا شيعة، بل الإسلام الذي أنزل علي محمد، وأنه ما من المسلمين أحد يعارض صحيح السنة في شيء، وما من المسلمين أحد لا يتشيع لآل البيت، أجهزة الكمبيوتر عندكم لا تفهم ذلك، لكن لماذا لم تجربوا إحصاء عدد الناس المسمين بأسماء آل البيت، كعلي والحسن والحسين مقارنا بمن سموا معاوية ويزيد والحجاج، كم واحد اسمه وحشي وكم واحد اسمه الحمزة.

سينكشف هذا كله، والأخطر من انكشافه هو انكشاف طرقنا في تضليلهم، في خداعهم، في السخرية منهم ومن عقولهم، انكشاف سيهتك منا كل عرض وسيكشف كل عورة، انكشاف سيعجزنا عن مواصلة خداعهم ربما إلي أبد الآبدين. أم أنكم نسيتم رد الفعل الصاعق لموقف إيران من العراق أثناء حرب الخليج،

عندما انكشف الكيد وبانت العورات وقتل السنة ووقف الشيعة يدافعون عن السنة، بل ويقدمون لهم الطعام والمأوي، وفغر العالم فاهه وهو يري الإسلام النبيل يتخذ الموقف الصحيح فوق بحر زاخر، أمواجه دماء مليون شهيد.

هل نسيتم ما حدث أيامها عندما انحدر كاتب كخالد محمد خالد من قمة الجبل إلي سفحه دون أمل في الصعود مرة أخري، حين راح يهاجم العراق ويصرخ مستنجدا

(أدركنا بها يا بوش)، واضعا أقوي حججه ضد العراق بسبب ما فعلته بإيران فإذا بإيران تقف إلي جانب العراق فإذا بالكاتب الكبير يترك مقام الكاتب إلي مقامنا: فيهاجم إيران لأنها تساند العراق، لكن الدهماء تثبت أخيرا أنها ليست عمياء فتسقط خالدا من حسبانها رغم ما كان له في قلوبها، مبرهنة علي أنها تعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

املأ لنفسي كأسا أخر، لا تسرف في الشراب يا أبراهام فالخمر والأمر اليوم، وعليك أن تقرر في غاية السرعة أين تكون غدا. قبل أن يدور رأسي اتصلت بالمفوض بعد أن أوصلت الجهاز المانع للتصنت، ليس لديه جديد سوي أن أصدقاءنا في اجتماع مستمر من أجلنا وانه سيخطرني فور اتخاذ قرار.

تري، في مثل هذه اللحظة تماما غدا: أين أكون؟!. ببطن الأرض أم علي ظهرها في احد تلك السجون التي أنكرت طول عمري ما يحدث بداخلها؟ فهل يحدث لي غدا ما أنكرت؟!

هل يكتبون في نعيي غدا – إن وجد له مكان – يا أستاذ الأستاذة لم يكن غباء مني بل حيلة منك وقعت فيها لتظل المؤسسة تضحك علي شهورا، ولم يكن غبائي هو السبب، بل تعودي الدائم علي أنني إزاء أي رئيس وكل رئيس لا أفكر، فالتفكير هنا ليس مجرد إساءة أدب، بل كفر يستلزم الطرد من المعية، ماذا كنت تريد مني أن

افعل حين جاءك نعي لحمدي البسيوني فأشرت عليه بقلمين: باللون الأحمر كتبت: ينشر، وباللون الأزرق – نفس اللون المستعمل في كتابة النعي الأصلي – كتبت:

(إن وجد له مكان)، وكانت عجلات المطابع تنتظر والعمال يستعجلونني وتأشيرتك تسوطني فأفسحت بصعوبة مكانا للنعي الذي نشر في الصباح التالي:

(......اسكنه الله فسيح جناته إن وجد له مكان).

وظللت بعدها شهورا أظن أنه حتى الجدران والمقاعد تضحك ساخرة مني عندما أمر.

يدق جرس التليفون فأرد:

.....

من؟! سوزي

.....

أين أنت؟

.....

لابد أن لبسا حدث، ولو علمت لكنت أنا لا سمير من يقف معك.

.....

لا....ربما في ليلة أخري.

حتى سوزي ستكون شاهدة غدا علي، لكن كيف كان لي أن أحرص وأنا الآمن، وهل كان معقولا أن أطلب منها إقرارا وأنا الذي أردتها أن تكون لها مفاجأة ومكافأة، حين أفردت لها من صفحات صحفي الصفحات والصفحات عن المتطرفين الذين عرضوا عليها سبعة ملايين جنيه لتلبس الحجاب، واستمر الأمر أسابيع وأسابيع والصحافة المحلية والأجنبية تتلقف الخبر لتنشره وروز اليوسف

تضيف عليه البهارات والتوابل، وفهمي هويدي يظن أهل اليسار أقرب للذين من واقع إدراكهم لقضية العدل الاجتماعي، لكنهم ليسوا أفضل منا بل أحمق، فنحن إن خسرنا الآخرة فقد نلنا الدنيا أما هم فقد خسروا الاثنتين.

ماذا يمكن أن أقول عندما تعترف سوزي بأن شيئا من ذلك لم يحدث قط؟.

ماذا نفعل عندما يفتحون أوراقنا ليحصوا أمام الناس كم كذبنا.

أي فضيحة هائلة ستنفجر؟ وكم نظاما سيتهاوى؟

ولقد أصبناهم باليأس دائما لأننا كنا دائما نبدأ نفس البداية بنفس الأسئلة، مهما شرحوا ومهما أبانوا، لكن الخطر أن نصدق أنفسنا فيما قلناه عنهم، خطرا يحيق بنا لا بهم.

لقد حاولنا دائما أن نحاصرهم بطريقة عبقرية، أن نوهمهم بأن الحرية في بلادنا مطلقة، أن يكتب من يشاء وأن يتكلم من يشاء..لكننا بتحكمنا في منافذ النشر والتوزيع والدعاية والنقد استطعنا دائما أن نحاصر فكرا معينا وأن ننشر آخر، وان نثبت في عقول الدهماء عنهم ما نشاء، ولقد استطعنا أن نحصرهم في دائرة مغلقة يكتبون لأنفسهم ويقرأون لبعضهم البعض ليزدادوا اقتناعا بما هم مقتنعون به أصلا..لكن تظل دائرة انتشار الوباء محصورة فيهم، كمثقفين لم يكن منهم خطر، كان الخطر يأتي من بعض الشباب الطائش الذي يتأثر بهم دون أن يكون له عمق معارفهم وشمولية فكرهم وكانت أجهزتنا تتكفل بهذا الشباب الطائش بمنتهى الضراوة والعنف، وكان معظم هؤلاء يرتدعون وهذا خير، لكن الخير الأكبر كان فيما لا يرتدعون، لقد جعلنا ظهورهم للحائط، دفعناهم إلي حالة اليأس المطلق التي يمكنهم معها فعل أي شيء، وقد فعلوا فبادرناهم بيد من حديد، أم نسيتم من قتل في الشوارع أمام الناس ومن قتلوا بعد القبض عليهم دون محاكمة ومن قتلوا وهم نيام. في السجون أيضا عرضناهم لأبشع أنواع التعذيب لا لمجرد التنكيل فقط بل

لكي ينتقم لهم زملاؤهم في الخارج فنخلق تبريرا لعنفنا معهم ولكي نضعهم أمام الأمة في صورة الإرهابيين القتلة، كي نكسب تعاطف الناس معنا وتأييدهم لنا، ولقد وجد دائما من حذرنا من أن العنف يو لد العنف جاهلين أن هذا ما نوده، فهذه هي فرصتنا الدائمة لتصفيتهم، أما منظروهم وقادتهم الذين يفهمون سر لعبتنا فقد كنا نأمل إزاء اليأس والغضب أن يدركوا أنهم يلهبون وجدان الشباب بكلماتهم فنلهب نحن ظهورهم بسياطنا فيهتاج الكتاب أكثر ويزدادون عنفا في مهاجمة السلطة، لكن السلطة لا ترد الصاع إلي الكتاب وإنما ترده صاعين إلي الشباب.

كنا ندرك أن اللعبة لا يمكن أن تستمر هكذا في دائرة مفرغة، وأنه من المحتم أن يحدث انفجار في اتجاه ما، فإما أن نتمكن من القضاء علي الشبب فيسهل علينا أن نمد ذراعنا الطويلة لسحق الكتاب والمثقفين دون خشية انتقام الشباب، وإما أن يدرك المثقفون حقيقة اللعبة وحتمية القضاء عليهم في النهاية فيتحولون هم بأنفسهم إلي الإرهاب، يستبدلون قلما يدركون أنه – بسبب جهودنا لمحاصرته – بلا قيمة بالخناجر والقنابل والمدافع.

وكنا من النجاح قاب قوسين أو ادني فالغرب معنا وإسرائيل معنا، لكن الرئيس مبارك يقلب المائدة علي الجميع فينقلب كل شيء.

هل يظن واحد – حتى لو كان معتوها – أن نظام الحكم عندنا يحتمل انتخابات غير مزورة.

أو أن أحدا من النخبة الحاكمة يحتمل البقاء إذا ما أمسك الإسلاميون الحكم. وليس الخوف من سلب الامتيازات ما يخيفنا ولا حتى الخوف من تطبيق الحدود علينا بل الرعب من تطبيق قانون الجنايات دون حصانة.

الخطر الخطير أن نصدق نحن أكاذيبنا ، لقد خوفنا الناس مثلا من إقامة الحدود، وفي جهودي أن أعرف كي أجيد المهاجمة، اكتشفت أن إقامة الحدود ستقتصر علي

المؤمن لا الفاجر، وأنها لو طرحت الطرح الصحيح لنادي بها الفاجر قبل البر، ولقد ذهلت وأنا اعرف الشروط التي وضعت لجواز إقامة حد، عشرات الملابسات والظروف التي تلغي إقامته، ضرورة أن يعترف المحدود أمام أكثر من قاض في أكثر من جلسة وأن يبدي له القاضي كراهته لسماع اعترافه، فإذا أصر علي الاعتراف وجب آن يأمره القاضي بالكذب! لدرجة انه لا يصح إقامة حد السرقة مثلا دون أن يقول القاضي لمن اعترف : (أسرقت.. قل: لا) فإذا أصر المتهم بعد هذا كله علي الاعتراف حكم عليه بالحد، إلا انه ليس حكما نهائيا، فإذا شاء أن يسحب إقراره واعترافه في أي وقت أوقف تنفيذ الحد، فإذا لم يفعل ذلك وبدئ فعلا في تنفيذ الحد فرجع عن اعترافه أوقف التنفيذ فورا، ولا يشترط في سحب الاعتراف أن يكون باللسان بل يكفي أن يسحب يده أو يجري كي يعتبر هذا سحبا للاعتراف يوجب وقف إقامة الحد.

ونفس هذه المحاذير تنطبق علي حد الزنا وان كان إثبات الزنا أصعب، وفي جميع الأحوال تدرأ الحدود بالشبهات.

وعندما سمعت هذا من منظريهم ظننتهم يسخرون مني، يخفون عني ما يعلمون أني سأستعمله في الهجوم عليهم، في تسفيه فكرهم وتشويه حكمهم، لكنني عندما تأكدت من صدقهم صرخت فيهم :

- الأمر كله عبث إذن ولن يقام الحد علي احد.

فاستغفروا قائلين.

بل يقام علي من لو وزعت توبتهم علي أهل القاهرة لوسعتهم.

وأخذوا يشرحون لي كثيرا كيف أن الحدود في الإسلام ليست وسيلة عقاب بقدر ما هي وسيلة ارتقاء بالنفس وتوطيد لعلاقة الروح بخالقها، وأنها عندما تطبق سيكون جل تطبيقها علي من يتقدمون طواعية للاعتراف علي أنفسهم، مصرين

علي عدم الإنكار رغم إظهار القاضي كراهته لاعترافهم، بل ونصيحته لهم بالكذب.

هل كنت أستطيع أن أقول للناس ذلك، أم كان يجب علي دائما أن أصيبهم بالرعب: انه لو قام حكم الإسلام فسيكونون جميعا بين مرجوم ومبتور ومجلود.

هل كان يمكن أيضا أن نناقش عادل حسين في رأيه في السياحة دون أن نشوهه، هل كان يمكن أن نعترف للناس انه ليس ضد السياحة بل ضد ما يصاحبها من عهر وسكر وزنا، هل كان ممكن أن نعترف للناس بذلك.

لكننا غدا سنضطر للاعتراف بكل ذلك أمام المحاكم التي سيشكلونها لنا.

رأسي يدور.. هل هو دوار الخمر أم دوار اليأس أم دوار الإرهاق وعدم النوم. أتجه إلي فراشي الوثير، بالريموت كنترول أدير التكييف والفيديو وأضبط الأضواء.

لا رغبة..

أنشغل عن الدقائق الأولي من العرض لكنني ما ألبث أن أقفز من فراشي كأنما لدغني الثعبان فقد كان وجه نور الشريف يواجهني في فيلم ناجي العلي، من أحضر هذا الفيلم البذيء إلي قصري، زوجتي أم الأبناء أم جماعة متطرفة، فيلم بذئ بشع يهدم صرح ما بنينا، يوقظ وعي الحيوانات البشرية السائمة ويشعل حميتهم. أعود إلي فراشي بعد إخراج الفيلم، أنتقل إلي التليفزيون، العالم في حرب.

يزعجني الصوت فألغيه وتتتابع المشاهد أمام عيني، وثمة جيش منهزم لا أعرف في أي مرحلة ولا من أي وطن لكنهم يسارعون بالقفز إلي بطن طائرة هليكوبتر، هل هم ألمان أم إيطاليون أم أمريكيون أم إنجليز أم فرنسيون؟ لا ادري فليس علي الطائرة علامة، ودارت مراوح الطائرة وأوشكت علي الإقلاع وإذا بثلاثة كلاب ضخمة تجري بأقصى سرعتها يقفز اثنان إليها ويتعثر الثالث وتبدأ الصعود إلي الجو وهو معلق بأطرافه الأمامية فيها، يحاول أن يكمل قفزته ولا يقدر. وينتهي المشهد

دون أن أعلم هل استطاع النجاة أم سقط.

يخفق قلبي إشفاقا عليه.

وجدتني في مبني دار الأنباء والمبني ينهار فأقفز من النافذة بعد أن اضغط علي زرار في جسدي فأطير، وأفاجأ بسمير يطير إلي جواري فأضحك قائلا : ركبوا لك أنت أيضا هذا الجهاز، فيقول مثلك تماماً تماماً، ويأتي إلينا المفوض العام لهيئة الأمن القومي يتقدمنا في تشكيل سرب ويحدثنا باللاسلكي : إلي السفارة الأمريكية تعصمكم من الزلزال.. وأطير وأطير، لكني لا أصل.

وأتقلب في فراشي مرهقا فما ألعن الأحلام.

ووجدتني أرقص وأغني وأشرب الكوكتيل وسوزي ترقص أمامي حتى لتفجر في أرجائي النشوة، لكن ظهرها لي ولا تلتفت إلي وكلما درت حولها دارت إلي الجانب الأخر، وأمسكت بها وأدرت وجهها إلي فإذا به وجه نعمة فيستبد بي الذهول وأهتف بها: أنت نعمة فكيف ترقصين وأنت المتحفظة الوقور؟! فترد في أسي: أنا أرقص منذ عشرين عاما، فتبوخ نشوتي، وإذا بالمكان يتلاشى وأجدني في مبني الصحيفة في اجتماع وسوزي تصرخ في هل رأيت؟..أنا رأيت، فأنظر وقد استبد بي العجب وأسالها: ألست الراقصة؟! فتجيب في خلاعة بل أنا أكتب منذ عشرين عاما؟.

وأتقلب في فراشي مرهقا وأنا ألعن الأحلام.

وأجدني بين الصحراء والجبل والغبار والزحام والدم لا أعرف من المتحاربين أحدا إلا محمد نوار بلحيته الكثة فأخذت أبحث عن عادل حسين لأقتله ففوجئت بمحمد نوار يتجه نحوي صارخا: رأس الكفر أمية بن خلف.. لا نجوت إن نجا، فأخذت ابحث عن أمية بن خلف لا مباليا لكني وجدت مرآة تنبسط أمامي فقرأت مكتوبا علي جبهتي أمية بن خلف.. أيس من رحمة الله، فرحت أتساءل من كتبها،

وانتويت إبلاغ مباحث أمن الدولة كي تقبض علي الفاعل.. فلا ريب أنه إرهابي، لكن محمد نوار يتجه نحوي مصرا علي قتلي فأهرب وأنا من الرعب في غاية، وأجدني فجأة في جراج للسيارات فأكمن بينها فتمتد يد جسد لا أراه تعطيني رمحا ويهتف بي الصوت:

هيا يا وحشي.. إن نجحت سأبقيك رئيسا لمجلس إدارة الأنباء.

ووجدت أمامي إبراهيم شكري فطعنته وأخذت ألوك كبده وأحاول ابتلاع الدم فلا أقدر فأصرخ وأصيح، وثمة صوت يهمس متحديا لو وصل دمه إلي جوفك لحرم جسدك علي النار وأحاول في يأس جوني لكنني أصحو وأتقلب في فراشي هاتفا: ما أبشع الأحلام.

ودق جرس التليفون ليسألني مستفيد فوري في هلع ماذا تنوي أن تفعل، وعندما قلت له أنني لم أقرر بعد ظنني أخفي عنه أمري فناشدني أن نترابط كما كنا فذلك سبيل نجاتنا، وتأوه في نواح متسائلا هل سمعت القرارات الجديدة؟ فقلت ساخرا بل كنت احلم أحلاما سعيدة، فواصل: كأن لم أرد. إلغاء.. إطلاق.. إعادة. وتشكيت متأوها: هذا ما خشيت منه، فواصل: وقد أعلنت دول إسلامية عديدة انضمامها لتشكيل القوة تحت قيادة الشاذلي. وقلت له إما أنني مخمور أو أنت مخمور فدعني أنام.

ووجدتني أجري مع آخرين وألهث وأنا من الرعب في رعب، فنخوض المستنقعات والأحراش والغابات ويصيح صوت أن الطائرة الأخيرة ستقلع من علي سطح السفارة الأمريكية فنجري ونلهث، وأحاول أن أطير فلا أستطيع وأتساءل في إعياء عن السبب وأقول لنفسي لابد أن المخربين أفسدوا الجهاز، ووجدت خيرت فظاظة يسبقني فسألته مندهشا كيف تسبقني في الجري وقد كنت تمشي بصعوبة؟ فيجيب ببساطة أنا لا أجري لكنني أتدحرج، فأساله ماذا يحدث،

فيجيب انتصر الفيتناميون وانهزم الأمريكيون ولا بد أن ندرك الطائرة الأخيرة فأجيبه مندهشا لكن الحرب انتهت منذ عشرين عاما.. ويتدخل سمير في الحوار هاتفا ليس الفيتناميون بل العرب.. فصرخت ومن انهزم؟ فأجاب الإسرائيليون.. فبلغ بي العجب منتهاه.. وواصل هو: آخر طائرة ستقلع من علي سطح السفارة الأمريكية في تل أبيب. وقلت لسمير وخيرت لعلنا نحلم فقالا بصوت و حد: يا أحمق بل ما كان هو الحلم وتلك هي الحقيقة، ورأيت الطائرة من بعيد يقفز إليها آخر يهودي، فتدور مراوحها متأهبة للانطلاق فأضاعف سرعتي حتى أصل وأقفز من باب في بطن الطائرة، يتبعني سمير لكن خيرت يتعثر فتطير الطائرة وهو متعلق بيديه في حافة الباب وجسده يتدلى، فأصرخ في مضيفة الطائرة: توقفي لأن خيرت معلق في الباب وسيسقط، فتنظر إلي متراقصة فأكتشف أنها سوزي، ويغلق الباب علي أصابع خيرت فتنبتر دون انبثاق دم فيشملني الرعب، لكن سمير يهمس لي لا تخف .. عن طريق الهندسة الوراثية سوف يصنعون من إصبعه المبتور خيرت أخر. ويشير إلي مقدمة الطائرة فانظر حيث يشير فأري موسي صبري فأهمس له في رعب: ألم يمت موسي صبري فيقول لي بل صنعوا منه نسخة أخري، وأنكمش في مكاني فيصيح قائد الطائرة في صوت هائل: من هذان؟.

وأنطق في همس: نحن أولياؤكم..فيصرخ قائد الطائرة « ضعوهما في الـ(....) وقال كلمة أجنبية لم افهمها فسألت سمير عن معني الكلمة، فقال أنها لغة أمريكية دارجة تعني صفيحة الزبالة..فأخذت ألهث حتى صحوت من الكرب في كرب فقفزت من السرير خوفا من استمرار الحلم.. وأخذت ألعن الأحلام والكوابيس والرؤى..

الساعة تدق الثامنة، علي أن أفكر كما لم أفكر أبدا.. علي أن أفكر وحدي .هذا ما لم أعتده فقد كان يوجد دائما من يفكر لي.. وعلي أن اتخذ القرار وهذا شيء لم أتدرب

عليه فقد كنت دائما أنفذ قرارا.. لكن علي أي حال يجب أن أفكر الآن وأقرر.. لن يكون الأمر صعبا يا أبراهام فقد تدربت طويلا..

وقضيت عمرا بأكمله.. تفتح عينيك.. وتراقب.. وتتعلم

قلت للمفوض:

أما من حل أخر.

فرد في ضيق:

لقد طرحنا كل الوسائل الأخرى، وكلها إما مستحيلة وإما محفوفة بالمخاطر.

ثم واصل في عجلة:

إن كنت موافقا فسوف نبدأ السير بعد ساعة، منتصف الليل تماما.

وقلت في تبرم:

وهل لدي مجال للاختيار؟

إذن فلا تنس قط استعمال جهاز تأمين المكالمات عند إجراء أي حديث من القصر أو من السيارة، ولا تنس أن الاتصال ممنوع بعد شرم الشيخ.

كيف جرؤ إبراهيم شكري؟ وكيف استطاع....؟؟!!!

ويوجه الإنذار إلي كل السفارات الغربية بعدم قبول لاجئين سياسيين، ألا يكرروا ما فعلته السفارة الفرنسية في بيروت.. و إلا تكرر ما حدث للسفارة الأمريكية في طهران.

كيف جرؤ؟ وكيف استطاع ؟، نحن... نهدد السفارات الغربية وننذرها؟!.

قلت لنفسي (لعله) (تهويش) سرعان ما سندفع ثمنه بنكسة، لكن المفوض أكد لي أن قوات أمن تراقب السفارات الغربية من مواقع يمكنها التحول منها فورا إلي حصار.

أبدأ في جمع الثمين من أشيائي، كنت قد قلت للمفوض إنني أخشي علي أسرتي، وإنني أفضل هروبا عن طريق البحر حتى يمكنني اصطحابهم من مارينا العلمين، لكنه طمأنني أن نظاما يرأسه إبراهيم شكري لن يسيء معاملتهم، قد يحتجزهم قليلا من أجل أرصدته وحساباته لكن هذا أمر يمكن التعامل معه عن طريق الضغوط فيما بعد.

أنا صدقته يا عادل!! اندهش كما شئت لكنني صدقته، لأنني في أعماقي الخبيئة أعلم كم أنكم شرفاء، وأنه لا خوف البتة من طغيان هواكم إذا حكمتم، أجل أعرف أنكم إذا حكمتم فستحكمون بالعدل، لكن هذا بالضبط جوهر ما أرفضه.

هل تعرف أن خطأك الرئيسي هو أنك صدقت ما نقول، ووقعت في التناقض دون أن تدرك أن منطقك فقد انسجامه وتوازنه عندما أمنت ببعض ما نقول وأنكرت بعضه، دعني بيني وبين نفسي أقول لك الحقيقة، أقولها حين أثق أن لن يسمعها سواي، أقولها لأنه ما من احد – حتى ولو كان مثلي – لا يتوق – ولو للحظة – أن ينطق بحقيقة تعطيه شيئا من احترام النفس وتقدير الذات، ينطق بها لعلها ترفعه عن الشيطان درجة، وبالرغم من ذلك فلقد رميت كبد الحقيقة حين وصفتنا أننا لا ننطق إلا كذبا ولا نفعل إلا شرا، حسنا وقد أصبت، فلماذا لم تواصل؟!. لماذا كان عليك أن تعذب نفسك كل هذا العذاب وأنت تلقمنا الحجة تلو الحجة، أم ظننتها الدولة حقا وحسبتها الديمقراطية صدقا، لا يا عادل، بل ضحكنا عليكم، خدعناكم وغررنا بكم، ولم تكن الدولة ولا الحق ولا الديمقراطية ولا الصدق، وإنما كنا نحن القراصنة الذين هبطنا عليكم وقطاع الطرق الذين أتينا إليكم، وكنا من غلب فحق لنا الملك، ومن عز بز، أجل يا عادل تلك هي الحقيقة التي خدعت نفسك عنها حين بدأت بأننا كذابون لكنك ما لبثت أنت بنفسك أن تورطت في تصديق كذبنا، فظننت أنها دولة، وأنها حرية، غير مدرك أننا في هذا أيضا

نكذب، فلو أنك فهمت ذلك، هل كنت تندهش بعد ذلك لما يحدث لو أنك تفهم دون مواربة ودون ستار ودون عناء أننا نحكم لا لأننا نمثل الأمة ولا لأننا وصلنا عن طريق الانتخاب ولا عن طريق حق طبيعي أو وراثي أو إلهي، بل لأننا نملك القوة التي لا يمكن لكم أن تشكلوا لها تهديدا ولا تحديا، وليست قوة المنطق ما نملك، بل قوة النار والحديد ومئات آلاف الجند رهن إشارتنا نحركهم كما نشاء نقمعكم بهم ونسفك دمكم ونسفح عرضكم ونهتك ستركم ومئات من السجون المتباعدة ومئات وآلاف من الصحفيين في عشرات ومئات من الصحف.

ذلك كله معروف، بديهي، يعرفه الرجل العادي الذي لا يقرأ كتبا ضخمة عن نظريات صعبة لمؤلفين أجانب، لكنكم أنتم تتجاهلونه لمجرد أننا لم نعترف به علي الملأ، لكن يا عادل هل كل ما يعرف يكتب، وهل كل ما يكتب يقال؟! أم تنتظر مني أن آتي إليك لأعترف: أنا الإرهابي الأكبر واللص الأول والمهرب والمزور والمعذب والكاذب والخادع والمدلس، هل تنتظرون ذلك منا حقا، يا للحماقة، هل سمعتم قبل ذلك عن قرصان تقدم بنفسه إلي العدالة كي يقتص منه، وهل تتخيل يا عادل ولو للحظة أنني كقاطع طريق يمكن أن أستجيب لنداء لك أو كتاب منك؟!. هل رأيت قرصانا يسمح بتداول السلطة إلا من خلال الموت؟!، أم سمعت عن قاطع طريق يجري حوارا ديمقراطيا مع ضحيته؟!.

اجل تلك هي الحقيقة العارية الفادحة، وليس أمامكم من سبيل إلا الرضوخ لها والموافقة عليها، ومن يأبى فالسيف أولي به.

قبل قنبلة الرئيس كنت أمل ألا يدفعن أحدا ذلك إلي حماقة المقاومة، ذلك أن فكرة الدولة – القرصان – قاطع الطريق- قد استفادت من كل خبرات السابقين، ثم أنها حازت تأييد الغرب لتصبح نمط الحكم في العالم الثالث جله، لتصبح قوة أسطورية مركزية إلي جوار ضعف وتشتت قوي الرعاع الحمقاء العمياء التي تفتقد

زعيما. قوة لا أمل في مجرد مواجهتها بله الانتصار عليها.

الآن بعد أن فجر الرئيس قنبلته يهتز يقيني يا عادل.

أنتفض فجأة علي رنين ملحاح للتليفون فأحوله بسرعة إلي جهاز الرد الآلي لأسمع صوت عبد الستار طويلة والجهاز يصرفه، وليس هذا وقتك يا عبد الستار، إنما كنت مفيدا لنا كي نبرهن بك علي فشل اليسار، وأن من ثاب إلي رشده منهم – كأنت – لم ينضم إلي صفوف الرعاع الذين كان يدافع عنهم، بل إلي صفوفنا نحن في مواجهة الرعاع مبرهنا علي صدق رؤانا منذ البداية، إلي صفوف الإمبرياليين الاستعماريين عبيد الأمريكان وكل الأسماء البغيضة الصعبة المضحكة التي أطلقوها علينا ذات يوم، أما الآخرين، الذين لم يثوبوا ولم يتوبوا فلا خطر منهم البتة بعد أن أنهار ربهم بغتة وتساقطت رؤاهم ففقدوا التوازن والاتزان، فأصبحت أمريكا أقرب إليهم منكم يا عادل، فانضموا إلي رجالها ليؤلبوها عليكم، لكنهم منافقون إذ يفعلون ذلك، وسرعان ما سيكتشفون أنهم في المكان الخطأ ليعودوا إليكم مدركين أن لواء التمرد والثورة كان دائما في أيديكم. وعندما يفعلون ذلك لا تركنوا إليهم ولا تثقوا فيهم، فمعظمهم يا عادل مرضي وليسوا فلاسفة، شر أيامهم خواتيمها، كأحمد عرابي، ومحمد عبده، لو أن كليهما استشهد أو حتى مات أثناء الغزو لما شاب اكتمال حياتهم نقصان، ما أقسي أن تموت قضيتك، تنتهي لتظل أنت بعدها حيا بلا قضية، ما أقسي أن يتحول البطل إلي مهرج والمناضل إلي بهلوان، والسيد إلي عبد والمثل إلي أمثولة. لذلك حرصت دائما يا عادل ألا تكون لي من البداية قضية.

أواصل جمع أشيائي، ما خف وغلا، يا إلهي! ما اشد ما تختلف قيمة الأشياء باختلاف مراحل العمر! لو أنني تعرضت لنفس هذا الموقف في كل مرحلة من مراحل عمري لاختلف تقييمي لقيمة ما يخف وما يغلو، في العاشرة ربما كان أكثر ما أحرص عليه دراجة أو لعبة، في العشرين ربما صورة معشوقة، في الثلاثين نقود

وفي الأربعين سبائك ذهب، وفي الخمسين حبات من الماس، أما الآن فما يخف ويغلو ليس أيا من ذلك، بل مجموعة من المستندات والأدلة والوثائق تسجل بكل دقة حجم انحراف كل مسئول وعلاقته بالداخل والخارج، ليس انحرافات مسئولي الوطن فقط، بل وأوطان الأشقاء والأصدقاء أيضا، قد تساوي معلومة منها كنوز الدنيا.

تري لو قيض لي أن أعيش ستين عاما أخري.. وتعرضت لنفس الموقف تري ما يخف أيامها وما يغلو؟

عشرة أعوام فقط تجعل الكبير صغير' والقليل كثيرا، وتلك احدي وسائل الزمن الميئسة في الخداع، إذ ما أن تقبض علي شيء، ما أن تظن أنك وصلت، حتى تدرك أنك تقبض علي الخواء وقبض الريح، لكن ما أقصر العمر؟، ها هو ذا الزمان يدور دورته فيعود كما بدأ، كيف مضي كل هذا العمر وفيم؟ وليس ثمة جواب، لكن غبارا من الشك يشع دمارا، فينطق الصمت أن كل شيء باطل، وأن كل نعيم زائل، لكن الوقت ليس وقت هذه التساؤلات يا أبراهام، فلو فقدت أثر القافلة لضعت.

ألا نوقظ السائق؟.

لا، جولة قصيرة حرة.

ولعله ظن في البداية أنها نزوة طارئة حلت فلم أستطع الفكاك من إلحاحها، لكنه ما لبث أن اكتنفه الشك عندما رأي الحقيبة:

والحقيبة؟

ضعها في السيارة.

الشبح أم الـ B.M.W أم الفولفو؟

ثم أردف:

أم تفضل سيارة صغيرة؟

واستدرك:

أم الجيب؟

وأجبته:

بل الشبح.

انسل منك يا قاهرة تحت جنح الظلام لأهرب كمجرم، أنت في النهار غابة لضواري الوحوش، وفي الليل بغي، وقد لفظتيني منذ زمان طويل، كما يلفظ الصدأ الحديد، حاصرتيني، كما يحاصر جسد المجدور بثور الصديد، وما عدت أفهمك وما عدت تفهمينني، وربما لو أعطيتني ملء كفيك حبا وفهما وحنانا لفهمتك، لكنك ما أعطيتني سوي الاحتقار، والمهانة والكراهية والاشمئزاز وإفراطا في الاشمئزاز، تركتني أنهب منك ما أريد وأنال ما أطلب دون حتى محاولة للمقاومة سوي نظرة احتقار هائلة يقابلني بها من يعرفني ومن لا يعرفني، لم إذن كل هذا الحرص علي إخفاء ما أفعل، هل كان يزيد احتقارهم لو علموا حقيقة ما فعلت؟ لكنني لم أكن سوي بثرة الصديد ولم أكن الجرثومة ولا المرض.

لماذا فعلت بنا ذلك يا مبارك؟!.

في السويعات القليلة الماضية أصبحت الصورة أمامي أوضح، لكنها كلما ازدادت وضوحا ازددت عماء، كنور الشمس لناظر إليه، لم ينفعني الأصدقاء كثيرا، هاتفت الإبراهيمين نافع وسعدة هاتفت أيضا السفارتين، لم يرد علي أسامه الباز لكن مصطفي الفقي رد، وكان غاضبا ولو كان الظرف غير الظرف لانتشيت، وقال غاضبا : ماذا تريد بعد أن نجحت وشايتك في استبعادي؟، فقلت له: لكنك تستحقها بعد أن راج قولك أنني أخطر علي الرئيس من كل رجال المعارضة، ثم إنني لست السبب بل السفير، فتساءل في ضيق فماذا تريد الآن؟ فأجبته: أن أفهم ما

يحدث. فأجاب: لن تفهم وإن جهدت.

لاشيء حتى الآن واضح، لم يصرح هو بشيء ولا المحيطون به، كل ما يتردد توقع، لا دليل عليه، لا يستمد تأكيده إلا من سريانه كشائعة، وقد قيل ضمن ما قيل، أن جنين الأمر قد وجد قبل الزلزال، حين لوحظ كثرة الشرود لثقل الهم، لكن ثقة قال: أن هاتفا هتف به- وفي رواية أخري مسئولا قال له – في الطائرة أثناء العودة: أن الزلزال كان أشد بكثير مما ظن، وأن الخسائر أفدح، وأن البلاد بدونه مرتبكة، والحكومة عاجزة، كأطفال ألم بهم الخطب والأب غائب، أو عواجز عدا العداة عليهم والرجال سراة، وأنه إزاء هذا قد لا يجدون في انتظارهم أحدا، حتى ولا الحرس، ويؤكد رواة الشائعات، التي لا تستمد حياتها إلا من انعدام دونها، أنه تمتم: إن كنت أخشي لقاء الناس دون حرس فكيف ألقي الله، ويؤكد مؤكد أن قرار تعيين إبراهيم شكري رئيسا للوزراء اتخذ في تلك اللحظة.

يقال أيضا أنه غضب أشد الغضب، حين دفع الحماس صحفيا، فتجاوز كل حد، حين طالب بحقنا في التصويت في انتخابات الرئيس الأمريكي، وأن غضب سيادته لم يقتصر علي إحساسه بتجاوز هذا الصحفي تجاه هيبة الرئاسة، ولا حتى كرامة الوطن، بل عن مسئوليته هو في الوصول بالأمور إلي هذا الحد.

يردد ثقاة آخرون أن الأمر بدأ منذ زمان أطول، وأنه فكر فيه كرد علي اختطاف الأمريكيين للطائرة المصرية، فيرد عليهم البعض بل تبلورت الفكرة بعد طوفان سيدي عبد القادر وحادثة الباخرة سالم اكسبريس، ثم ظهور علامات علي قرب انفجار البراكين في صدور الناس، حين أخذ الناس يقتلون الضباط والجنود، والضباط والجنود يقتلون الناس، عندئذ انزعج، وأدرك أن الأمر ليس مجرد ظواهر عابرة، بل مقدمة لخطر جليل، وأن الزلزال عندما جاء بعد ذلك، قد جاء ليهز نفسا لوامة تبخع نفسها، حين قال لنفسه، إذا كانت الإشارات الأولي من الناس،

فالأمارات الأخيرة من القدر، إنذار وتهديد ووعيد، وأنه إزاء ذلك كله لم يجد مناصا من تكليف إبراهيم شكري برئاسة الوزراء.

السويس ٤٦ كيلو مترا

تبدو لي من بعيد سيارة شبح فتمنحني الأمان والأنس.

مرة أخري يوسف والي ويحيي حسن، لكن يوسف هو الذي يقود هذه المرة، ذهب البعض إلي أن من أسباب تفجير الرئيس مبارك لقنبلته، وتكليفه لإبراهيم شكري بتشكيل الوزارة بعض ما اكتشف عن بعض الوزراء، ولا ينسي أحد فضيحة الوزير الذي اضطرت السلطات إلي الاستيلاء علي أوراق مكتبه قبل إقالته، وقد ذهبت الشائعات أن ما وجدوه في هذه الأوراق كان فضيحة، لا لأنها تدين الوزير، بل لما وجدوه فيها من فضائح للآخرين كان الوزير يبتزهم بها، يهددهم ويخيفهم ويستصدر منهم القرارات والموافقات.

لماذا نسيت أن أهنئ فاروق حسني بالزلزال، فقد أنقذه من حساب عسير.

يقال – ضمن ما يقال – أن موقف يوسف والي كان من ضمن دوافع الرئيس، فقد أدخلوا في روعه قبل ذلك أن السودان يهدد أمن مصر، كما يهدد السد العالي، فرد الرئيس بتصريحات خطيرة حازمة يهدد فيها السودان والعراق، ثم عاد الرئيس بعد أن استوثق من الأمر واستيقن ليصرح بأنه اكتشف خطأ ما قيل، وأن السودان لم يهدد أبدا السد العالي، لكن يوسف والي – بعد اجتماع مع الوزير الإسرائيلي – خرج ليكذب تصريحات الرئيس وتأكيداته، مقررا أن السودان، خلفها إيران – وليس العراق هذه المرة – تهدد مصر والسد العالي.

يقال أن الرئيس في تلك الليلة لم ينم، وإنه كطيار قديم، دوي في أذنيه دوي الخطر، وأضاءت في أعماقه إشارة التحذير، وانه أدرك ما يحاك، وفهم ما يدبر، وأنه في تلك الليلة بدا حزينا حزنين مجروحا مرتين، مرة لاكتشاف المكيدة، ومرة أخري

لاكتشافه أنها مكررة، وأن المكائد هي ذات المكائد، وحسب مقتضي الحال توضع السودان مكان ليبيا، وإيران مكان العراق، لم يعودوا حتى يغيروا فيها، كأن تصديقه لهم أمر مفروغ منه، لا شك فيه، وان ذلك أذي – بعد مشاعره الوطنية التي لا شك فيها – ذكاءه فبدا عليه الغضب والحزم والتصميم، ولم يكلم أحدا حتى أصدر قراره الأخير بإسناد تشكيل الوزارة إلي إبراهيم شكري. ويدعي البعض أن تقريرا خطيراً أعدته هيئة خطيرة كان قد رفع إلي الرئيس، يؤكد أن مستقبل المنطقة إلي خراب وضياع، وأن الحادث في البوسنة والهرسك. كالحادث في الصومال كالحادث في فلسطين ليست جميعها إلا انعكاسات صورة مستقبلنا علي صفحة الحاضر، إن لم يتدارك الأمر.

قيل أيضا إنه استشاط غضبا من طريقة تناول وسائل الإعلام عندنا لقضية تسليح الجيش الإيراني، عن استيراده للتكنولوجيا والغواصات، وأنه وبخ المسئولون بمرارة موجعة، إن ما يحدث بصراحة هو منتهي الوقاحة، إذ كيف طاقت ضمائرهم أن يشنوا هذه الحملة كلها علي إيران، لأنها تسلح نفسها بطريقة قد تؤدي في النهاية إلي امتلاكها لسلاح نووي، بينما إسرائيل في الجوار تملك علي وجه الفعل والقطع واليقين مئات من الأسلحة النووية، ويقال – والعهدة علي الرواة – إن صوت الرئيس وهم يوبخهم كان عاليا جدا علي خلاف العادة، حتى أن القاصي والداني قد سمعوه وهو يصرخ فيهم:

إذا كنتم قد فقدتم الضمير والأخلاق فهل فقدتم العقل أيضا؟.

يقول آخرون – يدعون دائما علمهم باجهر وما يخفي – أن الأمر أقدم من هذا بكثير، وأنه قاوم كثيرا في البدايات تعيينه نائبا للرئيس، فقد كان يتمني علي الله أن تكون أخر أعماله في الحياة الدنيا حرب أكتوبر، وأنه دخل هذا الطريق دون رضاه، واستمر فيه دون هواه، لذلك يصرح كل آن وأخر، أن مدة واحدة للرئاسة تكفي،

ثم إنه لا يمكن أن يجدد بعد المدة الثانية.

يدلل هؤلاء علي صدق مقولتهم بإعجاب سيادته الشديد بمعاوية الثاني – حفيد معاوية وابن يزيد – حين استدعوه للخلافة بعد موت أبيه فقام للناس خطيبا : (يا أيها الناس: إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وهو علي ابن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار في قبره رهينا بذنوبه أسيرا بخطاياه. ثم قلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل وصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بجرمه، وإن من أسوأ الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه وقد قتل عترة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وأباح الحرم وضرب الكعبة، وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم.)

ولقد أكد المؤكدون أن سيادته طالما ردد الرواية وكرر الحكاية بعد أن يقرر أن الكفن لا جيوب له، كما ذكر أن سيادته كان لا يفتأ يردد هذه القصة ثم يردف:

قال معاوية الثاني ذلك ثم دخل إلي بيته.... ومات! فأي ميتة يتمناها المرء لنفسه.

بسرعة ١٤٠ كيلو مترا في الساعة أسير، بقدر ما أخشي الموت وأرهبه أريده وأرغبه، السويس ٢٦ كيلو مترا، وبدت فجأة من بعيد إشارات ضوء فهدأت من سرعتي لأكتشف أنها ثلة من الجنود فينخلع من الرعب قلبي.... ومتاريسهم التي تسد الطريق ترغمني علي الوقوف.

هل حان وقت الاعتقال يا إبراهيم شكري؟، تركني رجالك أتخبط طول اليوم كفأر ليقيضوا الآن علي متلبسا بها أحمل، وقلت لكي أطمئن نفسي لعلها دورية مرور لكتنني لم ألبث حتى تذكرت أنه لم يحدث من قبل قط أن أوقفت دورية مرور شبحا.

الرخص يا باشا.

وناولته إياها.

الكاتب الكبير أبراهام أبو سعدة شخصيا يقود سيارته!!.

أجل، لكن لماذا نبرة السخرية يا ابن الرعاع.

نحن آسفون يا باشا، لم نتعود تفتيش سيارات الشبح من قبل، لكنني لاحظت أن أكثر من خمسمائة سيارة شبح قد مرت بنا في أقل من ثلاث ساعات، بعضنا لم ير الشبح قبل ذلك قط.

أعطاني الرخص وهو يواصل الحديث لمن حوله في الخارج:

ماذا يحدث في الدنيا، خمسمائة سيارة؟!.

وأطلق ضحكة ساخرة كضحكة سوزي، إنه يقسم بشرفه ولو أقسم بشرفي أنا لكان الرجاء اقرب.

الكيلو ١٠١

ألمح شبحا أخري بدت في المرآة العاكسة كما لو كانت طبقا طائرا ينحدر من السماء، ورغم السرعة الفائقة فقد رأيت أنيس منصور، وقلت لنفسي مهما كان نوع الغربة التي ستفرض علي فإن أنيس في الغربة وطن.

ماذا ستفعل يا إبراهيم شكري وإلي أي حد ستتمكن أو يتمكنون من إخفاء الحقيقة عنك، من خداعك.

لكنني قلق بصفة خاصة علي ما يحدث في الصعيد، خطتنا التي نعد لها بالدأب كله والصبر كله منذ عشرات الأعوام، كاريكاتور من هنا ونكتة من هناك وتحقيقات صحفية حول ما لم يحدث أو إهمال ما حدث فعلا.. ثم حفل الافتتاح الأعظم باعتقال كل أهل قرية الكوم الأخضر وتعذيبهم وهتك أعراضهم داخل معسكر للأمن، كان هذا هو المطلوب تماماً تماماً، كانت إحدي حلقات خطة جهنمية أخشي أن تكتشف، ما حدث وما يحدث وما سيحدث ليس إرهابا من المتطرفين كما ادعينا، ولا إجراما من السلطة كما ادعوا، إنما كانت خطة من أعظم خططنا لبث الفرقة

وإشعال نار الفتنة، ليست الفتنة الطائفية فهم محصنون ضدها لطول المعاشرة، ولا فتنة سياسية فهم أشد بؤسا من أن يشغلهم ترف السياسة عن قوت يومهم، ليس ذلك ما قصدنا، إنما ضربنا ضربتنا حيث تعطي تأثيرها الأقصى باستفزاز العناصر التي لا يغفرها جنوبي، صعيدي الدم والعرض والكرامة، ولقد نجحنا حتى الآن نجاحا مبينا لا في زرع الثأر بين الجنوبيين والسلطة فقط بل في وأد كل محاولة لنزع الفتيل المنفجر بينهم وبين رجال الشرطة الممثلين للسلطة. كانت هذه الخطوات الأولي لمرحلة هائلة تبدأ بتقسيم العراق ثم السودان ثم ليبيا ثم السعودية ثم الجزائر وأخيرا مصر، حين تنفصل الصعيد لتشكل دولة تفصلها عن السودان دولة أخري هي دولة النوبة.

ولقد أسفر مكرنا عن دفع السلطة للصعيد كما يدفع ثور إلي داخل معرض للخزف، ويتحدث الحمقى قصار النظر عما تحطم من خزف دون أن يدرك أحد منهم أن الأمر في معظم الأحوال ينتهي بذبح الثور نفسه.

هل يمكن أن يكون الرئيس مبارك قد اكتشف تلك الخطة، يقال إنه لاعب شطرنج ماهر، اللاعب الغبي يرد علي لعبة خصمه، المبتدئ يفكر في خطوته التالية، المتوسط يفكر في خطوات ثلاث أو أربع قادمة، العبقري يفكر منذ البداية وفي ذهنه تخيل شامل للنهاية، حتى قيل أن بعضهم يلعب وهو يعرف تفاصيل النقلات العشرين القادمة.

هل أدرك الرئيس مبارك سر ما يحدث في الصعيد، أننا المحركون له والمشعلون لناره، وهل أدرك أيضا أن إبراهيم شكري هو خير من يطفئ هذه النار؟!. فلقد كانت فكرتنا منذ البداية تتمثل تلك الحكمة الفذة (أن البساطة عملية عبقرية بالغة التعقيد). كانت البساطة في هذا الصدد أنك إن كنت تريد أن تخلق طوفانا يغرق ويدمر فلن تستطيع ذلك إلا بأن تسد الطريق الرئيسي للنهر، – المجري الطبيعي – عند ذاك يحدث

الطوفان، وهذا بالضبط ما طبقناه لخلق الإرهاب و الجماعات المتطرفة.

لكن هل استطاع الرئيس أن يدرك ذلك؟ كيف،؟ و إلا فلم اختار هذه الطريقة بالذات للرد علينا، يشاع أن إبراهيم شكري قد صرح أكثر من مرة، أنه لو أن شيخ الأزهر عارض الرئيس ولو مرة واحدة، ولو أن المفتي قضي ببطلان قرار رئاسي واحد، لما وجد في بلادنا علي الإطلاق تطرف.

وأنا أعبر نفق أحمد حمدي ملأني الرعب، وفكرة القصاص الإلهي.. الذي تمثلها الرئيس مبارك تشغل علي وجداني. لا أستطيع التخلص من فكرة احتمال انهيار النفق علينا.

صدي الأصوات في الأنبوب الطويل ذو وقع رهيب. كان صف طويل من السيارات يعبر، صف بدا بلا نهاية، في الصف كان أكبر تجمع لسيارات الشبح شاهدته في حياتي.. لكن الصف يتحرك ببطء، تهاجمني الهواجس حين أذكر كم دافعت عن هذا النفق رغم كل ما علمته.. والصف يتحرك ببطء و أنا في المنتصف لا أستطيع التقدم ولا التراجع.. والصف يتحرك ببطء هل يكون القصاص من جنس العمل؟ وهل يغرق كل راكبي الشبح في مصر مع انهيار النفق؟! والصف يتحرك ببطء. وثمة بصيص من التاريخ يتراءى لي فأري بعين الخيال فرعون يغرق، فكأنني هو.. والصف يتحرك ببطء. وأنا أختنق.. لكن الصف يتحرك ببطء، فسألت نفسي : هل تموتين الآن؟ ثم تساءلت عن دور الإرادة الإنسانية ثم عن دور المقادير في صياغة مصائرنا .. وكان الصف ما يزال يتحرك ببطء وأنا أسائل نفسي وأردد:

إذا المرء لم يخلق سعيدا من الأزل

فقد خاب من ربي وخاب المؤمل

فموسي الذي رباه جبريل كـــافر

وموسي الذي رباه فرعون مرســل

اللهم يا عظيم يا علي يا مهندس الكون الأعظم، يا من وسع كرسيه السموات والأرض، يا عليما بما نخفي ونعلن، اهدني الصراط المستقيم، وأعني بقوتك في جميع أعمالي التي تفتح باسمك الأعظم، وتراعي بعين رعايتك وتختتم بالشكر منا لك علي نعمك التي لا يحصيها محص ولا يعدها عاد.

ما إن انتهت ترنيمتي حتى كان جرس التليفون يدق.

كانت آدا أهاروني تطلبني من تل أبيب.

أبراهام.. كيف حالك؟

أحاول أن أتشبث بفرصتي في السعادة بكل ما أوتيت من قوة، فما عدا ذلك هباء وقبض ريح.

غمغمت في امتنان ممزوج بالخجل لإشارتي إلي روايتها (الخروج الثاني) لكنها سرعان ما واصلت الحديث:

أنا قلقة جدا عليك.

ستطمئنين أقرب مما تظنين يا شاعرة السلام.

هل تتحدث من السيارة؟.

نعم.

يجب أن تغادر.

إلي أين؟.

إلي هنا. إسرائيل.

كدت أصرح لها بأنني فعلا في الطريق إليها، لكنني تذكرت تحذير المفوض فقلت معابثا:

- أخشي أن يكون خروجي هو الخروج الثالث ، كما أخشي أن أفقد طريقي في

سيناء فأسقط في التيه، لم يبق في العمر أربعون عاما أتوه فيها حتى أصل.

لا تمزح في هذا الظرف أرجوك، فأنا قلقة فعلا عليك.

وقلت لها دون صوت: أنا لا امزح بل أبكي، لكني واصلت بصوت:

هل تسامحيني إذن؟!.

أسامحك!...علي ماذا؟.

لأنني لن أستطيع الوفاء بوعدي لك بإعادة نوادي المكابي إلي مصر.

سأعترف لك هذه المرة بأنني صدقتك عندما قلت علي لسان أبطالك أن أجدادكم هم الذين بنوا الأهرام، لأننا نحن عاجزون فاشلون لا نصلح لشيء ولا نقدر علي فعل شيء ولابد أن أجدادنا كانوا كذلك، ورحت أردد قصيدة من ديوان (من الأهرام إلي جبل الكرمل). (أنا آت إلي الأرض الجميلة حيث انبار وراؤول يا ادا، آت إليكم لأنني لم أجد في العالم مكانا آخر أذهب إليه لأعيش ولكنني كنت سأعيش في أمان. كان يمكن أن أذهب إلي أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا، لكنني كنت سأعيش هناك في خوف لا يقطع ورعب لا يرفع، كسلمان رشدي،و لا توجد في العالم قوة قادرة علي حمايتي إلا إسرائيل. منها يخاف العرب ويرتجفون، من قال إن العرب جرب، أنيس منصور أم محمود التهامي أم أنور السادات.

الغرب سيد العالم وإسرائيل سيدة الغرب، لا يستطيع الفكاك منها ولا التوجه دونها، كأسطورة الجني العجوز الذي خدع شابا فطلب منه أن يساعده في الانتقال من مكان إلي آخر، وانخدع الشاب في مظهر العجوز الضعيف وأشفق عليه فحمله علي كتفيه ، لكن العجوز بمجرد أن تمكن من جلسته أظهر حقيقته وأعلن خبيئته، وصارح الشاب أنه جني وأنه لن يتركه أبدا، وحاول الشاب أن يتمرد لكن ساقي العجوز الملتفتين حول عنقه كادتا تخنقانه فاستسلم.

العالم كله استسلم يا عادل فهل تريد منا نحن أن نقاوم؟! مهما قاومنا

سينتصرون، سيحكمون العالم.

أدير المذياع علي إذاعة القاهرة.

حديث مع عادل حسين، ويجيئني عبر الأثير صوته الكريه:

(إن إسرائيل هي البداية والنهاية لأبنائها، نظام سياسي مجرم يحركه مجرمون أشرار قتلة، محكوم عليهم حتما بالانتهاء، وعلي الحلم العربي أن ينقذ نفسه من براثن اليأس والعجز، وأن يتجاوز ذلك ليستشرف عالم ما بعد زوال إسرائيل).

سأخرج، سأتركها لأنها لا تتسع لكلينا، لكنني سأعود سريعا، وعندما أعود، أيضا لن تتسع لكلينا.

أدير المؤشر كي أبتعد عن اربداد صوته، ويأتي الصوت من محطة القران كأنه موجه لي: (اخرج منها مذءوما مدحورا.)

ذرأتني فمذأتني فما حيلتي؟ رغما عن اتهامات تصمني دائما بالكفر فاني أؤمن بك، لكنه ليس إيمان الغوغاء الأبله والمتحجر، حيث الإيمان ليس إلا مثوى لبؤس الناس، مجرد رداء للحاكم وعزاء للرعية، لكن لتكن أكثر صراحة مع نفسك يا أبراهام ولتعترف بأنه حتى إيمانك لا يخلو من انتهازية الاحتمال بإمكانية وجوده، واحتمال وجود الجنة والنار يدفعكما لقول الكلمة، إلي النطق بها، أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، حقت لي بها عليك جنتك. من الحلق تقولها يا أبراهام أما من القلب فكلا. من القلب لا حق إلا القوة ولا خير إلا المتعة، ولا شر إلا انتفاء القوة والمتعة.

ذلك يا عادل لأنه لا يقين لي، لا تأكيد عندي، ربما عند هذا الجبل الذي تبدو ذؤابته من بعيد تلامس السماء تجلي لنبي لموسي - عليه السلام - لكنني أنا إلي تجليه علي أحوج، يا عادل ليست: (بلي ولكن ليطمئن قلبي) بل هي نعم، أو علي الأقل فان أدلة النفي والإثبات في أي قضية وفي كل قضية أمام العقل متساوية، لو أنني

وثقت صدقت، تيقنت: إذن لأمنت، لاشتريت آخرتي بدنياي لفررت إلي الله، أم تظن لي حماقة جفاء الجنة والخلود في النار ، لكنني لا أوقن، لذلك أمسك العصا من الوسط، أخذ من الدنيا بحظي فان لم يكن سواها فقد أخذت ما أقدر عليه، كما أعلن الإيمان تحسبا لصدقكم يا عادل، لكنني لا أستطيع أن أهجر متع الدنيا حرامها وحلالها لاحتمال قد يكون سرابا .

إن كان الله موجودا إذن فقد خلق الكون وخلق له نواميسه ثم تركه، أم تريدني أن أقتنع يا شيخ محمد الغزالي أن ذلك الهيكل البشري الذي كدنا ندهمه ظهيرة الأمس وهو يعبر الشارع في أسماله، إنسان مثلي لخلقه حكمة، معني ذلك أن يكون له في الانتخابات صوت، يا الهي، هل يمكن أن تشارك هذه الحشرة في اختيار رئيس مصر وهل يمكن أن أتهم بالكفر لأني لا أؤمن بحقها في ذلك؟ ولو آمنت بهذا الحق لكان علي الإيمان بحتمية كل شيء وبأن هذه البعوضة التي تطن حول وجهي تستطيع أن تغير مستقبل العالم بنفس الدرجة مثل كلينتون، أفلا يمكن أن تنقل له مرضا يميته أو ترياقا يحميه من سم زعاف؟!

وهذا الحجر في نهاية الطريق والذي لولا انتباهي له لانقلبت السيارة، ألوجوده هو الآخر معني؟! وذلك يعني أن الركلة العابثة لقدم سائرة لها معني، وكان يمكن لهذا المعني أن يسفر عن موتي لو تأخرت تلك القدم خطوة أو تراجعت خطوة أو انحرفت يمينا أو يسارا قيد أنملة أو اختلفت قوة الركلة واستواء الأرض لأسفر ذلك عن موتي، وأنا لا أطيق إلا أن يكون هذا سدي، عبثا، حكم الصدفة والحظ، والقدرة الإنسانية المذهلة للسيطرة علي الجموح، أي شعور رهيب كان يمكن إن يكتنفن يا عادل لو أمنت مثل إيمانك أنه يسمع ويري ، أنه لا تخفي عليه خافية، أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأنه يمهل ولا يهمل حتى إذا أخذ أخذ أخذة عزيز مقتدر.

لا أستطيع ولا أطيق أن أحتمل مثل هذا النوع من الإيمان ولا أستطيع أن أعيش تحت وطأته، أجل لا أستطيع يا عادل، فكيف أستطيع الحياة وعين قدرته مسلطة علي بشاعة سريرتي؟! وكيف أقدم علي ما أقدم عليه كأنني أراه فان لم أكن أراه فانه يراني؟! لا أستطيع يا عادل، دعك من كذبي الذي تنشره الصحف في مقالاتي ، أنا أكذب حين أكتب أو حين أحاور الآخرين، أما حين أحاور نفسي في هدأة الليل فعلي من أكذب؟! دعك من اتهاماتي لك بالفرح لمصرع فرج فودة فقد علمت أنك ذرفت الدموع علي الإنسان فيه لا المفكر، أعرف موقفك هذا ولا أحترمه ولا أوافقك عليه، فأنت تقدس الحياة الإنسانية بغض النظر عن اللون أو الدين أو الجنس أو الفكر، لذلك فانك تعتبر قتل فرج فودة علي نفس درجة إجرام قتل علاء محيي الدين، أو أحد أولئك السبعة الذين قتلوا في منقباد، السبع نكرات الذين لن يذكر اسمهم ذاكر ونحن لا نوافقك علي هذا فنحن لا يهمنا قتل الإنسان ككائن بشري، بل ما يهمنا فيه هو فكره، هي الفكرة، ولقد نجحنا في اجتذاب الآخرين لمعسكرنا، حتى اليساريين الذين طالما تباهوا بطهارة لو كانت فيهم حقا لكانوا أبرار صديقين، حتى هم، يمكنهم أن يظلوا خمسين عاما أخري يتحدثون عن شهدي عطية لكن أحدا منهم لن يستنكر الحياة الإنسانية في حد ذاتها، والذي لا يمر أسبوع دون أن يحدث في سجن هنا أو معتقل هناك، وحتى في الشوارع الآن يحدث.

لقد ادعيت عليك كثيرا يا عادل أنك تشجع الإرهاب والإرهابيين، وكنت كالعادة كاذبا، فأنا أعلم انك لم تهاجمهم كما نحب لأنك وإن رأيتنا المفقوءة عين لهم فقد رأيتهم المفقوءة جميع أعينهم، إنهم إذا كانوا ضالين، فنحن الضالون المضلون المغضوب عليهم، واثق أنا أنك تدينهم، لكن إدانتك لنا أكثر.

هل تذكر يا عادل، حين ضبطتم زكي بدر – في حركة بارعة لا أنكر – متورطا في التصريح بأنه مستعد لقتل نصف مليون من الشعب، وبالطبع أقمتم الدنيا

وأفلحتم في عزله، وأنا معكم في أن ما قاله إجرام استحق العقاب، لكن الذي لم تفهموه أنتم يا عادل، لم تفهموه ولن تفهموه أن الإجرام هنا يتعلق بالقول دون الفعل، ولقد استحق زكي بدر العقاب لأنه قال بينما استحق محمد عبد الحليم موسي التكريم لأنه يفعل ذات الشيء وأكثر لكنه لا يقول.

يا عادل: من ناحية موقفك هو الأصح، لأنه هو المجرد ومن ناحية أخري فموقفك المجرد خطأ لأن كل المواقف المجردة خاطئة، فدعك منه، دعك أيضا من اتهاماتي لك بالتحريض علي العنف فذلك ما أخلقه مع الأمن خلقا، كذلك دعك من الطريقة الكاريكاتورية التي نصور بها تكفيركم للحكم والمجتمع، دعك من هذا كله و أصدقني القول : هل تحكم علي بالإيمان أم بالكفر، الإيمان بمعناه الشامل الذي تراه في كتبكم، إيمان التسليم والرضا، إيمان اليقين، إيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، إيمان ذلك الصوفي الذي قابل صوفيا آخر فسأله كيف حال الناس في بلادكم فأجابه: بخير: إن رزقنا شكرنا وإن رزئنا صبرنا، فأجابه لكن الكلاب تفعل ذلك ثم أردف أن الواجب يحتم أن يكون الأمر: إن رزئنا شكرنا وإن رزقنا صبرنا. بهذا المفهوم هل أنا مؤمن يا عادل؟ أنا أعرف أنك من قوم لا يأمنون مكر ربهم حتى لو كانت إحدى قدميهم في الجنة، قوم يظلون العمر مرعوبين علي إيمانهم فاقدي الثقة في قدرتهم علي الاحتفاظ به داعين الله أن يثبتهم عليه، فلماذا تغضب إذن عندما أقول إنكم تكفرون الناس.

أجل يا عادل أنا نفسي أعترف علي نفسي بأنها لا يمكن أن تؤمن هذا النوع من الإيمان، ألا يكفي أنني أؤمن بوحدانية الله وأزليته وخلود النفس، وبعد ذلك كل واحد منا قاض لنفسه فيما يختص بالضمير، ثم ليس علينا بعد ذلك إلا نبذ جميع التقاليد والمظاهر الخارجية في عبادتنا للخالق.

لكن ذلك النوع من الإيمان لا يعجبك، تسميه كفرا، بل وتدعي أن ما أقوله

بنصه قد ورد في التلمود، هل عرفت أنا ما في القرآن حتى أعرف ما في التلمود، لن أجادلك كثيرا لكنني أقول لك – وأنا من الإجهاد والإعياء في غاية – إنه برضائنا أو بدونه فهو النوع الوحيد من الإسلام المسموح به لنا غدا، وخير لنا أن نرضي به قبل أن نجد أنفسنا كمسلمي البوسنة أو صابرا وشاتيلا.

أنا لست خائنا للوطن كما تظنني يا عادل، أنا أحميه، فلقد أدركت منذ زمان طويل أن انتصار الغرب حتمي، سينتصر علينا كما دائما انتصر، فانظر إليه كيف يعامل أعداؤه، في كل تاريخه لم يرض منهم غير السحق الكامل أو الاستسلام بلا شروط، أكثر الحضارات دموية وإجراما في التاريخ، انظر إليهم ماذا يفعلون مع أبناء جلدتهم المهزومين، ثم انظر إليهم بعد ذلك ماذا فعلوا مع أبناء جلدتنا نحن، إنهم لم يعاملونا أبدا كبشر، ومع ذلك فأن كراهيتهم واحتقارهم لم يقتصرا علي إنكار اكتمال بشريتنا، كانوا يفعلون ذلك قبل اكتمال انتصارهم، الآن، وقد فاقت الحضارة الغربية كل حضارة سواها، الآن وقد انتهي التاريخ، فضلت أن أنتسب إلي المنتصر، أن أكون معهم خادما مرفهاً خيراً لي من أن أكون معك شهيد يسفك دمه، يعذب في السجون والمعتقلات، وتلفق له التهم.

كنت دائما تدهش لكلامي وكنت دائما أدهش لاندهاشك، الآن والقطيعة ممتدة بيني وبينك هل ما زلت تدهش ؟ أما زال يذبحك كل صباح ويفجعك كل ليل أخبار ما يحدث في البوسنة والهرسك ؟ أليس هذا بكافٍ كي يثبت لك صواب رأيي وخطأ رأيك ؟ فما يحدث في البوسنة والهرسك هو حضارة الغرب يا عادل فتعلم.

لست خائنا للوطن لكنني أدركت منذ زمان طويل أن المقاومة دمار، علينا أن نرضي بأي عطاء وإن قل، وبأي موقع وإن ذل، علينا أن نرضي و إلا ذبحنا ذبح الهنود الحمر ومسلمي البوسنة، التاريخ كله سجل مفتوح يبرهن علي صحة رأيي يا

عادل، لم يكن البقاء للأصلح بل للأنذل، الذي قاوم باد وانتهي ومن استطاع التواؤم والتكيف بقي وعاش، الحياة دائما هي القيمة العليا، والبقاء هو المطلب الوحيد، من تمسك بغيرهما عبر التاريخ انتهي ، أنا لم أخن إذن، إنما اخترت الحياة بأي صورة وفي أي طريق، وأردت أن أختصر طريق الشوك الذي تدفعوننا الآن للسير عليه، لكنك كنت تصرخ في: تجوع الحرة........، وكنت أقاطعك: غلط يا عادل: تأكل بهما وبما هو أكثر كي تعيش وليكن ما يكون.

الخطيئة المستورة مغفورة علي مستوي الأمم وعلي المستوي الشخصي، تسألني كيف ألقي الله بعد ذلك، ذلك لقاء أشك كثيرا أن يكون كما تصوره كتبكم وأساطيركم، ثم إنني أؤمن بيوم الغفران العظيم الذي به تمحي جميع الخطايا والذنوب بدون استثناء.

هذا مجتمع وحشي يا عادل، عالم وحشي، وفيه ممنوع العطف علي الإنسان الأبله.

منذ خمسمائة عام عندما طردونا من الأندلس، عندما اكتشفوا العالم الجديد كان يعيش في الأمريكتين أربعمائة مليون نسمة، بعد أربعين عاما من الغزو كان ما تبقي من الأربعمائة مليون أقل من عشرة ملايين، وهذا ما سيحدث لنا إن قاومنا ، وأنا لا أستطيع أن أتقبل وجهة نظرك في أن نتيجة أي صراع غير مطروحة في هذه الدنيا، وأننا مسئولون عن الوسيلة لا النتيجة، لا أستطيعها يا عادل ولا أستسيغها، فكيف يكون أفضل عمل في الحياة أن تستشهد، أن تفقد الحياة؟!

أتوقف علي جانب الطريق، أدير المقبض العاجي فيظهر البار، أتناول كأسا من الويسكي، كثيرا من الثلج والصودا وقليلا من الويسكي حتى أحتفظ بوعيي، كم من الأعوام مر قبل أن يتحول الناب إلي مقبض، هو الأثر الوحيد الباقي من كائن هائل مخيف، وكم من الزمن يمر حتى لا يبقي مني أنا شيء، هل أنت علي حق يا عادل؟! أستريح ثم أبسط الخريطة، أستوثق من الاتجاه ثم أواصل المسير.

لماذا فعل بنا الرئيس ذلك؟ لماذا؟ لماذا خرج عن الدور المرسوم هذا الخروج الخطر؟ لو أنني أفهم غايته، أو أدرك مرامه لاسترحت.

مازال البعض يؤكد أن ما حدث في البوسنة والهرسك قد انصدع له قلبه، أنه لم يشعر بخديعته في النظام العالمي الجديد حتى حدث هناك ما حدث، أنه أحس الخذلان منهم وهو يطالبهم بتطبيق مبادئ الصرامة والأخلاق والمثل وحقوق الإنسان علي البوسنيين – كما الكويتيين – فيزوروا عنه لا في حجل الناكث للوعد بل في دهشة المتعجب من عدم فهمه لهم، علي الاتفاق الذي لم يفه به ولم يفوهوا، لم يكتبه ولم يكتبوه، لكنهم اعتبروه قد استقر في الضمائر، وان استتر في السرائر، قيل أنه شوهد يحدث نفسه، بل وإن هناك من سمعه كأنه يقول : لكنني آمنت بالنظام الجديد حقا، وحاربت من أجل استعادة الكويت صدقا، كما انفعلت بالاعتداء علي حقوق الإنسان آني كانت، لماذا إذن هذه النظرة ونحن نطالبكم بتطبيق ما حدث مع العراق علي الصرب، كما لو أنني كنت قد اتفقت معكم علي غيره.

قيل إنه كان يدعو كبار مسئوليه ليقرعهم صارخا فيهم: هل صدام أكثر إجراما من رادوفان كرادوفيتش، وهل العراق أكثر وحشية من الصرب والجبل الأسود، وهل ما حدث للكويتيين أكثر مما حدث لأهل البوسنة والهرسك، قيل أيضا أنه كان يصحو في جوف الليل غاضبا أشد الغضب ليطلب أحد أصدقائه قائلا: أنا حاربت عندما حاربت في الخليج فعلا من أجل العرب والمسلمين لا من أجل إضعافهم تمهيدا للقضاء عليهم.

يؤكد القريبون، أنه في هذه اللحظة كان الجرح جرحين، والحرج حرجين، والخدعة خدعتين، أما الألم فكان أضعافا مضاعفة، كذلك الإحساس بالعجز وهو لا يستطيع أن يفعل للبوسنيين شيئا. وأن هذه النقطة ربما تكون اقوي الأسباب التي دفعته إلي إسناد الوزارة لإبراهيم شكري.

أسعيد أنت الآن بما يفعله سعد الدين الشاذلي، هل هذا هو الحل، ولن يكون النصر المرتقب له سوي فاتح شهية لخوض المزيد من المعارك يسيل فيها المزيد من الدم.

قيل أن ذاكرا ذكر، أن بنت الشاطئ كانت تطارده في الرؤى وهي تحمل في يدها صفحة من الأهرام عن نهاية المسلمين في الأندلس – لأن البدايات عنوان النهايات – وفي اليد الأخرى كانت تقرأ له ما قاله زياد سوباشيتش:

(كنا ٧٠٠ معتقل من مسلمي البوسنة تم حشرنا في صالة ألعاب رياضية، بعد ثلاثة أيام أصبح عددنا ٤٠٠ فقط، حيث تم إعدام الباقين بأساليب بالغة الوحشية، كانوا يجلسوننا في دائرة يتوسطها متواز خشبي معلق به حبل يقذفون به عشوائيا وعندما يشير طرف الحبل إلي أحد الجالسين يتم إجراء التعذيب عليه فورا، كان يطلب من الرجل أن يعض بأسنانه أجزاء حساسة من أجسام زملائه، وإذا رفض يطلب من زملائه عمل نفس الشيء به، وإذا رفضوا يتم إطلاق النار علي أجزاء مختلفة من أجسادهم حتى يعجزوا حتى عن إصدار التأوهات لكي تنطلق رصاصة الرحمة علي الرأس لتريح الضحية المسكينة من الدنيا التي يمرح فيها مجرمون صربيون بدون أن يكفهم أحد.

قيل أن بنت الشاطئ لم تكف حتى حين أمرت أن تكف، وأنها واصلت الحكايات له عن الشيخ العجوز الذي ذبحوا أمامه ابنيه الشابين بالمدى ثم أطلقوا الرصاص علي كلبه قائلين : الكلب يستحق الرصاصة لكنها خسارة في المسلم، وأنها طلبت منه الفتوى نيابة عن نساء البوسنة فيم يفعلن في حمل السفاح الناتج عن اغتصابهن، وأنه حين صمت صرخت فيه : إن كنت عاجزا عن نجدتهن فأرسل لهن حبوب منع الحمل كيلا يحملن.

وقيل إنه صرخ فيها وهو من العذاب في عذاب كفي، ألا تعلمين من أنا، فقالت

له: ملك أي طائفة من الطوائف أنت، فقال بل دققي النظر وسوف تعرفينني فتساءلت ملك قشتالة أم أمير قرطبة؟

دق جرس التليفون فأنقذني من حبل للذكريات يشنقني، وإذا بمستفيد مع العقيد التهامي، أتخلص منهما بلباقة، فويل للشجي من الخلي، إنهما يستطيعان تغيير ولائهما بنفس السهولة التي يغيران بها ملابسهما، وعلي الرغم من ذلك فإن العقيد واحد من أفضل تلاميذي علي الساحة، هو الذي مخه يساوي مائة مليون جنيه يا أستاذ الأستاذة لا لأنه لم يستعمل قط ، بل لأنه حول المعبد إلي حانة، رغم كل الموجودين حول الدفة إلي الاتجاه الآخر، وبعدها فقط استطاع أن يغير الاتجاه الفكري والسياسي لصحيفته، حتى اضطر شيوعي شيعي متطرف ناصري حاقد لأن يصرخ مستغيثا:

(يا عبد الرحمن الشرقاوي القصر الذي ترنمت فيه بأعذب تراتيل عشق الوطن، استولي عليه خدم العسس، وجلس العقيد مكان الشهيد، وأصبح كاتب التقرير مقرر التحرير فأجر الأجنحة مفروشة، للحرام، وبيت الأمة أصبح مغارة لصوص).

مولعون هم بالكلمات الفخمة والجمل الضخمة التي لا أفهم منها شيئا لا لأنني غبي بل لأنها بلا معني.

أغذ السير، ١٦٠ كيلو متر في الساعة، مررت بالأشباح ومرت الأشباح بي، لماذا فعلت ذلك يا مبارك؟ لكن مدام نعمة تصرخ في بعد أن مرغت في الوحل كرامتي: بل كيف كان يستطيع ألا يفعل؟

ولكن كيف؟ ولماذا، لقد كنا قاب قوسين أو أدني، أفشلنا لهم جميع خططهم وهدمنا كل مشروعاتهم وأحبطنا كل أمالهم فكانوا علي وشك أن يسقطوا أمامنا ثمرة معطوبة، فلماذا فعلت بنا ذلك، أنت تعرف أنهم علي غير ما ادعينا فلماذا؟

لقد نجحنا دائما وبعبقرية منقطعة النظير أن ننفذ أغراضنا وأن نجعل منكم أنتم

– يا عادل – المدافعين عنها، عندما ناديتم بالقطاع العام لم نحاربكم مباشرة، لم نتصد لكم، بل بالغنا في تأييدنا وتعصبنا له، ثم نجحنا في زرع الفساد في جذوره فالتفت أغصانه حول عنق السلطة وتساقطت ثمارها عليها، وبقيتم أنتم ردحا من الزمن لا تدركون ما فعلنا بكم، لتستمروا في الدفاع عن ابن غير شرعي لنا تظنونه ابنكم.

نفس الشيء حدث مع ال٥٠ ٪ عمال وفلاحين، حين حولناهم من مكمن الخطر علينا إلي منبع القوة لنا، كذلك في الأشياء الأخرى، كنا علي وشك إصدار قانون النقابات الجديد وقانون الأحزاب الجديد، وقانون الصحافة الجديد، كنا علي وشك أن نكمل عمليتنا الكبرى، لكن قرارك فاجأنا فأفسد كل شيء.

الكيلو ٩١

لكن اللافتة لا تدل علي اسم الطريق ولا المدينة القادمة، إهمال المصريين .

لكن أين يكمن خطؤنا؟.

لماذا لم تنته الأمور إلي غايتنا؟.

ربما كان يجب علينا أن نغلق الشعب منذ زمان طويل، لقد راهنا عليها وخسرنا الرهان، قدرنا أننا بحربنا الدائمة بها وبتشويهنا لرموزها سننال منها، لكن الرعاع صدقوها وكذبونا. لكن لماذا نجحت خطتنا في تحييد الآخرين أو ترويضهم وعجزنا مع الشعب؟ ذلك ما لم أستطع فهمه.

قدرنا أيضا أننا بمنع مصادر التمويل عنها سنخنقها، لكن يبدو أن الناس مستعدون لدفع أضعاف الثمن في كل عدد . بقيت هي الصحيفة الوحيدة المعارضة، الصحيفة الوحيدة التي تنقل للناس ما لا تجرؤ الصحف الأخرى علي نقله، حتى اليمين واليسار أقرا بذلك، وشهدت نقابة الصحفيين من يتبادلون الحديث في همس مقرين أنه لولا صحيفة الشعب لانتهت المعارضة الحقيقية في

مصر.

كانت خطرا، وقد غفلنا عنه، وهذا أمر يصعب علاجه، وسنعالجه، رغم قنبلة الرئيس سنعالجه. الكيلو ٨٢ ....الكيلو ٨١....... الكيلو ٧٨ .... والكيلو٧٧.

علي مدي البصر برقت في سواد الليل الحالك عينان حمراوان، وارتد بي الزمن مئات الأعوام حتى شملني الرعب من أن يكون الشيطان يعبث بي، يجرجرني بعينيه دون أن أدري حتى يغرقني في التيه حيث لا يدركني أحد ولا ينقذني أحد، ووجدتني دون أن أدري أزيد من سرعتي وأقترب، وأقترب وأقترب، فإذا بالعينين الحمراوين يصيبهما الجنون فجأة لتتقافزا في الهواء في حركات بهلوانية، ثم أسمع انفجار تعقبه نار، وأقترب وأقترب فإذا بها سيارة شبح تحترق بمن فيها، أحاول الاقتراب أكثر لكن وهج النيران واحتمال انفجار أخر يمنعاني، يفتح الباب ويندفع لسان من اللهب ثم أراه خارجا كتلة من النار فلا أتمالك نفسي عجبا ودهشة وذهولا من أن أهتف حين رأيت وجهه:

- حتى أنت؟

ووجدته يصرخ في:

أطفئ.....

فظننته سيكمل أطفئ النار لكنه لم يقل ذلك بل أكمل: المذياع، وأخذ يكرر: أطفئ المذياع، فقدرت أن الأمر من فرط الهول قد اختلط عليه. وأخذت أهتف في ذهول : حتى أنت، وهو ينظر نحوي في عذاب المستنجد المستغيث، حتى أنت، يدور حول نفسه فيتعثر فيكبو فينهض فيكبو فيقع فيرقد فيخمد وما زال الصوت الصاخب ينطلق من مذياع السيارة بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾.

الكيلو ٧٣.

لكنني لم أزل غارقا في الدهشة والعجب والذهول أهتف: حتى أنت؟

ورمقني من السماء المتنائية نجم لا مبال فقفلت عائدا إلي سيارتي لا ألوي علي شيء.

الكيلو ٦٧.

ليل جندس دجوجي، وأرض بلقع، تنذرني ألا أدعو ثبورا واحدا بل ثبورا كثيرا فأناجيه في غضب، مدركا أنه من مكان مـا يتابع علي شاشة تليفزيونية ما أفعل ويسمع عبر لوحة إلكترونية ما أقول: ماذا تفعل، من المفروض أنك تسمع كل شيء وأيضا تري، وهذا الجهاز المبثوث في علي ما أقول شهيد، الويل لك إن تركت بيتي ينهب وزملائي يسجنون وأولادي يشتتون، الويل لك، فأي تمجيد يستحق ذلك الأب الذي يترك أولاده يتمرغون في الشقاء وهو يمرح

الكيلو ٥٦

أنا لم أقصر أبدا في أداء واجب نحوكم، فعلت كل ما طلب مني، وما لم يطلب أيضا فعلته، فعلته لأنني ظننت فيه مصالحكم، وتجاوزت حتى حدود الأدب واللياقة والعرف حين هاجمت بضراوة لم تحدث من قبل القائم بأعمال سفارتنا في طهران، ضراوة استنفرت خارجيتنا للرد علي، لتوبيخي وترديد التهمة التي لا تني تسقط علي رأسي باتهامي بالغباء والبذاءة. برغم هذا كله، وبرغم اشتهار أمري، وما تردد عن عمالتي لكم وأصابع الشكوك التي راحت تشير إلي، لم ألق بالا لهذا كله، وما أن وجدت فرصة لمهاجمة سعد الدين وهبة حتى اكتسحته اكتساحا، فالخائن يريد أن يعرض أفلاما سينمائية إيرانية توثيقا لعري العلاقات بين الشعبين، من قال لك أننا نريد أن نوثقها، هل تدرك مدي خطورة اجتماع مصر وإيران علي شعور

واحد وعلي رأي واحد، يا خائن السلام والنظام العالمي الجديد. ولقد انتهز الفرصة خونة آخرون ليصطادوا في الماء العكر فأخذوا يناشدون الرئيس بعدم الاستجابة لي، لأن الأمر بهذه الطريقة رد فعل انفعالي طفولي لا يليق بمصر ولا به، وكتب عادل حسين يذكر القراء بقول بوش عن كلينتون أن كلبته تفهم أكثر منه، ومع ذلك لم يتخاصما كالأطفال ولم يتشاجرا كحيوانات السيرك . وواصل عادل في سخرية كريهة : عفوا، لا أقصد السيرك فقد تحضرت حتى أنها لم تعد تتقاتل، لا أقصد حيوانات السيرك بل أقصد حيوانات الغابة.

برغم احتمال اكتشاف أمري كله لم أكف، واصلت طرق الحديد وهو ساخن كما فعلت في ناجي العلي، ولم أترك كذبة لم أكذبها، لكن من يراجع خلفي، و حتى إن وجد المراجع فمن ينشر له، وحتى إذا وجد الناشر فعبد الستار يدافع عني.

الكيلو ٤٨.

لم أقصر أبدا فلا تتركوني، لكن سوزي تسخر من شرفي، ومدام نعمة تطلب موعدا للقائه والأحمق الغبي في جينيف لم ينبهني قط، وأنا أطلب منه أن يدبروا لاغتيال نجيب محفوظ يا صاحب المخ الجديد الذي لم يستعمل، يا أحمق يا غبي، يا محجوب عبد الدايم.

الكيلو ١٩.

والبراجماتيون النفعيون سيتخلصون مني كما يتخلص الثعبان من جلده، انتهي دوري، هم الآن في مرحلة جديدة تحتاج إلي خدم آخرين، سيتنكرون لي كأن لم أكن، ولعلهم الآن يبحثون عن حلقات اتصال وتأثير مع القادة الجدد، لكنهم سيخذلونكم، سيفعلون بكم مثلما فعل الخميني، وسيمرغون هيبة النظام الجديد في الأوحال.

الكيلو٨.......الكيلو٦.........

من ذا الذي يعاتبنا لأننا كذبنا؟! هل يمكن معاتبة من يتنفس لأنه يتنفس، ومن

يشرب لأنه يشرب، أو من يأكل لأنه يأكل؟!

كيف، وحياتنا كلها انبنت عليه، فلا نقول إلا كذبا؟! الصدق حماقة والحماقة شر والكذب قوة والقوة خير.

هاأنذا علي وشك الوصول، يبقي كيلو واحد.

يا الهي.

ثمة انفجار كانفجار اختراق النفاثات لحاجز الصوت.

أحاول السيطرة علي السيارة التي لم تصب بسوء لكنها تتسع، تتمدد، أحاول كبح جماحها لكنها تترامي إلي أبعاد شاسعة الأرجاء، يا إلهي كنت أظن أنني أقودها فإذا هي التي تقودني.

يا الهي سوف يحدث ما مزحت بشأنه مع أدا أهاروني، ولعلي أسقط في بحر التيه أربعين عاما، الطريق طويل، بلا نهاية، وهو غريب، لا أعرفه رغم مداومة زيارتي وتكرار دراستي وكثير خرائطي.

يتجسد عادل ساخرا لكنني واثق أن التجسد صورة في خيالي وليست حقيقة في الواقع، ويتكلم بصوت لكن دون أن يحرك شفتيه ودون أن يفتح فمه لكنني أسمعه بصورة طبيعية، إذ يقول: الذي لا يقدر علي مواجهة السلطان لا يجرؤ علي مواجهة الشيطان، فأرد بنفس الطريقة: أنا الذي لا أفهم، فيقول : أنت لم تفهم شيئا أبدا، وسألني: لم يكونوا يحتقرون المسلمين فقط بل الإسلام أيضا فلماذا؟ فأجبت لأن الحق ثقيل والباطل خفيف، وقلت له أنت لست مثلي، أنت لا تكذب فقل لي الحقيقة: هل أنا مخمور الآن أو أحلم ؟ فرد علي بلغة لم أفهمها، فأعدت سؤلا آخر: هل أنا ميت؟ فرد بلغة أخري لم أفهمها أيضا، فقلت له: هل أنا الآن في أرض التيه؟ ولم يجب، فقلت له بلهفة هل هناك أمل؟ فأشاح عني، وتحدث الصمت بلسان بليغ، فعجبت كيف يكون للصمت صوت وكيف فهمت أنا؟ لكنني لم أحر جوابا،

فسألته – وأنا من العذاب في غاية – أما يزال باب التوبة مفتوحا؟ فشرع ينصرف عني، وهو يحكي لي حكاية الرجل الذي حلف بالطلاق من زوجته أن الله لن يغفر للحجاج، فأفتاه مفتي المدينة أن زوجته أصبحت محرمة عليه فهي طالق، فذهب إلي قاضي القضاة وعرض الأمر عليه، فأجاب بعد تفكر وتدبر : اذهب إلي امرأتك يا رجل، وإن غفر الله للحجاج لن يضرك بعدها الزنا، واختفي فتلاشي صوته قبل أن يكمل الحكاية، فأخذت أبحث عنه فلم أجده، فأخذت أترنم بشعر لا أذكر من قائله ومتى قاله:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة . . . فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا عادل . . . فبمن يلوذ المستجير المجرم.



القط

لماذا يخون من لا يفترض به أن يخون..

لماذا يخون من ينتظر منه أن يصون..

أتساءل فلا أجد إجابة أبدا..

وفي بحر الحيرة يغمرني الألم..

يحملني إعصار الألم على أجنحة الزمن فأعود إلى طفولتي الأولى..

كان ذلك منذ ما يقرب من ستين عاما.. كنت في الثالثة من عمري أو الرابعة على الأكثر.. في منزلنا كان يوجد قط نصف عاجز.. أظنه كان أعمى أو شبه أعمى.. وكان محاصرا بعماه.. كان قلبي ينفطر من أجله وأسيل حنانا عليه.. كنت أعتبره أعز الأصدقاء.. وربما الصديق الحقيقي الوحيد.. وما أكثر ما جالسته.. كان يحادثني و أحادثه.. وكنت أظن أنه يفهمني وأفهمه.. كنت متضايقا جدا لأنه لا يستطيع النطق مثلي.. لكنني على أي حال كنت أفهم مواءه وأترجم حركاته.. تماما كما لو كان يتكلم.. وكنت أبحث عنه دائما كي أحمل إليه الطعام..كان ذلك يشعرني بسعادة لا توصف من ناحية.. ومن ناحية أخرى كنت أشعر أنني أؤدي واجبي المقدس الوحيد.. وإزاء قلة حركته وكمية الطعام راح الشحم يتراكم تحت جلده..فيزداد نعومة وبهاء.. ويزداد رونق فروه الأبيض الساحر الجميل.. أصبح صديقي سمينا إذن لكنه كان يفاجئنا بخفة حركته إذا ما طرأ طارئ حيث كانت تمر بحديقتنا بعض كلاب الصيد الخاصة بالجيران وكانت تحاول اقتناصه فيفلت منها في اللحظة الأخيرة ببراعة كانت تذهلني و تثير إعجابي و تشعل حماسي.. خاصة إذا تعددت الكلاب وبدا لنا استحالة إفلاته.. كنت أتخيل أحيانا أنه يتعامل مع تلك

الكلاب بمكر محبب إلى قلبي فيتركها تقترب منه حتى تظن أنها أطبقت عليه لكنه في اللحظة الأخيرة الحاسمة يفلت منها.. قال لي شخص -لا أذكره- أن الأمر ليس مكرا ولكن ضعف بصره الشديد كان يجعله لا يرى الخطر حتى يقترب جدا جدا.. حزنت وغضبت فقد كان الاتهام يطعن في كفاءة صديقي الحبيب.. بل أقرب الأصدقاء إلى قلبي.. وكان من العجائب علاقته الودودة بكلب يحرس الحديقة الصغيرة الملحقة بمنزلنا..كلب لم نكن اخترناه ولا اقتنيناه.. بل آوى إلينا فأويناه.. كان بالمجاز كلب حراسة.. لكنه في الواقع لم يكن كلب صيد ولا زينة ولا حراسة.. كان كلبا عاديا من كلاب الشوارع.. كان يخيفني.. وكان قبح صوت نباحه يزعجني..أتذكر أنني شكوت من ذلك بل عبرت عن اعتراضي بالبكاء.. أذكر أن أحدهم-لا أذكر من هو- أخذ يعلمني كيف يحرسنا وينبهنا إلى الأعداء.. قبلت الأمر على مضض.. لكن عداوتي له بدأت تذوب عندما رأيته كثيرا يلعب مع صديقي الحبيب.. بل وبدأت أميل إليه عندما تصورت أن حمايته التي يسبغها علينا من الأعداء لابد أن تنال بركتها صديقي القط الذي كان يلعب معه كثيرا لكنه دائما يلتزم جانب الحذر رغم أن كلبنا لم يبد منه ما يستوجب هذا الحذر.. تعلقت بالقط كثيرا.. ورغم عدائي الفطري لكل الكلاب الأخرى فقد أحببت كلبنا لأنه كان يحنو على قطي الحبيب ويداعبه..

كانت مغامرات القط وبراعته في الإفلات من أعدائه هي شغلي الشاغل وأهم حدث في حياتي.. ما أن تنقضي مغامرة منها حتى أظل أستعيدها وأرويها في حماسة منقطعة النظير حتى تأتي مغامرة أخرى وبطولة أخرى فأنتقل إلى حكايتها.. كان انفعالي يبلغ ذروة أعلى كلما بدا الإفلات من الخطر أصعب..

وذات يوم.. كنت واقفا في الشرفة أتحدث معه بلغتنا الخاصة.. وفجأة بدأت الواقعة.. بدأت دون أن أحس بها تقريبا.. لم أنتبه إلا في الثواني الأخيرة..

الآن.. بعد ستين عاما.. عندما أستعيد الحدث تضيع مني تفاصيله.. و بالأحرى فإنني لم ألمّ بهذه التفاصيل أبدا.. لا أستطيع الإجابة عن عدد الكلاب المهاجمة.. هل كانت كلبين أو ثلاثة..أم كانت أكثر.. ما أذكره هو الثانية الأخيرة.. لم أر الكلاب وهي تقترب ولكنني رأيتها وهي تتأهب للانقضاض.. سرت النشوة داخلي كتيار كهربائي وأخذ قلبي يدق كمطرقة وأنا أنتظر لحظة النصر المبين المعجزة..

بعد ستين عاما أسأل نفسي: هل كانت الكلاب سريعة في انقضاضها إلى هذا الحد أم أن انفعالي هو الذي خيل إليّ ذلك.. انقضت على حبيبي بسرعة الضوء.. لكن البطل تنبه في آخر لحيظة.. وقفز قفزته الرائعة فقفز قلبي معه وأنا أتأهب للنشوة المستحيلة والتصفيق وإطلاق صيحة النصر.. وفي تلك اللحظة بالذات حدث الأمر المذهل.. الأمر الذي لم أتخيله أبدا.. ولكنه حدث.. لم أر بوادره ولكنه حدث.. لم أكن قد تنبهت إلى أن الكلاب المهاجمة جاءت من جانب.. وكان كلبنا في الجانب الآخر.. لحظة القفزة.. والقط في الهواء يمارس لعبة النجاح المستحيلة..في اللحظة الفارقة الخطرة كانت المفاجئة الصاعقة التي لم تستغرق معشار ثانية.. قفز كلبنا فعرقله وأنشب مخالبه فيه في نفس اللحظة التي كانت كلاب الصيد قد أدركته.. وسمعت قطي الحبيب يطلق صرخة بشرية طويلة حادة مفزوعة مستنجدة هائلة .. كان بين أنياب الكلاب.. كانت تجذبه بأنيابها ومخالبها،، وجدته قد طال مع تجاذب أطرافه حتى تضاعف طوله ضعفين أو أكثر.. كانت الكلاب تمزقه.. وتلاحقت الصرخات البشرية الطويلة الحادة المفزوعة المستنجدة الهائلة.. صرخات مسعورة هيستيرية.. ولم أدرك إلا بعد لأي أنها لم تكن صرخات القط.. بل كانت صرخاتي أنا.. وكان أحد الكبار قد اختطفني من أمام المشهد البشع رحمة بي و أنا أصرخ وأصرخ وأصرخ..

الآن أذكر أن صرخاتي لم تكن بسبب الحزن فقط.. بل كانت احتجاجا صارخا

غاضبا على من حملني كي يبعدني عن المشهد كله.. كنت صغيرا جدا وكان كبيرا وتخيلت أنه يملك قوة أسطورية مادمت رغم محاولاتي المستميتة لم أستطع التملص من حضنه الخانق.. وكانت صرخاتي التي اختنقت فيها الكلمات فتلاشت عبارة عن توسل فاجع أتسول منه به أن يتركني ويعود فيستعمل قوته الخارقة في إنقاذ قطي.

لا أذكر شيئا بعد ذلك.. بل لجأت نفسي إلى حيلة معروفة في علم النفس.. كرهت الكلاب وتجنبت القطط دون أن أعرف لماذا حتى برزت الواقعة في ذاكرتي فجأة بعد أعوام طويلة كما تبرز الآثار المطمورة حين تزيح العواصف الهوجاء أكداس الرمال من عليها بعد آلاف السنين.. وتكرر بروز الحادثة واختفائها فكنت كل بضعة أعوام أتذكرها كما لو كانت قد حدثت بالأمس..

هل كان لذلك تأثير على مواقفي الحادة ضد الظلم وفي مؤازرة المظلوم طيلة حياتي..

كلما شاهدت شراسة معتد أو خيانة حارس استعدت الواقعة.. منذ طفولتي حتى اليوم.. إلا أنني في طفولتي الباكرة استعدتها آلاف المرات وأنا أغير الوقائع وأبدل الأحداث كي أنقذ قطي.. كانت أبسط الوسائل أن أجعل القط يتنبه عشر ثانية قبل الكارثة .. عشر ثانية كانت تتيح له الفرار..عشر ثانية كانت تريحني من ألم لم يبرحني العمر كله.. بعد ذلك كنت راميا أحمل جعبة من السهام أطلقها فأقتل بها الكلاب جميعا.. ثم فارسا على جواد أحمل رمحا أطعن به الكلاب جميعا.. ثم كاوبوي أستطيع أن أشهر مسدسي أسرع من قفزة الكلاب الشرسة فأرديها جميعا.. بل وتطور الأمر حتى استعملت الطائرات والقنابل كي أنقذ صديقي.. وفي أحيان أخرى كنت أصبح طبيبا شهيرا أعيد لقطي إبصاره كي لا يقع في المصيدة.. أو أحقنه بعقار جديد لا يعرف سره سواي يمنحه قوة أسطورية تجعله قادرا على تمزيق الكلاب جميعا.

وكنت دائما أعود من رحلة أحلام اليقظة آسيفا لأنني لم أنجح في تحقيقها أبدا.

المرة الأخيرة التي تذكرت فيها تلك الحادثة كانت أثناء حصار غزة..أثناء القصف والحصار وادعاءات مسيلمة عن المعبر المفتوح .. ثم ازداد تجسد الذكرى في اللحظة التي قرأت فيها عن تعذيب المجاهدين في بلادي..

السؤال الذي لم أعثر له على إجابة أبدا.. طيلة الستين عاما الأخيرة.. والذي يتسبب لي في ضيق لا يوصف.. وغضب لا ينفثئ.. ودهشة ليس لها تفسير.. وحزن ليس له عزاء.. هذا السؤال الذي ما يزال يدمدم في وجودي كله هو:

لماذا فعل كلبنا ذلك؟

لماذا خان..

لماذا في اللحظة التي كان يجب أن ينقذ فيها افترس..

كان المفروض أن يحمينا من الأعداء فلماذا انضم إلى الأعداء..

لماذا..

لماذا..

لماذا..

لماذا فعل كلبنا ذلك؟!..

...

فهل منكم من يجيبني ليريحني؟!..



الفأر

منذ أسبوعين تسلل فأر ضخم إلى حجرة مكتبي. فشلت معه كل وسائل القتل والطرد، بل أوشك أن يطردني، أخاف الفئران قليلا و أشمئز منها الاشمئزاز كله، فضلا على أن عضتها تصيب بداء الكلب وتستلزم الحقن المرهق بمصله.

تنبهت على حقيقة مدهشة .. طرفها الأول أن السموم التي نقصد أن تكون سموما مغشوشة وليس بها من السم ما يكفي لقتل فأر.. أما طرفها الثاني فهو أن السموم التي تقدم للبشر في شرابهم وطعامهم غير مغشوشة.. و أنها سريعة الأثر ناجعة المفعول.

عندما استيقظت لصلاة الفجر، بعد أسبوعين من الغزو، كانت المصيدة التقليدية قد نجحت في اصطياد الفأر.

لاحظت أن المصيدة قد تحركت عدة أمتار، ولم يمنعها إلا الحائط. وكان باب المصيدة قد أطبق على الفأر الضخم فأصبح نصفه خارج المصيدة ونصفه الآخر داخلها، وبه، بنصفه، حاول محاولة المستميت أن يفلت من الكارثة التي حاقت به على غير ترقب، حاول حتى أصبح ظهره للحائط، مبني ومعنى. وقلت لنفسي أنني لو أدركته لأطلقته. لو أدركته لفككت أسره راجيا أن أدخل الجنة برحمتي إياه.. لكنه كان قد مات.

المدهش إلى حد الذهول هو حجم الحزن الثقيل الذي خيم على قلبي، كنت أهتف دونها صوت: أليست روحا.. أليست روحا.. كنت أهتف دونها صوت وكنت أبكي دونها دموع.. وذلك هو أشد الصياح ارتفاعا وذاك هو أشد أنواع البكاء وحشية وقسوة. فالدموع ليست حزنا ولا هي حتى التعبير عنه، إنما هي – للدهشة – تنفيس يخفف لا تعبير عنه ولا تجسيد له.

مات الفأر إذن..

إن للموت لرهبة وحضورا..

لكن البشع المقزز أصبح بالموت مسكينا وجيفة. لم ينقص – بالموت من مادته شيء.. لكنه فقد بالموت كل شيء. لم يفقد شيئا لكنه في نفس الوقت فقد كل شيء..

أليست روحا يا كلاب العلمانية وخنازير الشيوعية. الفرق بين هذا الفأر وذاك ليس إلا تلك. تلك التي تنكرون تداعياتها و آثارها فتصبحون حيوانات كالأنعام بل أضل سبيلا.

رحت أتأمل الفأر في اشمئزاز مشفق. قصم باب المصيدة ظهره. أي عناء عاناه حتى مات.. ذكرني بنفسي، فأنا الآخر فأر قد قصمت ظهره مصيدة فلسطين وتمزق كبده في مصيدة العراق.

فأر..

أنا..

وها أندا أكافح بأقل من نصفي كثيرا. أنتظر الحائط المبني والمعني لكن المثير للاشمئزاز أنني وقعت في مصيدة المعنى والمبني حتى قبل أن أصل إليه.

هكذا فعلت الأمة.. ركنت إلى الراحة من الجهاد قبل أن تبدأه.

ذكرني الفأر بحكامنا.. قاوم ولم يقاوموا.. وكافح ولم يكافحوا.. ذكرني أيضا بشعوبنا. كان أشرف.

نابني الأمر حتى استيقظت علتي القديمة.. كتابة القصص.. فكرت أن أكتب قصة الفأر.. قصتي.. حاولت الاحتشاد فتبعثرت.. وحاولت التجمع فتناثرت.. خشيت أن يتحول الصراع من صراع ضد أعداء الله إلى صراع الإنسان في وجوده، في عنائه وكبده.. خشيت أن يتسلل الشيطان إليّ فيحافظ على تجمعي واحتشادي لكنه يوجهها إلى غير ما أريد.. فتناثرت وتبعثرت وتراجعت.

الرحلة

استيقظت فجأة. كنت ما زلت تحت تأثير النوم. أخذت أسترد وعيي بما حولي في بطء شديد. كنت في قطار. لم أكن قد استعدت بعد أي وعي أو إدراك لمحطة القيام أو محطة الوصول أو حتى غايتي من الرحلة. لم أكن قد تذكرت أي شيء. لكنني بالغريزة أو الفطرة أو الحدس كنت أدرك أنني عائد إلى موطن رأسي. دهشت قليلا. فموطن رأسي لا تمر به خطوط السكك الحديدية. خشيت أن أكون قد ضللت الطريق. أخذت أتطلع من نوافذ القطار الزاحف في بطء بين الحقول الشاسعة الخضراء. فجأة رأيتها. مقابر قريتي. لوهلة ارتجف قلبي. أليس هذا نذير شؤم. عزمت على قراءة الفاتحة لأبي. أنا خجل منك يا أبي. لم أزرك. لا أتصور أن أزورك وأنت ببطن الأرض وأنا أدب عليها. هل كانت عدم زيارتي احتجاجا على موتك؟ أستغفر الله. ليس هذا فكري إنما هي وسوسة شيطان. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هل كان ابتعادي رفضا لتقبل فكرة موتك؟ كأنني بزيارتي سأوقع على وثيقة الإقرار بموتك. لذلك لم أزرك. ثم أنني أعلم أنك لست هنا. أنت هناك. وليس هنا سوى الرميم. وأنا لا أريد رميمك بل أريدك أنت يا أبي. يا حبيبي. شغلني شاغل عن قراءة الفاتحة. هل سيقف القطار عند المقابر؟ لا أدري. لكن بعض الاطمئنان تسرب إليّ. فأنا لم أضل إذن ولم أفقد طريقي. لم يقف القطار في بلدتي. لكنه توقف في نجع قريب لا يفصله عن قريتي سوى مئات قليلة من الأمتار. بدأت أتبين جغرافيا المنطقة فالمقابر قريبة على يميني. أما بيت العائلة فهو بعيد وعلى اليسار. المسافة يمكنني قطعها على قدميّ. الحقائب ستكون ثقيلة لكنني سأعالج المشكلة. بل لن يكون في الأمر مشكلة. سألهث قليلا ثم أصل.كنت فرحا

بالوصول. ليس فرحا بالتحديد. ربما كان الارتياح لنهاية العناء.اندفع البعض للنزول من القطار. لم يركب أحد. فوجئت بعدم وجود رصيف للقطار. قفزت. كان القطار عاليا جدا وكانت الأرض منخفضة جدا. ولم يكن هناك درجات سلم. بعد أن قفزت فوجئت بمشكلة حقائبي. أخذت أنادى الراكبين في القطار لكي يقذفوا بها إليّ. كانوا مشغولين جدا. لم يسمعني منهم أحد. امرأة عجوز فقط لاحظتني فمدت يدها تحت المقعد الذي كنت جالسا عليه والتقطت نعلين خفيفين وقذفت بهما إليّ. كانا خفيفان جدا وناعمان جدا ورخيصان جدا. كان لونهما أخضر. أحب هذا اللون. وكذلك أمي كانت تحبه. كنت قد اشتريتهما لأرتديهما عند ذهابي للحج. وضعتهما برفق وحنان إلى جواري على الأرض وأخذت أناشد المرأة أن تقذف لي بحقائبي الكثيرة. جهد عمري وشقاء أيامي وثمرة مجهودي. كانت المرأة قد تشاغلت عني ولم تعد تسمعني. وجاءت امرأة ضخمة. عجوز ضخمة. افترشت باب القطار وحالت بيني وبين الناس. وأنا أصرخ فيهم بصوت لا يسمعه الناس ولا أسمعه أنا أيضا: حقائبي. الحقائب فوق الرف فيها ملابسي. والحقائب بين المقاعد فيها متاعي. أما الحقيبة البنية الصغيرة ففيها نقودي. اقذفوا الحقائب. أرجوكم. اقذفوها. سيتحرك القطار. سأفقد كل شيء. أحاول الرجوع إلى القطار. كان عاليا جدا. وكنت واطيا جدا. وكان الصعود إلى القطار مستحيلا. لم يكن هناك ما أصعد عليه. وكنت أترقب تحرك القطار في كل لحظة. وكنت عاجزا. وكان الناس لا يسمعون. ولا القطار سمع. وتسلل إليّ اليأس. وغمرني اليأس. وكان القطار على أهبة التحرك. كنت حزينا. لكن الغريب أن حزني لم يكن فاجعا.

وكانت المقابر قريبة على يميني. وكان البيت بعيدا على يساري. ولم أعد أملك سوى نعلين.. سأرتضيهما في طريقي إلى البيت.



كتب للمؤلف

اسم الكتاب	السنة	النوع	دار النشر
اغتيال أمة- طبعة أولى	١٩٨٧	سياسي	مكتبة مدبولي
الحاكم لصا	١٩٨٩	رواية	مكتبة مدبولي
مباحث أمن الوطن – صودرت بعد الطبع.	١٩٩١	قصص قصيرة	مكتبة مدبولي
اغتيال أمة –طبعة ثانية مزيدة	١٩٩١	سياسي	مكتبة مدبولي
قصر العيني	١٩٩٢	رواية	مكتبة مدبولي
من مواطن مصري إلى الرئيس مبارك	١٩٩٣	سياسي	الشركة العربية للطباعة والنشر
إعلانات مبوبة	١٩٩٤	قصص	دار جهاد للنشر
مباحث أمن الوطن (غير المصادرة)	١٩٩٧	رواية	مدبولي الصغير
أني أرى الملك عاريا	١٩٩٩	سياسي	مكتبة مدبولي
بغداد عروس عروبتكم	٢٠٠٠	سياسي	مدبولي الصغير
الوعي ينزف من ثقوب الذاكرة	٢٠٠١	سياسي	مكتبة مدبولي
بل هي حرب على الإسلام	٢٠٠٢	سياسي	مكتبة مدبولي

اسم الكتاب	السنة	النوع	دار النشر
الإخوان المسلمون (جزءان)	٢٠٠٨	سياسي-تاريخي	المختار الإسلامي
غزة .. عروس عروبتكم حفل إفطار رمضاني		سياسي قصص	
تحت الطبع			
هلك الفاجر		سياسة	
بروتوكولات حكماء العرب		رواية	

فهرس الكتاب

قائمة المحتويات

